الباب الرابع

تراجم لبعض علماء العرب والمسلمين في علم التاريخ

obeikandi.com

obeikandl.com

كعب الأحبار

هو **كعب الأحبار بن مانع اليماني**، يُكنى **بأبي إسحاق**، ويلقب **بالأحبار**؛ وهذا الاسم يُطلق عادة على العالم عند اليهود، وهو أعلى مركز علمي وديني يمكن أن يصل إليه الإنسان اليهودي، والثابت أن أصله من يهود حمير من آل ذي رعين، نما وترعرع في بيئة يهودية متعصبة في اليمن، وكان أبو إسحاق كعب الأحبار من كبار علماء اليهود في الجاهلية، ولكنه أسلم وحسُن إسلامه على عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه، وانتقل من اليمن إلى المدينة المنورة للإقامة فيها لكي يتم له الاختلاط بأهلها عن صدق وحُسن نية، لذا ذاع صيته وانتشر في الآفاق ذكر تواضعه وزهده وورعه وخشوعه بعد دخوله في الإسلام. كان مرجعاً موثوقاً به في الروايات التاريخية عن كل العرب في الجاهلية والديانة اليهودية، وعليه أخذ عنه صحابة رسول الله ﷺ أخبار العرب الأوائل خاصة الذين عاشوا قبل الإسلام في اليمن، كما أنه استفاد في دراساته وبحوثه التاريخية من القرآن الكريم والسُّنة الطاهرة وروايات صحابة رسول الله ﷺ . والحقيقة أننا لا نعرف بالضبط متى ولد في اليمن، ولكن الثابت أنه توفي سنة (٣٢ هجرية) في مدينة حمص السورية التي استوطنها في آخر أيام حياته في فترة خلافة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه. والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين يروون أنه مات عن عمر يناهز المئة وأربع سنين. إذن يتضح للقارىء أن السنوات الأخيرة من حياته الطويلة قضاها بين المدينة المنورة وحمص الشامية، وهذه السنوات كلها خير وبركة له شخصياً وللدين الإسلامي.

ينقل **محمد بن سعد** في كتابه «الطبقات الكبرى» ـ الجزء السابع ـ عن سعيد بن المسيب أنه قال: «قال العباس لكعب، ما منعك أن تسلم على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر حتى أسلمت الآن على عهد عمر؟ فقال كعب:

إن أبي كتب لي كتاباً من التوراة ودفعه إليّ وقال: اعمـل بهـذا، وختـم علـى سائر كتبه وأخذ عليّ بحق الوالد على ولـده أن لا أفض الخاتم، فلمـا كـان الآن ورأيت الإسلام يظهر ولم أر بأساً، قالت لي نفسي: لعل أباك غيـب عنـك علمـاً كتمك فلو قرأته ففضضت الخاتم فقرأته فوجدت فيه صفة محمد وأمته فجئت الآن مسلماً، فوالى العباس».

ليس لكعب الأحبار إنتـاج مكتـوب كمـا تبـين لنـا مـن أقـوال مؤرخـي الإسلام، ولكن المتواتر أن المؤرخين المسـلمين الأوائـل نقلـوا عنـه الكثـير مـن معلوماتهم عن كل مـن عـرب الجاهليـة واليهـود شـفوياً؛ لأنـه كـان الـراوي الدقيق لأخبار كل من اليهود والأنبياء وأهل اليمن، ولقد اشـتهر بـين زملائـه بسعة اطلاعه وثقافته العالية، لذا حذر المسلمين من أساطير اليهود والنصـارى وخزعبلاتهم البالية، وهكذا يقـف أبـو إسـحاق كعـب الأحبـار عملاقـاً بـين المؤرخين للحضارة الإسلامية، حيث صار بعد إسلامه حجة قوية بل هو سـد منيع ضد مقولات وأكاذيب أعداء الإسلام.

ينقل **شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه «أعلام النبلاء» ـ الجـزء الثالث ـ قصـة توحـي بخشية وصـدق إسـلام أبـي إسـحاق كعـب الأحبـار: «فروى محمد بن سيرين فقال: خرجنا إلى الشام، وصحبنا شيخ على حمار بين يديه مصحف يقرؤه، ويبكي، فقلت: ما أشبه هذا المصحـف بمصحـف شـأنه كذا وكذا، فقال: إنه هو. قلت: فأين تريد؟ قال: أرسـل إليَّ كعـب الأحبـار عام أول فأتيته ثم أرسل إليَّ فهذا وجهي إليه، قلت: فأنا معك، فانطلقنا حتى قدمنا الشام فقعدنا عند كعب، فجاء عشـرون مـن اليهـود فيهـم شـيخ يرفـع حاجبيه بحريرة فقالوا: أوسعوا أوسـعوا، فأوسـعوا وركبنـا أعنـاقهم فتكلمـوا، فقال كعب: أتجيب هؤلاء أو أجيبهم؟ قال: دعوني حتى أفقه هؤلاء ما قالوا، إن هؤلاء أثنوا على أهل ملتنا خيراً، ثم قلبوا ألسنتهم، فزعموا أنا بعنا الآخـرة بالدنيا، هلم فلنواثقكم، فإن جئتم بأهدى مما نحن عليه اتبعناكم وإلا فاتبعونـا

إن جئنا بأهدى منه، قال: فتواثقوا، فقال كعب: أرسل إليَّ ذلك المصحف فجيء به فقال: أترضون أن يكون هذا بيننا؟ قالوا: نعم لا يحسن أحد أن يكتب مثله اليوم، فدفع إلى شاب منهم فقرأ كأسرع قارىء، فلما بلغ إلى مكان منه نظر إلى أصحابه كالرجل يؤذن صاحبه بالشيء ثم جمع يديه فقال: يه فنبذه، فقال كعب: آه، وأخذه، فوضعه في حجره فقرأ فأتى على آية منه فخروا سجداً وبقي الشيخ يبكي، قيل: وما يبكيك؟ قال: ومالي لا أبكي، رجل عمل في الضلالة كذا وكذا سنة ولم أعرف الإسلام حتى كان اليوم».

وخلاصة القول: عندما أشرق الدين الإسلامي كان من المهم جداً عند قادة المسلمين معرفة الأوائل والأحداث التاريخية المتعلقة بهم، والمعروف آنذاك أن كثيراً من أهل التاريخ هم اليهود والنصارى الذين دخلوا في الإسلام، بدأ بعضهم يبثون تاريخهم وخرافاتهم العقيمة بين المسلمين حسب توصيات آبائهم، لذا أخذ كعب الأحبار بعد اعتناقه الإسلام على عاتقه مسؤولية نشر محاسن الدين الإسلامي وإبراز عيوب الديانة اليهودية، وذلك خلال المقارنة العلمية والتعليل المنطقي الخالي تماماً من التحيز؛ لأنه كان يعرف بوضوح تاريخ اليهود وأخبار حوادثهم حسبما وردت في كتابهم التوراة، وهكذا قدم أبو إسحاق كعب الأحبار خدمة جليلة للحضارة العربية والإسلامية، حيث صارت أحاديثه من المصادر القوية للدارسين والباحثين في مجال علم التاريخ.

لأبي إسحاق كعب الأحبار آراء ونظريات في سياسات وأخلاق اليهود نبه عليها المسلمين بطريقة دبلوماسية تدل على حكمته ومقدرته العلمية، فهو بحق عالم متميز، أخذ عنه المؤرخون المسلمون ليس فقط أخبار اليهود التاريخية، ولكن أيضاً قصص الأنبياء وسير وآثار العرب في الجاهلية. إذن يمكن القول: إنه واسع الاطلاع مستقل في آرائه واتجاهاته الإسلامية في جميع الموضوعات التي تناولها، والمتواتر أنه أكبر العلماء الذين سرّبوا أخبار اليهود إلى المسلمين فلله دره.

والمعروف أن لأبي إسحاق كعب الأحبار آثاراً خالدة في علم التاريخ، نقلها عنه كبار المؤرخين في العالم الإسلامي مثل ابن سعد والذهبي والثعالبي والكسائي والطبري وغيرهم، ولحسن الحظ بقيت هذه المعارف محفوظة في مؤلفاتهم؛ لأنه لم يثبت أنه خلف شيئاً مكتوباً باسمه في ميدان علم التاريخ، كما ذاع صيته بأنه من أصحاب الكفايات الجيدة ومن مفكري القرون الوسطى في رأي الكثير من المؤرخين في المعمورة. لذا يُعتبر كعب الأحبار من الراسخين في مجال علم التاريخ، وما نقل عنه يبرهن على علمه بالثقافة اليهودية وأساطيرها البالية.

openkandil.com

عبيد بن شرية

هو **عبيد بن شرية الجرهمي** ويلقب **باليماني**، والبعض يسمونه عبيد بن سارية الجرهمي، ولكن هناك شبه إجماع على أن اسمه الحقيقي عبيد بن شرية الجرهمي اليماني. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أن الله تبارك وتعالى أمد بعمره في الجاهلية والإسلام، وأسلم وحسُن إسلامه، ولكن لم يتمكن من رؤية صفوة الخلق مُحمد بن عبد الله ﷺ . اختلف المؤرخون في أصله، ولكن المتفق عليه أنه من اليمن، حيث نشأ وترعرع في صنعاء، وتوفي سنة (٦٧ هجرية).

قدم عبيد بن شرية إلى دمشق من صنعاء والتقى بالخليفة معاوية بن أبي سفيان وأعجب به الخليفة كثيراً، لذا طلب منه أن يقدم له معلومات مفصلة عن ملوك كل من العرب والفرس؛ لأنه كان مؤرخاً وقصاصاً، ففرح عبيد بن شرية بهذا التكليف والتكريم وعمل عملاً رائعاً في هذا المجال الهام، ووضعه بين يدي الخليفة معاوية بن أبي سفيان فسر به وشكره على ذلك، وأمر أن يدوّن ذلك رسمياً باسم عبيد بن شرية الجرهمي، ونتيجة لهذا الحدث العظيم خرج كتابه: «الملوك وأخبار الماضين»، الذي يحتوي على بعض القصص والأخبار التي تتصف بالطابع الخيالي والأسطوري، كما يشتمل أيضاً على معلومات في غاية الأهمية في ميدان كل من الجغرافية والتاريخ القديم.

ينقل **السيد عبد العزيز سالم** في كتابه آنف الذكر عن مصادر كثيرة أن المؤرخين: «اختلفوا في أصله، فروي أنه كان من أهل صنعاء، وقيل: إنه من الرقة بالعراق، والأرجح أنه كان يمنياً وجرهمياً بالذات. وكان قصَّاصاً أخبارياً، أدرك النبي ﷺ ، ولكنه لم يسمع منه شيئاً، ثم وفد على معاوية بن أبي سفيان، وبرز في بلاطه، وذكروا أنه كان يسمع معاوية كل ليلة شيئاً من أخبار العرب وأيامها، وأخبار العجم وملوكها وسياستها لرعيتها، وأنه ألف

له كتاب «الملوك وأخبار الماضين» الذي طبع في ذيل (كتاب التيجان في ملوك حمير) المنشور في حيدر آباد دكن في الهند (سنة ١٣٤٧ هجرية) بعنوان: (أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها) لأبي محمد بن هشام بن أيوب الحميري (ت٢١٣هـ). وكتاب ابن شرية يتضمن كثيراً من أخبار العرب في الجاهلية، كما يشتمل على كثير من الأشعار التي وضعت على لسان عاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة. كذلك يضم الكتاب بعض أخبار بني إسرائيل، ويغلب على جميع هذه الأخبار طابع القصص الشعبي المتأثر بالإسرائيليات. وقد أفاد الهمداني في كتابه «الإكليل» من أخبار عبيد بن شرية، فنقل نتفاً منها».

اشتهر عبيد بن شرية باهتمامه بكل قديم، فقد درس الكثير جداً من قصص وأساطير القبائل العربية، محاولاً بذلك إبراز الشخصية اليمنية، ونتيجة لذلك نما عنده حب المسامرات. فعندما زار دمشق مَثَلَ أمام الخليفة معاوية ابن أبي سفيان، وعندئذ عمل معه حواراً طويلاً عن الحياة الاجتماعية والسياسية؛ لأن معاوية بن أبي سفيان يعرف تمام المعرفة أن عبيد بن شرية موسوعة متحركة في كل من أخبار وأساطير وقصص العرب المكتوب منها والشفوي، وخاصة المأخوذة عن العصور القديمة. والجدير بالذكر أن عبيد بن شرية تفنن في ميدان الإسرائيليات لاتصاله المباشر بأهل الكتاب ولبحثه الطويل في الكتب المقدسة.

ينقل **ياقوت الحموي** في كتابه «معجم الأدباء» ـ الجزء الثاني عشر ـ : «اللقاء الودي الذي صار بين معاوية بن أبي سفيان وعبيد بن شرية، قال معاوية: أخبرني عن المال أيه أحسن في عينيك؟ قال: أحسن المال في عيني أنفعه غناء وأقله عناء، وأجداه على العامة، عين خرارة في أرض خوَّارة (قابلة لامتصاص الماء) إذا استودعت أدت، وإذا استحلبتها درت وأفعمت، تعول ولا تعال. قال معاوية: ثم ماذا؟ قال: فرس في بطنها فرس تتبعها فرس، قد

ارتبطتَ منها فرساً. قال معاوية: وأي النعم أحب إليك؟ قال: النعم لغيرك يا أمير المؤمنين. قال: لمن؟ قال: لمن فلاها بيده، وباشرها بنفسه. قال معاوية: حدثني عن الذهب والفضة، قال: حجران إن أخرجتهما نفدا، وإن خزنتهما لم يزيدا. قال معاوية: فأخبرني عن قيامك وقعودك، وأكلك وشربك ونومك.. قال: أما قيامي: فإن قمت فالسماء تبعد، وإن قعدت فالأرض تقرب، وأما أكلي وشربي: فإن جعت كلبت، وإن شبعت بهرت، وأما نومي: فإن حضرت مجلساً حالفني، وإن خلوت أطلبه فارقني».

وخلاصة القول: يتضح للقارىء أن عبيد بن شرية الجرهمي اليماني كان رجلاً حكيماً حاضر البديهة لديه ثقافة شاملة، لذا يُعتبر بحق من الأساطين المشهورين في مجال قصص وأساطير العرب بالجاهلية. والمعروف أنه توخى في جميع أعماله التاريخية والأدبية والعلمية الدقة في النقل. وله إسهامات تاريخية جيدة ظهرت في كل من مؤلفيه: كتاب «الأمثال» وكتاب «الملوك وأخبار الماضين» اللذين بقيا من المراجع الضرورية للباحثين في ميدان علم التاريخ العربي من العهد الجاهلي إلى أيام عبد الملك بن مروان.

والحقيقة التي يلزم ذكرها هنا أن جميع القصص والأساطير التاريخية التي رواها المؤرخ والقصصي والأسطوري عبيد بن شرية في إنتاجه التاريخ تدل على صدقه وأمانته؛ لأنه كان دائماً يعيدها إلى أصحابها دون ستثناء. ولاشك أن عبيد بن شرية أسدى بدراسته التاريخية خدمة جليلة للباحثين والدارسين في حقل تاريخ العرب قبل الإسلام؛ لأنه كشف بطريقة علمية أبعاداً جديدة في ميدان القصص والأساطير التاريخية التي كانت منتشرة حينئذ، علماً أنه لم يقتصر عمله على تاريخ العرب قبل الإسلام، بل له أيضاً إسهامات قيمة في التاريخ الإسلامي، ولذا اعتنى به الخليفة معاوية بن أبي سفيان عند زيارته لدمشق وقربه منه.

عبد الله بن العباس

هو **عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي**، ابن عم رسول الله ﷺ ، يلقب **بالبحر** لكثرة علمه، ويُكنى **بأبي العباس**، ولد في مكة المكرمة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة بثلاث سنوات، كان ملازماً لصفوة الخلق رسول الله ﷺ، لذا روى عنه أحاديث كثيرة جداً، قيل إنها تصل (١٦٦٠ حديثاً). اشتهر بفصاحته وتواضعه وكرمه، وأنه ترجمان القرآن الكريم، عاش أبي النفس عازفاً عن الدنيا وحطامها وملذاتها. أبعد نفسه تماماً عن السياسة، واكتفى بالبحث والتنقيب والاستقصاء في كل من علم التفسير والفقه واللغة والتاريخ والأدب والحساب وغيرها من العلوم الشرعية والأساسية، ولكن ذاع صيته في الروايات التاريخية التي حرص كل الحرص فيها على الإسناد الموثق. كما دعا له رسول الله ﷺ، فصار عنده ذاكرة عجيبة يحفظ بها ما يقال ولو مرة واحدة. وهناك قول مأثور يتناقله المؤرخون: أن عبد الله بن عباس أعلم الناس بالقرآن الكريم بينما علي بن أبي طالب أعلمهم بالمبهمات. لاشك أن أبا العباس علامة العصور وإن لم يخلف كتاباً مكتوباً، ولكنه بالحقيقة ترك إرثاً ثميناً من المعارف مدوّن بصحائف احتفظ بها طلابه حيث أصبحت من الوثائق الهامة جداً للمؤرخين عبر العصور. وفي آخر أيام حياته فقد بصره وانتقل إلى مدينة الطائف، واستوطنها وتوفي هناك عام (٦٨ هجرية) عن عمر يناهز ٧١ سنة.

ينقل **محمد بن سعد منيع الهاشمي البصري** المعروف بابن سعد في كتابه آنف الذكر: «أن عبد الله بن العباس قال: دعاني رسول الله ﷺ، فمسح على ناصيتي، وقال: «اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب» وعن عبد الله بن عبد الله عن عتبة قال: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم وسيب ونائل، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا أعلم بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا تفسير

obeikandl.com

القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه، ولا أعلم بما مضى، ولا أثقف رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه الفقه ويوماً التأويل ويوماً الشعر ويوماً أيام العرب، وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً» .

تميز عبد الله بن العباس بعلمه وحكمته، لذا إذا صار خلاف بين صحابة رسول الله ﷺ في مسألة شرعية كانوا يروونها إليه لكي يقدم لهم الحكم الشرعي فيها، ولهذا سمي «حبر الأمة» الإسلامية دون منازع. والجدير بالذكر هنا أنه تحمس لدراسة السيرة النبوية؛ لأنه يعتقد أنها المرشدة للأخلاق الكريمة والزاجرة عن الدناءة والرذيلة، وقد شارك مشاركة فاعلة في فتوحات إسلامية كثيرة. وله صولة وجولة أيضاً في تاريخ كل من العرب البائدة والإسرائيليات والمغازي. والحقيقة أن أبا العباس ترك صحفاً كثيرة لورثته تحتوي على معارف قيمة جداً تُعتبر أصولاً تاريخية نادرة.

يقول **أنور الجندي** في كتابه «أعلام الإسلام»: «وقد بلغ من عمق فهمه للسياسة أنه عارض الحسين في الخروج، ونصحه بعدم السفر، وقال: إنه لا يستبعد أن يكذبوك أو يخذلوك. وكان قد أبعد نفسه عن معارك الساسة، واكتفى بالعلم والفقه، وكان معاوية يقدره رغم اختلافه في الرأي، وقد أشركه في الجيش الذي أعده لفتح القسطنطينية عام (٤٨ هجرية)، وقد كان محباً لعثمان، وكان عثمان يثق به، وقد اشترك في فتح مصر وأبلى بلاءً حسناً، وكان حريصاً على أن يعفر وجهه بتراب الغزو في سبيل الله، كما أرسله عثمان في فتح بلاد طبرستان بقيادة سعيد بن العاص. وقد ولاه على البصرة فانتقل إليها بعلمه، وكان على ميسرة جند علي بن أبي طالب في صفين. قال عنه عمر بن الخطاب: إنه فتى الكهول، له لسان سؤول وقلب عقول. وقال علي بن أبي طالب: إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق لعقله وفطنته».

وخلاصة القول: اهتم علماء العرب والمسلمين الأوائل اهتماماً بالغاً في طلب العلم والحث عليه بطرق مختلفة؛ لأنهم يعتقدون أن العلم هو الوسيلة الوحيدة إلى الرقي والتقدم، وبدون العلماء لا يمكن أن يكون للأمة شأن، والمعروف لدى الصغير والكبير أن التاريخ للعلماء والأفذاذ، وكان عبد الله ابن العباس يرى أن البحث والدراسة شرف وفضيلة، وكان دائماً يقول لطلابه: «خُير سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأعطي المال والملك معه». وهكذا عرف علماء المسلمين الأوائل أن الأمم لا تقاس بعدد أفرادها وإنما تقاس بعلمائها الذين يشقون لها الطريق السوي ويرسمون لها أيضاً المنهاج العلمي القويم.

ولقد أوقف عبد الله بن العباس حياته على خدمة كل من العلوم الشرعية والتاريخ الإسلامي. كما صرف كل وقته في نصرة دينه الحنيف، حيث حمل بكل شجاعة لواء الدفاع عن العقيدة الإسلامية باستخدام عقله وجسده، واستطاع بالفعل أن ينجح في هذه المهمة مستعملاً الحجة والبرهان. والحقيقة أن عبد الله بن العباس لم يكن مغموراً ومجهولاً عن أهل عصره، بل على العكس كان عملاقاً يشهد له بتفوقه في معظم فروع المعرفة وفي مقدمتها تفسير القرآن الكريم والفقه والتاريخ واللغة، وعليه جعل طلابه يعملون ليلاً ونهاراً لجمع مادته العلمية التي خلفها لهم. لذا يذكر **مصطفى بن عبد الله** الشهير **بحاجي خليفة** في كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» ـ المجلد الثاني ـ : أن أبا بكر محمد بن موسى بن يعقوب بن أمير المؤمنين المأمون قد جمع فتاوى عبد الله بن العباس في عشرين مجلداً. وأضاف أيضاً **عمر رضا كحالة** في كتابه: «معجم المؤلفين» ـ الجزء السادس ـ: أنه يُنسب لعبد الله بن العباس كل من تفسير القرآن الكريم، ومسند الحديث. وهكذا يقف عبد الله بن العباس في الصف الأمامي لجهابذة الفكر في الحضارة الإسلامية.

لا ريب فابن العباس عالم فذ يكلّ القلم عن وصفه، حيث إنه غزير المعرفة عالي الهمة، تفنن في فهم القرآن الكريم وتفسيره، كما أنه اعتمد اعتماداً كبيراً على الإسناد في رواية الحديث. والمتواتر أنه مستقل التفكير في غربلته الروايات والأقاويل، فينفي ما يشك فيه ويثبت ما يرتاح إليه، وعنده أسلوب رائع في الكتابة يمتاز بالسهولة والجزالة والوضوح، وهذا كله نتيجة سعة اطلاعه على الأدب وأشعار وأخبار العرب.

obeikandl.com

عروة بن الزبير

هو **عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي**، يكنى **بأبي عبد الله**، ويلقب **بعالم المدينة المنورة**، اختلف على تاريخ ميلاده، ولكن المتفق عليه أنه ولد سنة (٢٣ هجرية) في المدينة المنورة، نما وترعرع في المدينة المنورة وأخذ الحديث عن صحابة رسول الله ﷺ. كان صالحاً أميناً رائقاً، شقيق الشهيد عبد الله بن الزبير. كان خلوقاً يكره المجاملات الكاذبة، وأمه أسماء ابنة أبي بكر الصديق ذات النطاقين، وخالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها التي لازمها وتفقه بها، ذاع صيته بين معاصريه بأسلوبه السلس الصريح البعيد عن التحيز، كان يقرأ ربع القرآن الكريم كل ليلة، ينتسب إلى بيت من أشرف وأنبل بيوت العرب، ولذا كان لهذا الأثر الكبير في طموحاته ورواياته التاريخية. كان أيام إمارته على المدينة المنورة (٨٧ ـ ٩٣ هجرية) ويُعتبر أيضاً من القواد الأشاوس ومن كبار مفكري الحضارة العربية والإسلامية. زار مصر سنة (٤٨ هجرية) وتزوج منها واستوطنها سبع سنين، توفي بعد قطع رجله في ثماني سنين وهو صائم في قريته فرع بالقرب من المدينة المنورة سنة (٩٤ هجرية). وفي نفس السنة التي قطعت فيها رجله توفي ابنه عبد الله فحزن حزناً شديداً على فراقه.

أما قصة قطع رجل عروة بن الزبير عندما كان في الشام عند الخليفة الوليد ابن عبد الملك بن مروان. فقد تناقلها المؤرخون على الصيغة الآتية: «كان عروة ابن الزبير قد قصد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي جمع له الأطباء من كل مكان ليداووه من داء في ساقه، وكان أن قرروا قطع هذه الساق، ولكن كيف! عرضوا عليه الخمر ليسكروه فلا يحس بالألم فرفض، وقال: لا أستعين على قضاء الله بمعصية، وأرادوه على أن يشرب المرقد (البنج) فقال: لا، وقبل أن يقطعوا ساقه وهو يصلي! قال لهم: سأدخل في ذكر الله، فإذا رأيتموني استغرقت، فشأنكم بها. فلما رأوه استغرق قطعوا اللحم بالسكين المحماة

بالنار، حتى إذا بلغوا العظم نشروه بالمنشار وهو يكبر، ثم عمدوا إلى تعقيم ساقه فحموا الزيت في مغارف الحديد. وقال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط، وقال: اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت واحداً وأبقيت ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفاً وأبقيت ثلاثة، ولئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت».

كما يروي **أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان** في كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» - الجزء الثالث - رواية هامة تدل على تواضع وزهد وورع عروة بن الزبير منذ نعومة أظفاره وهي: «اجتمع في المسجد الحرام كل من عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير وأخويه مصعب وعروة فقال بعضهم: هلم فلنتمنه، فقال عبد الله بن الزبير: منيتي أن أملك الحرمين وأنال الخلافة. وقال مصعب: منيتي أن أملك العراقين وأجمع بين عقيلتي قريش سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة. وقال عبد الملك بن مروان: منيتي أن أملك الأرض كلها وأخلف معاوية. فقال عروة: لست في شيء مما أنتم فيه، منيتي الزهد في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة وأن أكون ممن يروى عنهم هذا العلم. فقال عبد الملك بن مروان لذلك: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة بن الزبير».

وخلاصة القول: اهتم المؤرخون المسلمون بدراسة وتدريس السيرة النبوية؛ لأنها مرجع تاريخي ضروري للباحثين في التاريخ الإسلامي، من هنا ركّز عروة بن الزبير على جمع مادته من المصادر الأولية صحابة رسول الله ﷺ وفي مقدمته والده الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة. لقد تفنن عروة بن الزبير في كتابة السيرة النبوية، لذا يُعتبر أول من كتب عن حياة الرسول ﷺ بوضوح وبروايات صحيحة مستمدة من منابعها الأصلية، وعليه يرى بعض المؤرخين أن التدوين الحقيقي للتاريخ الإسلامي بدأه عروة بن الزبير.

obeikandi.com

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «وأسلوب عروة في التأليف بسيط بعيد عن الإنشاء، في حين أن نظرته واقعية صريحة وخالية من المبالغات. وقد مكنته منزلته الاجتماعية من الحصول على معلومات تاريخية من مصادرها الأولية وخاصة عن عائشة وآل الزبير، أسرته، وقد حصل على بعض الوثائق، كما أنه أشار إلى آيات قرآنية تتصل بالحوادث. وقد أمضى عروة حياته بين الدرس والتدريس، فكان يتبع الحديث والعلم وروى عن أعلام المدينة من رجال ونساء مثل عائشة وعمر وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمرو ابن العاص وأبي هريرة وعبد الله بن عباس. وأصبح من فقهاء المدينة السبعة ومن أعلام محدثيها حتى قال عمر بن عبد العزيز عنه: (ما أحد أعلم من عروة ابن الزبير). وقال الزهري: (كان عروة بحراً لا يكدره الدلاء)».

ولقد اعتمد معظم من كتب في السيرة النبوية على روايات عروة بن الزبير؛ لأنه يعتبر بحق من الطبقة الأولى من مؤرخي السيرة، حيث تناول جوانب متعددة من حياة صفوة الخلق الرسول ﷺ . كما أنه أيضاً أعطى اهتماماً خاصاً للمغازي، فله الفضل الجزيل في تقديم معلومات ناضجة ومفيدة للغاية عنها للدارسين والباحثين. إذن ليس بغريب أن يعتبر عروة بن الزبير مؤسس مدرسة المغازي، فهو أول من ألف كتاباً فيها.

كان عروة بن الزبير عالماً في خفايا السيرة النبوية متقناً لها متفنناً في كتابتها، قادراً بذكاء وصواب رأي أن يشرح غوامضها ومعانيها، وعليه يجمع المؤرخون أنه بحر لا ينزف في العلوم الشرعية، وأن ما كتبه في مجال السيرة النبوية يعتبر أقدم وأصل معلومات في حياة سيد البشرية الرسول ﷺ ، لذا بقيت جميع أعماله في السيرة من المصادر الهامة جداً للباحثين في هذا المضمار الحيوي.

أبان بن عثمان بن عفان

هو **أبان بن عثمان بن عفان** الذي اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته، ولكن الأكثر أنه ولد في المدينة سنة (٢٠ هجرية)، نما وترعرع في بيئة علم ووقار وجاه، فأبوه الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثالث الخلفاء الراشدين، وهكذا نهل من المعارف المختلفة في صباه، صحب أبان بن عثمان بن عفان عائشة رضي الله عنها في معركة الجمل وهو في ريعان شبابه وذلك سنة (٣٥ هجرية)، ذاع صيته بين زملائه بكل من ثقافته العالية في العلوم الشرعية ومعرفته الواسعة في مجال المغازي. وقد عينه عبد الملك بن مروان ـ الذي نقل دواوين الدولة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وضرب العملة الإسلامية ـ والياً على المدينة المنورة لمدة سبع سنين. تميز بالصدق والأمانة والتواضع والورع، ويعتبر بحق محدثاً موهوباً، مرض مرضاً عضالاً في المدينة المنورة، وتوفي فيها سنة (١٠٥ هجرية).

يقول **محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري** المعروف بابن سعد في كتابه آنف الذكر: «كان يحيى بن الحكم بن أبي العاص بن أمية على المدينة عاملاً لعبد الملك بن مروان، وكان فيه حمق، فخرج إلى عبد الملك وافداً عليه بغير إذن من عبد الملك، فقال عبد الملك: ما أقدمك عليّ بغير إذني؟ من استعملت على المدينة؟ قال: أبان بن عثمان بن عفان. قال: لاجرم لا ترجع إليها، فأقر عبد الملك أباناً على المدينة، وكتب إليه بعهده عليها.. وكانت ولاية أبان على المدينة سبع سنين، وحج بالناس سنتين، وعزل عبد الملك بن مروان أباناً عن المدينة وولاها هشام بن إسماعيل».

اعتنى أبان بن عثمان بن عفان في دراسة المغازي لأنها تجمع بين الحديث والتاريخ، من هنا أشرقت بحوث المغازي في مدرسة المدينة المنورة التاريخية على يد أبان بن عثمان بن عفان، حيث لم تكن معروفة في الأقطار الإسلامية

الأخرى إلا في القرن الثاني الهجري. والجدير بالذكر أن أبان تفنن في بحوثه في هذا المجال الحيوي، ولكنه أبدع في سيرة الرسول ﷺ، وعليه تمكن من تقديم أعمال جليلة في كل من الحديث والمغازي والفقه، وهكذا يقف أبان ابن عثمان عملاقاً في حقل أخبار غزوات صفوة الخلق الرسول ﷺ والذين اشتركوا فيها من الصحابة الأبرار رضي الله عنهم.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «وقد اهتم **أبان بن عثمان ابن عفان** برواية المغازي التي رواها عنه مالك بن أنس وابن سعد والطبري.

فهو مرحلة بين دراسة الحديث وبين تدوين التاريخ، ولعله لهذا روت عنه كتب الحديث كثيراً».

وخلاصة القول: اهتم علماء العرب والمسلمين الأوائل في دراسة المغازي دراسة عميقة وموثقة. وقد عرف أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» ـ الجزء الثاني ـ المغازي بأنها: جمع مغزى ومغزاة، وكلاهما معناه موضع الغزو أو الغزو نفسه، ثم توسعوا في معناها فأطلقوها على مناقب الغزاة وغزواتهم، ثم نجدهم استعملوها استعمالاً واسعاً للدلالة على حياة الرسول ﷺ حتى جعلوها مرادفة للسيرة، لذا اتجه أبان بن عثمان بن عفان إلى البحث في كل من علم الحديث والمغازي وتفوق فيهما تفوقاً ملحوظاً، حتى صارت أعماله في هذين المجالين من المصادر الهامة جداً للباحثين والدارسين في ميدان علم التاريخ، والحقيقة أن أبان بن عثمان بن عفان كان يمثل مدرسة كل من الحديث والمغازي، حيث تفنن فيهما، وأصبح في المدينة المنورة إماماً لطبقات مؤرخي السيرة.

وليس بغريب أبداً أن يبرز أبان بن عفان بين زملائه بكل من علمه وخلقه وبصيرته، فأبوه الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي وصلت الفتوحات الإسلامية في عهده شرقاً إلى أقصى بلاد فارس حينئذ وشمالاً إلى

obeikandl.com

أرمينية التابعة للدولة البيزنطية، وفي فترة خلافته تكونت أول قوة بحرية لصد أساطيل الأعداء عن سواحل كل من مصر والشام، وبواسطة هذه القوة البحرية نجحت الجيوش الإسلامية في وقعة ذات الصواري سنة (٣٤ هجرية)، وهذا يوحي بتفوق البحرية الإسلامية على جميع بحريات دول البحر الأبيض المتوسط الشرقية.

لقد تواتر أن أبان بن عثمان بن عفان كان يقول لأصحابه: «من قال لا إله إلا الله العظيم سبحان الله العظيم وبحمده لا حول ولا قوة إلا بالله عوفي من كل بلاء يومئذ». وهذا دون شك يدل على صلاحه وصدق مقاصده. والجدير بالذكر هنا أنه حارب دون هوادة الأساطير والقصص الفاسدة، وركّز في جميع أعماله على مصدرين هامين القرآن الكريم والسُّنة الطاهرة، ولذا عرف باسم إمام الحديث وعلومه، وقد عاش أبان بن عثمان بن عفان حياة متواضعة بعيدة كل البعد عن المظاهر والغرور مترفعاً عن الحسد متعالياً عن الأصولية، عف النفس أبي الخلق، كان يحمل كل هذه الصفات الحميدة؛ لأنه كان متأثراً بأخلاق والده الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

تميز أبان بن عثمان بن عفان في بحوثه في كل من الفقه والسيرة والمغازي والفتوحات الإسلامية. والمعروف في ذلك الوقت أن المحدث مؤرخ. وعليه تمكن من جمع مادته العلمية في ميدان السيرة النبوية من قراءاته وسماعه لروايات أصحاب رسول الله ﷺ، لذا صار إنتاجه في مجال السيرة النبوية مرجعاً هاماً للمؤرخين ليس فقط في السيرة النبوية ولكن أيضاً في علم التاريخ، فالمؤرخ الكبير محمد الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠ هجرية) اعتمد اعتماداً كبيراً على ما كتبه أبان بن عثمان بن عفان في السيرة النبوية في تأليفه كتابه الشهير: «تاريخ الأمم والملوك». بهذا نستطيع أن نقول: إن أبان بن عثمان بن عفان قد أمدنا بمعلومات تاريخية قيمة عن كل من المغازي والحديث والفتوحات الإسلامية.

وهب بن منبه

وهو **وهب بن كامل بن منبه اليماني الصنعاني**، يكنى **بأبي عبد الله** ويلقب **باليماني** الأخباري، ولد في ذمار القريبة جداً من صنعاء العاصمة عام (٣٤ هجرية) وتوفي في مدينة صنعاء سنة (١١٤هجرية)، بدأت عليه بوادر الذكاء في سن مبكرة، ولذا نبغ في كل من العلوم الاجتماعية التي من بينها علم التاريخ والعلوم الشرعية. وتفوق على إخوانه الثلاثة: همام ومعقل وغيلان في مجال العلوم. كما اشتهر بورعه وزهده، فكان يحترم ويجل مخلوقات الله تبارك وتعالى بأنواعها المختلفة.

يقول **عمر رضا كحالة** في «معجم المؤلفين» ـ الجزء الثالث ـ: «وهب ابن منبه اليماني (أبو عبد الله) إخباري، من التابعين، له معرفة بأخبار الأوائل وأحوال الأنبياء وسير الملوك. أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن، وأمه من حمير. ولد بصنعاء، وصحب عبد الله بن عباس وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها، وتوفي بها. من آثاره: تصنيف في ذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم في مجلد، قصص الأنبياء، قصص الأخيار، كتاب القدر، وكتاب الإسرائيليات».

كان **أبو عبد الله وهب بن منبه** واسع الاطلاع صاحب ثقافة عالية. والمعروف أن عنده إلماماً جيداً في الكتب القديمة، ولذا يعتبر من المتخصصين في الإسرائيليات، حيث نقل نقلاً كثيراً من الإسرائيليات في مؤلفاته، ولقد درس عن كتب أخبار الأولين وخاصة الملوك والسلاطين عن طريق الروايات الشفوية والمكتوبة، كما تفنن في رواية القصص والأساطير الخاصة في كل من المسيحيين واليهود واليمنيين، وعليه عرف باسم الأخباري صاحب القصص، فاستطاع بحكمته وعقله أن يدخل منهج القصص على التاريخ عند العرب قبل الإسلام. ونقل عنه الكثير جداً من مؤرخي العرب، فإنتاجه العلمي يعتبر بحق مصدراً هاماً للباحثين في مجال علم التاريخ القديم.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه آنف الذكر: «وفي النهاية قد نتفق مع جمهرة المؤرخين الذين اعتبروا وهب في عداد الأخباريين الذين رووا تاريخ العرب قبل الإسلام، إضافة إلى روايتهم أخبار غير العرب وتحديداً الأخبار التي استقوها من الكتب المقدسة وسواها، بل ترانا نضيف أن «وهب» كان قد أدخل عنصر القصة إلى حقل التاريخ».

كان وهب بن منبه يجيد عدداً من اللغات مثل العربية والسريانية واليونانية والحميرية، لذا تمكن من فهم كل من التوراة والإنجيل جيداً، حيث له تأملات رائعة فيها. كما ذاع صيته بين زملائه بقدرته الفائقة على قراءة المؤلفات القديمة التي لا يستطيع قراءتها غيره من العلماء. وللأسف استغل وهب بن منبه قدرته العلمية بأن قدم قصصاً وأساطير عن اليمن تميل إلى المبالغة والخيال بطريقة تبين انحيازه لليمن.

يقول **أبو الحسن علي المسعودي** في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ـ الجزء الثالث ـ: «وحكى عثمان بن مرة الخولاني قال: لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوحاً من حجارة فيه كتابة باليونانية، فعرض على جماعة من أهل الكتاب، فلم يقدروا على قراءته، فوجه به إلى وهب بن منبه، فقال: هذا مكتوب في أيام سليمان بن داود عليهما السلام، فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يا ابن آدم لو عينت ما بقي من يسير أجلك، لزهدت فيما بقي من طول أملك».

نال وهب بن منبه شهرة عظيمة من أقواله وحكمه التي أعجبت عدداً كبيراً من المؤرخين، ونقل بعضها شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي في موسوعته آنفة الذكر من مصادر مختلفة وهي:

ـ إياكم وهوىً متبعاً، وقرين سوء، وإعجاب المرء بنفسه.

ـ العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قيّمه، والصبر أمير جنوده، والرفق أبوه، واللين أخوه.

ـ المؤمن ينظر ليعلم، ويتكلم ليفهم، ويسكت ليسلم، ويخلو ليغنم.
ـ ثلاث من كن فيه أصاب البر: السخاء، والصبر على الأذى، وطيب الكلام.
ـ استكثر من الإخوان ما استطعت، فإن استغنيت عنهم لم يضروك، وإن احتجت إليهم نفعوك.
ـ إذا سمعت من يمدحك بما ليس فيك، فلا تأمنه أن يذمك بما ليس فيك.

خلاصة القول: كانت هناك مشكلة قائمة بين حكومة اليمن والأحباش الذين دخلوا اليمن عنوة، لذا قرر كسرى فارس **أنوشروان** أن يساعد حكومة اليمن لإخراج الأباض من اليمن، فأرسل جيشاً إلى اليمن كان من ضمنه والد وهب بن منبه الذي أعجبه اليمن وأهله، فاستوطنه وصار مواطناً صالحاً، وأنجب وهب بن منبه الذي يُعتبر من عباقرة العرب والمسلمين. والجدير بالذكر أن والد وهب بن منبه اعتنق الإسلام في حياة سيد البشرية محمد بن عبد الله ﷺ. وعليه نما وهب بن منبه وترعرع في اليمن مسلماً يدافع عن العقيدة الإسلامية السمحة، إذن فهو يماني المولد والثقافة وأصله فارسي.

ولقد تمكن وهب بن منبه اليماني أن يدخل القصة بنجاح في حقل علم التاريخ، وذلك عن طريق كلامه عن كل من الشعوب البائدة وملوك اليمن ودخول الأحباش اليمن وحالة العرب المزرية قبل الإسلام والمعتقدات المسيحية واليهودية الفاسدة، كما أبرز بطريقة فنية مكانة اليمن التاريخية، حيث حاول أن يوحي للقارىء العادي أن عرب الجنوب كانوا متفوقين على عرب الشمال، وهذا بلا شك يعكس تحيز وهب بن منبه الواضح تجاه مسقط رأسه اليمن، على الرغم من أن الأخبار المتواترة أن المؤرخين كانوا يشيدون بصدقه وأمانته وتقواه وزُهده وورعه. والجدير بالذكر أن هناك إجماعاً بين المؤرخين في المعمورة أن عرب الشمال لهم السبق على عرب الجنوب بمآثرهم العلمية العظيمة وإنجازاتهم الرائعة في مجال علم التاريخ، فعرب الشمال هم الذين أعادوا الأمل والثقة لشباب الأمة العربية والإسلامية.

عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان

هو **عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري الظفري الأوسي**، يكنى **بأبي عمر**، ويلقب بكل من **الأنصاري والظفري والأوسي**. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أنه نما وترعرع في المدينة المنورة، كما انتقل إلى دمشق واستوطنها ردحاً من الزمن ليعلم الناس هناك أصول الدين الإسلامي، ولكنه عاد إلى مسقط رأسه المدينة المنورة عام (١٠١ هجرية)، وبقي فيها يعلم المواطنين ما ينفعهم ويحذرهم عما يضرهم، وهكذا ذاع صيته كقنديل من قناديل الحضارة الإسلامية، حيث كان من الرواة الثقات في موضوعي السيرة النبوية والمغازي. وعليه أصبح إنتاجه من المصادر الهامة للمؤرخين في كل من السيرة النبوية والمغازي ومناقب صحابة رسول الله ﷺ، لذا استند على إسهاماته في هذه المجالات الثلاثة كل من ابن إسحاق والواقدي في مؤلفاتهما المشهورة.

لقد تربى عاصم بن عمر بن قتادة في بيت علم وشجاعة، فجده قتادة الصحابي المتوفى سنة (٢٣ هجرية) شهد مع رسول الله ﷺ كلاً من بدر وأحد وفتح مكة المكرمة، واشتهر بين معاصريه بأنه من الرماة المتميزين، أما أبو عاصم عمر بن قتادة، فكان من رواة الحديث المعروفين، لذا أخذ عنه ابنه عاصم أحاديث كثيرة جداً، نقل بعضها عن أبيه قتادة بن النعمان. إذن لا غرابة أن يتفوق الابن عاصم بن عمر بن قتادة في كل من السيرة النبوية والمغازي ومناقب الصحابة. اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته، ولكن المتفق عليه أنه توفي سنة (١٢٠ هجرية) بالمدينة المنورة.

يقول **محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري** والمعروف بابن سعد في كتابه آنف الذكر: «وكانت لعاصم بن عمر بن قتادة رواية للعلم، وعلم السيرة، ومغازي رسول الله ﷺ، وروى عنه محمد بن إسحاق وغيره من

أهل العلم، وكان ثقة كثير الحديث عالمًا، كما وفد عاصم بن عمر على عمر ابن عبد العزيز في خلافته في دين لزمه قضاه عنه عمر، وأمره له بعد ذلك بمعونة، وأمره أن يجلس في جامع دمشق، فيحدث الناس بمغازي رسول ا لله ﷺ ومناقب أصحابه، وقال: إن بني مروان كانوا يكرهون هذا وينهون عنه، فأجلس فحدث الناس بذلك، فقفل، ثم رجع إلى المدينة، فلم يزل بها حتى توفي سنة عشرين ومئة في خلافة هشام بن عبد الملك».

وخلاصة القول: كان خلفاء المسلمين يحرصون كل الحرص على أن يسندوا لكبار العلماء تدريس الناس بالمسجد لكل السيرة النبوية والمغازي، ومناقب صحابة رسول ا لله ﷺ إضافة إلى بعض الأمور التي تتعلق في حياتهم اليومية، وذلك لأنهم كانوا يخافون أن يسمع الناس البسطاء لبعض المتعصبين ضد الإسلام، أو أن يأخذوا عن الذين لم يتحلوا بروح الدين الإسلامي الحنيف. والملاحظ أنه دائماً يوجد بين المسلمين عبر العصور الذين يعملون ليلاً ونهاراً على تثبيط عزائم وهمم المسلمين، وإدخال اليأس في قلوبهم. لذا كلف الخليفة الزاهد عمر بن العزيز العالم عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان أن يعلم الناس أمور دينهم في مسجد دمشق، امتثالاً لقول رسول ا لله ﷺ : «أكرموا العلماء فإنهم ورثة الأنبياء، فمن أكرمهم فقد أكرم ا لله ورسوله». وعليه بذل عاصم بن عمر بن قتادة قصارى جهده للتأكد من أن المواطنين حينئذ يعرفون تمام المعرفة أن الإسلام غايته المثلى التوحيد، وأن القرآن الكريم يؤكد على هذه الحقيقة في كل آية من آياته الطاهرات، كما ركز على أن المسلم لن يصل إلى غايته المطلوبة إلا بنصرة دين ا لله سبحانه وتعالى.

والحقيقة أن علماء المسلمين كانوا يرون أن العلم ضروري للإنسان بل إنه كالماء والهواء يجب ألا يمنع عن أحد، كما يلزم كل من تعلم علماً نافعاً أن يعلمه للآخرين طوعاً، ونتيجة لهذا المبدأ السامي صار طلاب العلم يأتون من كل حدب وصوب لتلقي تعليمهم العالي في البلاد الإسلامية؛ لكي ينهلوا من

ينابيع المعرفة وليتغذوا من أفكار جهابذة الفكر الإسلامي في كل من العلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها والتاريخ والعلوم الأساسية والتطبيقية، وغيرها من العلوم النافعة.

ولقد اعتمد عاصم اعتماداً كبيراً على مصادره العائلية في رواية كل من أحاديث رسول الله ﷺ ومغازيه وأخبار الصحابة؛ لأنه في معظم الحالات يروي الأحداث والأخبار عن أبيه عمر عن جده قتادة، لذلك تميزت جميع رواياته التاريخية، كما اعتنى اعتناء تاماً باستقراء الوقائع التاريخية استقراءً علمياً دقيقاً، لذا لعب دوراً تاريخياً واسعاً في كل من السيرة والمغازي، مما جعل فطاحل التاريخ يستندون إلى إسهاماته في هذين المجالين الحيويين في كتابة كتبهم التاريخية، حيث ثبت لهم أن معرفته بكل من السيرة النبوية والمغازي ومناقب الصحابة وافية، بل يُعتبر بحق من الرواة الثقات في هذين الميدانين، وهكذا يقف عاصم بن عمر بن قتادة عملاقاً بين المؤرخين المسلمين.

obeikandi.com

محمد بن مسلم الزهري

هو **محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري**، يكنى **بأبي بكر** ويلقب **بالزهري** نسبة إلى بني زهرة القبيلة العربية القرشية العريقة، والتي منها آمنة أم رسول الله ﷺ ، وعلى الرغم من هذا كانت عائلته فقيرة، ولكنها اهتمت بعلم الأنساب اهتماماً بالغاً، لذا تفنن أبو بكر الزهري بتسجيل نسب قومه. كما كتب كتاباً في نسب قريش فكان من المصادر الهامة للباحثين في هذا الميدان. عرف أبو بكر الزهري بأنه أحد كبار الفقهاء والمحدثين والمؤرخين في صدر الإسلام، بل يُعتبر أول من دوّن أحاديث رسول الله ﷺ ، ولد في مكة المكرمة سنة (٥٨ هجرية)، ونما وترعرع فيها، وتلقى تعليمه على جهابذة الفكر هناك. لقد اشتهر بذاكرته القوية حيث كان يحفظ عن ظهر قلب أكثر من ألفي حديث. انتقل إلى الشام واستوطن مدينة دمشق ردحاً من الزمان، ولكنه لم ينقطع أبداً عن الحجاز، حيث كان مستمراً بزياراته لمسقط رأسه، كما عمل مع كل من عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وكانوا يكنون له كل تقدير. والجدير بالذكر أنه حج مع هشام بن عبد الملك سنة (١٠٦ هجرية)، وعمل قاضياً شرعياً في دمشق في عهد يزيد بن عبد الملك، واختلف في تاريخ وفاته ولكن الثابت أنه توفي سنة (١٢٤ هجرية).

كان أبو بكر الزهري من أوعية العلم ليس فقط في علم الأنساب ولكن أيضاً في كل من علم التاريخ والفقه والحديث. كما ذاع صيته بين معاصريه بدقته في نقل الروايات التاريخية، لذا اعتبر من الثقات في رواياته التاريخية التي تتصف بالصراحة والطابع الإنساني، وهذا يظهر واضحاً من عرضه الوافي لدور الخليفة الراشد عمر بن الخطاب في إنشاء الدواوين وتنظيم الأعطيات، وكذلك العمل الذي قام به الخليفة الراشد عثمان بن عفان حول كل من جمع

القرآن الكريم والفتوحات الإسلامية التي تمت في عهده. وقد عرف عن أبي بكر الزهري قوة الإسناد، حيث كان يكتب جميع ما يسمع على الألواح والصحف ليساعد ذاكرته المتميزة، ونتيجة لذلك تفوق على جميع علماء عصره في ميدان كل من السيرة النبوية والمغازي والفقه، وإليه يرجع الفضل في رسم الخطوط العريضة للسيرة النبوية.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «قام أبو بكر الزهري ببحث واسع عن روايات المدينة وأحاديثها وكتب ما كان يسمع ليعين ذاكرته، وقد محص تلك الروايات ووضعها في إطار متين واضح. ودراسة رواياته التي وصلتنا تجعلنا نميل إلى أنه كان أول من أعطى (السيرة) ـ وهو التعبير الذي استعمله ـ هيكلاً محدوداً ورسم خطوطها بوضوح. وتبدأ خطته للسيرة بذكر بعض المعلومات عن قبل الإسلام والتي تتصل بحياة النبي محمد ﷺ . ثم يتناول النواحي الهامة من الفترة المكية من حياة الرسول ﷺ، ثم الهجرة إلى المدينة. ويتناول المغازي وفتح مكة، وبعض السفارات التي أرسلها الرسول والوفود التي قامت عليه، ويتحدث عن فعاليات أخرى للرسول ثم مرضه وانتقاله من هذه الحياة، وراعى الزهري التسلسل التاريخي في حوادث السيرة وأعطى تواريخ الحوادث المهمة، كان همه أن يحصل على (العلم) أو الأحاديث ويضمنها الأحاديث التاريخية، وهو يرى أن العلم ضرورة اجتماعية ودينية إضافة إلى أنه من أعمال التقوى، وبالتالي فإنه يكسب صاحبه شرفاً ومنزلة اجتماعية سامية».

خلاصة القول: يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «محمد بن مسلم بن شهاب الزهري الذي أسس المدرسة التاريخية في المدينة وفي الشام.. كان أول مدوني التاريخ الإسلامي، كتب مغازي الرسول وأعطى السيرة النبوية إطارها الذي نعرف إلى اليوم، وتناول عهد الراشدين ومطلع الأيام الأموية بأسلوب تقصى فيه الأخبار من أصحابها، ومحص الروايات وجمع

أسنادها في سند جمعي واحد، وراعى التسلسل التاريخي، وأبرز الأحداث الهامة وابتعد رغم حبه للشعر عن الشعر وعن القصص؛ أي أنه كتب التاريخ، ويظهر من مقتطفات الطبري عن الزهري أن هذا المؤرخ لم يعالج الفترة الأموية وإن كان أجاب الوليد عن أسئلة ألقاها إليه تتعلق بأعمار الخلفاء الأمويين وكتب أسنانهم ومدة حكم كل منهم. وتناول الزهري فترة الراشدين بالتفصيل يكشف عن أن الاهتمام بتجارب الأمة الإسلامية الأولى كان عاملاً آخر له أهميته في نشأة الكتابة التاريخية».

وأولى المؤرخون المسلمون الأوائل عناية خاصة لدراسة ومتابعة كل من السيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ والحالة الاجتماعية والسياسية للعرب قبل الإسلام وبعد دخولهم في الإسلام. مما جعل أبا بكر محمد الزهري يصر على تأسيس مدرسة المدينة المنورة التاريخية؛ لكي تتولى هذه المدرسة الجانب الحيوي من تاريخ الأمة الإسلامية (السيرة النبوية ومغازي رسول ﷺ). المشهود لأبي بكر الزهري أنه كان واقعياً فيما يكتبه في مجال علم التاريخ الإسلامي، حيث كان يحاول أن يبتعد عن المبالغة والتحيز في رواياته للحوادث التاريخية، ولهذا وقف أبو بكر الزهري في مقدمة مؤرخي صدر الإسلام يشار إليه بالبنان.

ويتضح للقارىء أن أبا بكر الزهري خصب القريحة، وصاحب ثقافة عالية، وأن معظم معلوماته التاريخية مأخوذ من السيرة النبوية والمغازي، وأن له أيضاً كتابات رائعة حول مغازي رسول الله ﷺ، ولاشك أن إنتاجه في مجال علم التاريخ مهد تمهيداً جيداً لوضع البحوث التاريخية على أساس ثابت، وذلك لأنه اهتم اهتماماً بالغاً بكل من تجارب وخبرات الأمة العربية والإسلامية.

موسى بن عقبة

هو **موسى بن عقبة بن أبي عياش**، يكنى **بأبي محمد**، ويلقب **بالمدني**، لا نعرف بالضبط تاريخ ميلاده، ولكن الثابت أنه ولد في المدينة المنورة، وتوفي فيها (سنة ١٤١هـ)، عرف بين زملائه باسم الإمام، حيث كان يفتي، ولكنه اشتهر بتفوقه بمغازي رسول الله ﷺ . وينقل الإمام **الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني** في كتابه «تهذيب التهذيب» قول الإمام مالك بن أنس: «عليكم بمغازي ابن عقبة وهي أصح المغازي». أما **خير الدين الزركلي** فيقول في كتابه «الأعلام»: «موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدي ... عالم بالسيرة النبوية، من ثقاة رجال الحديث، من أهل المدينة...، له (كتاب المغازي). قال الإمام ابن حنبل: (عليكم بمغازي ابن عقبة فإنه ثقة)». وكان مولى لآل الزبير، وتتلمذ على يد محمد بن شهاب الزهري مؤسس مدرسة المدينة المنورة التاريخية، لذا استفاد من علمه الغزير.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «الواقع أن ابن عقبة تميز بفكر تاريخي منهجي منظم سمح له، وهو يبحث مغازي الرسول وأخبار الراشدين والأمويين:

أ ـ أن يفكر بوضع قوائم بأسماء الصحابة المهاجرين إلى الحبشة أو المشاركين في بيعة العقبة وغيرهم.

ب ـ أن يضع بدوره ـ مثل ابن أبي حزم ـ مادته التاريخية في تسلسل زمني حولي. وهكذا قامت مدرسة المدينة بعمل هذين المؤرخين أهم الخدمات لتطوير التدوين التاريخي.

وقد لقي كتاب «المغازي» لابن عقبة الكثير من الاهتمام فيما بعد لدقته واستيفائه، واستخدمه الكثيرون ومنهم أبو نعيم الأصفهاني الذي كتبه بخطه،

obeikandl.com

فاستخدم هذه النسخة نفسها بعد قرنين ياقوت الحموي. وجمع قطعة منه ابن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي. (وتوفي سنة ٧٨٩هجرية/ ١٣٨٧ ميلادية). ثم جاء ابن حجر فاحتفظ لنا في كتاب «الإصابة» بقطع من هذه المغازي تزيد في العدد على ٢٢٥ قطعة تمثل القسم الأكبر منها. وقد اختصرها قبل ذلك ابن عبدالبر في كتابه «الدرر في اختصار المغازي والسير». واقتبس منها الكثير ابن سيد الناس في كتابه «عيون الأثر» وبقي منها إلى اليوم قطع مخطوطة في برلين ترجم بعضها المستشرق سخاو، ودرسها شاخت وإن لم تنشر بعد».

وذاع صيت موسى بن عقبة بين معاصريه بتدريسه كلاً من الفقه والحديث والسير النبوية والمغازي في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة. وقد اتبع منهج مدرسة المدينة المنورة التاريخية في جميع كتاباته التاريخية خاصة التي تتعلق بالسيرة النبوية والمغازي وأخبار كل من الخلفاء الراشدين وبني أمية، حيث اهتم اهتماماً بالغاً بالإسناد لتدوين الحوادث التاريخية. و لم يهمل أبداً الروايات الشفوية التي وصلت إليه عن طريق ثقات القوم آنذاك.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «اتبع موسى بن عقبة بدقة أسلوب مدرسة المدينة، فنجده يعكس تزايد تأكيد المحدثين على الإسناد، ويبدي اهتماماً خاصاً بذكر تواريخ الحوادث. وقد استفاد من مواد مكتوبة (وخاصة من آثار أستاذه الزهري) بالإضافة إلى الوثائق والروايات الشفوية، ولكن الاعتماد في الروايات المكتوبة بقي على الراوي لا الكتاب. وقد استند موسى بن عقبة بالدرجة الأولى إلى الزهري وأضاف إلى ذلك بحوثه الخاصة وبذلك أضاف مادة إلى تراث المدرسة».

وخلاصة القول: عندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، شعر قادتها بضرورة دراسة مغازي رسول الله ﷺ عن كثب، لما تحتويه من معجزات حول الانتصارات التي تحققت في عهده ﷺ ، محاولين بذلك تعريف الأعداد

الهائلة من الشعوب المختلفة ذوات التاريخ التي دخلت في الإسلام، وبدون شك فإن مغازي رسول الله ﷺ لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ دوراً هاماً جداً في مجرى التاريخ الإسلامي، لذا ركز المؤرخ موسى بن عقبة على الانتفاع بكل الدلائل التي تشتمل عليها المغازي. وهكذا أخذت مغازي صفوة الخلق رسول الله ﷺ مكانها اللائق بها في مجموعة المعارف التي ظهرت أمام الإنسان.

ولقد حاز أبو محمد موسى بن عقبة على شهرة عظيمة بين زملائه، نتيجة كل من نجاحه الباهر في طريقة تدريسه لشباب الأمة الإسلامية في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة العلوم الشرعية، ومعلوماته الغزيرة في مجال مغازي رسول الله ﷺ . والجدير بالذكر أن كبار المؤرخين اعتمدوا على كتابه «المغازي» في كتاباتهم في هذا الموضوع الحيوي، والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أن أبا محمد موسى بن عقبة كان واسع الثقافة، ويظهر ذلك واضحاً من إسهاماته الجليلة في ميدان كل من الفقه والحديث والسيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ . والمشهود أن له آثاراً رائعة في الأخبار التاريخية التي دوّنها عن كل من الخلفاء الراشدين وبني أمية، والتي بقيت من المصادر الضرورية للباحثين في ميدان التاريخ الإسلامي عبر العصور.

محمد بن إسحاق

هو **محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار**، ولد (سنة ٨٠ هجرية) في المدينة المنورة، وكان من أصل فارسي، نما ابن إسحاق وترعرع في المدينة المنورة، وتلقى تعليمه على جهابذة الفكر فيها أيضاً، ونبغ في مجال كل من السيرة النبوية والمغازي، لذا عرف باسم صاحب المغازي والسير، وكان يلقب **بالعلامة الأخباري وعميد مؤرخي السيرة**، ويكنى **بأبي بكر** أو **بأبي عبد الله** والمعروف أن جده من سبي عين التمر البلدة القريبة من الأنبار التي تقع غرب الكوفة.

قام أبو بكر بن إسحاق سنة (١١٥ هجرية) بزيارة لمدينة الإسكندرية باحثاً عن الأحاديث التي لها صلة قوية بمغازي رسول الله ﷺ ، ولكنه لم يبق طويلاً هناك، بل عاد إلى مسقط رأسه المدينة المنورة. وعندما اشتد عود الدولة العباسية في العراق قرر الرحيل إليه، وذلك في أول أيام حكم أبي جعفر المنصور. وعليه استوطن الكوفة والجزيرة والري وقضى فيها ردحاً من الزمن، ولكنه قضى آخر أيام حياته في بغداد التي توفي فيها سنة (١٥١ هجرية). والجدير بالذكر أن أبا بكر بن إسحاق تمكن من ربط صداقة قوية بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي كان من المغرمين في مغازي رسول الله ﷺ ، ولذا أهدى له كتابه المعروف باسم: «سيرة ابن اسحاق» الذي بقي من المصادر الهامة لمؤرخي السيرة النبوية.

ينقل **الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر أقوالاً لبعض العلماء الكبار تدل على أن أبا بكر بن إسحاق كان علامة عصره، ومنها على سبيل المثال لا الحصر الآتي:

١) كان ابن إسحاق ثقة، حسن الحديث.

٢) لا يزال بالمدينة علم جم ما دام فيهم ابن إسحاق.

٣) من أراد أن يتبحر في المغازي، فهو عيال على محمد بن إسحاق.

٤) لا يزال في الناس علم ما عاش محمد بن إسحاق.

٥) محمد بن إسحاق أمير المحدثين لحفظه، وفي رواية: أمير المؤمنين في الحديث.

٦) ابن إسحاق رجل قد اجتمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه.

٧) قد اختبر ابن إسحاق أهل الحديث فرأوا صدقاً وخيراً.

٨) محمد بن إسحاق ينبغي أن يكون له ألف حديث ينفرد بها لا يشاركه فيها أحد.

٩) إذا جلس العلماء إلى ابن إسحاق، فأخذوا في فن من العلم، قضى مجلسه فيه.

١٠) كان ابن إسحاق أول من جمع مغازي رسول الله ﷺ .

ذاع صيت أبي بكر بن إسحاق بين معاصريه بأسلوبه ومنهجه الرائعين في الكتابة، حيث جمع فيهما بين منهج المحدثين والأخباريين. ولقد كان له ميل سياسي وديني، حيث كان يستعين كثيراً بالآيات القرآنية لتعزيز رواياته التاريخية، كما كان يستخدم بدقة الوثائق والروايات المكتوبة والشفوية، بهذا استطاع أن يقنع الكثير من المؤرخين في العالم الإسلامي أنه أوسع ثقافة من سابقيه ومعاصريه، لذا يعتبر بحق من رواد الحضارة العربية والإسلامية ومن أبرز علماء مدرسة المدينة المنورة التاريخية.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «فقد جمع ابن إسحاق بين أساليب المحدثين والقصاص في كتاباته، واستفاد من مختلف نواحي الاهتمام بالمغازي وتواريخ الأنبياء، فجمع بين الأحاديث والروايات التاريخية والإسرائيليات، والقصص الشعبي مع كثير من الشعر الصحيح والموضوع،

ولذا فإن مصادر معلوماته تكون خليطاً يجلب الانتباه، ففي المبتدأ روى ابن إسحاق عن (أهل الكتاب) وعن الداخلين حديثاً في الإسلام وأخذ كثيراً عن وهب بن منبه، وعن العجم، وروى قصصاً عربية قديمة، وأقاصيص من أصل يماني. أما رواياته عن فترة الرسالة، فترجع في جوهرها إلى أساتذته في المدينة، مع إضافات حصل عليها ببحوثه، وفي بعض الحالات لا تتعدى رواياته أن تكون شرحاً لآيات قرآنية نقله عن غيره أو عمله هو».

خلاصة القول: أولى المؤرخون المسلمون السيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ عناية خاصة؛ لأن هدفهم الرئيسي معرفة كل من أصول دينهم وتاريخهم، والسيرة النبوية تحمل خفايا الحقب التاريخية وتحذر من السلبيات، وتحث على التمسك بالتجارب السابقة التي عملها صفوة الخلق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، لذا بذل أبو بكر بن إسحاق جهداً كبيراً في دراسة كل من السيرة النبوية والمغازي، مما جعله يتعدى حدود مدرسة المدينة المنورة التاريخية، حيث كان يجمع في كتاباته التاريخية بين منهج كل من المحدثين والقصاص. وعليه تعلم الكثير من تواريخ الأنبياء، ولكنه استعمل طريقة واضحة المعالم في تحديد الجوانب الفعلية لغزوات رسول الله ﷺ . وهكذا تمكن أبو بكر بن إسحاق من تأسيس مبادىء الكتابة التاريخية التي تعتمد على الإسناد والتعليل العلمي المنطقي.

ولقد اهتم أبو بكر بن إسحاق اهتماماً بالغاً بجمع الأحاديث النبوية، وخاصة التي لها صلة بمغازي رسول الله ﷺ ، لذا ظهر كتابه الشهير «سيرة ابن إسحاق» عبارة عن موسوعة في علم الحديث، علماً أن معظم هذه الأحاديث حصل عليها عن طريق أساتذته في كل من المدينة المنورة ومصر، والمعروف أن كتاب (سيرة ابن إسحاق) أول كتاب يصل إلى القراء في مجال المغازي، وهو يشتمل على ثلاثة أقسام، المبتدأ: ويتناول تاريخ الوحي قبل الإسلام، والمبعث: ويختص بحياة رسول الله ﷺ في

مكة المكرمة، أمـا المغـازي: فهـي تـدور حـول حيـاة رسـول الله ﷺ في المدينة المنورة. ولقد تفوق أبو بكر ابن إسحاق بكتابة «سيرة ابن إسحاق» الذي نقحه ابن هشام وأصبح يعرف باسم «سيرة ابن هشام» ولحُسن الحظ تبين أخيراً أنه توجد نسخة مخطوطة لسيرة ابـن إسـحاق في بـلاد المغـرب، وفـوق هـذا كلـه فـإن الفضـل يعـود لابـن إسـحاق في ترتيـب وتبويـب الأحاديث الصحيحة التي نقلها من مصادرها الأولية، لذا يقف أبو بكر بن إسحاق عملاقاً بين المؤرخين المسلمين.

obeikandl.com

حماد الراوية

هو **حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد الديلمي** من موالي بني بكر بن وائل، يكنى **بأبي القاسم** ويعرف بالرّاوية وأصله من الديلم ولذا سمي الديلمي ويلقب **بالكوفي**؛ لأنه ولد في الكوفة سنة (٩٥ هجرية) ونما وترعرع فيها وتلقى معظم تعليمه هناك. تنقل كثيراً في البادية لجمع الشعر وللاختلاط مع رجالها، وزار بلاد الشام لنفس الغرض النبيل، وتوفي في بغداد سنة (١٥٥ هجرية)، له سمعة عالية جداً بين زملائه في الشعر والأخبار والأنساب العربية، واشتهر كذلك بحافظته القوية. ويقول **فرانز روزنتال في** كتابه: «علم التاريخ عند المسلمين» : «كان حماد الراوية أخبارياً علامة خبيراً بأيام العرب وأنسابها ووقائعها ولغاتها وشعرها». ومما يجدر ذكره أنه لم يكن لأبي القاسم حماد الراوية عند بني العباس المكانة العالية التي احتلها عند بني أمية، لذا بقي محدود النشاط في عهد الخلفاء العباسيين، ويقال: إنه ظل حياً يرزق إلى أيام الخليفة العباسي المهدي الذي كان يستنشده كثيراً.

وينقل **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر حواراً تم بين الوليد بن يزيد بن معاوية وحماد الراوية: قال الوليد بن يزيد لحماد الراوية: بم استحققت هذا اللقب، فقيل لك الراوية؟ فقال: بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ثم أروي لأكثر منهم ممن أعرف أنك لم تعرفه و لم تسمع به، ثم لا أنشد شعراً لقديم ولا محدث إلا ميزت القديم منه من المحدث. فقال: إن هذا لعلم وأبيك كبير، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ قال: كثيراً؛ ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام، قال: سأمتحنك في هذا، وأمره بالإنشاد فأنشد حتى ضجر الوليد، ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه، فأنشده ألفين وتسع مئة قصيدة للجاهلين، وأخبر الوليد بذلك، فأمر له بمئة ألف درهم.

كان لأبي قاسم حماد الراوية صولة وجولة في عالم الشعر، علماً أنه لم يخلف دواوين مكتوبة ولا مؤلفات في أخبار وأنساب العرب، ولكن الشعراء والمؤرخين رووا عنه وصنفوا الكتب بعده. وشهرته المرموقة في ميدان كل من الشعر وأخبار وأنساب العرب جعلت خلفاء وأمراء بني أمية يحتظونه، ويحافظون على صحبته كنديم لهم في مجالسهم الخاصة، ولقد تأثر كثير من معاصريه بوفاته، لذا رثاه أعداد كبيرة من الشعراء وفي مقدمتهم أبو يحيى محمد بن كناسة، وينقل محمد بن إسحق بن النديم في كتابه «الفهرست» بعض الأبيات التي قالها محمد بن كناسة فيه وهي:

أبعدت من نومك الغرار فما ... جاوزت حتى انتهى بك القدر

لو كان ينجي من الردى حذر ... نجاك مما أصابك الحذر

يرحمك الله من أخي ثقة ... لم يك في صفو وده كدر

فهكذا يفسد الزمان ويفنى ... العلم فيه ويدرس الأثر

خلاصة القول: بقيت الروايات القبلية حول غزوات العرب ومعاركهم قبل الإسلام يطلق عليها (أيام العرب) وصار يتناقلها الناس شفوياً مدة طويلة من الزمن، كما سيطر عليها الشعر فأعطاها أهمية عظيمة؛ لأن الشعر عبر العصور له نكهة خاصة عند العرب في الجاهلية، حيث أن هناك أعداداً هائلة كانوا يحفظونه ويتبادلونه في مجالس الحكام والأمراء ورؤساء القبائل آنذاك، واستمر الوضع بعد ظهور الإسلام حتى القرن الثاني الهجري الذي جمعت وصنفت فيه الروايات التاريخية، لذا عني قادة الأمة الإسلامية بالشعر الجاهلي عناية بالغة؛ لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنه إحدى الطرق الواضحة التي يمكن من خلالها استخلاص تاريخ العرب قبل الإسلام، وعليه اهتم حماد الراوية بجمع أشعار العرب مثل المعلقات ـ التي كانت تعلق على الكعبة لعلو قيمتها ـ التي لها صلة وثيقة في أيام العرب؛ لأن أخبار العرب قبل الإسلام احتلت

obeikandi.com

مكاناً كبيراً في النماذج الشعرية التي خلدها شعراء العرب الكبار مثل امرىء القيس. وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمة، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، والنابغة الذبياني، وأعشى قيس، وعنترة العبسي وغيرهم.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه آنف الذكر: «ولحماد الراوية يعود الفضل في جمع المعلقات وجمع أشعار أكثر القبائل وأكثر شعراء بني أمية، وجعل شعر كل قبيلة أو شاعر في كتاب.. فكان عنده كتاب لشعر قريش وآخر لشعر ثقيف وآخر لغيرهما، لكنها ضاعت كلها ولم يذكر منها صاحب «الفهرست» شيئاً، وإنما روى الناس عنه وصنفت الكتب بعده، وإذا ما حاولنا تتبع آثاره نجدها في ثنايا كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني وفي كتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خلكان وغيرهما».

ويبدو أن الشعر الجاهلي كان يحظى باهتمام المؤرخين لما له من تأثير في الأوضاع السياسية والاجتماعية، كما ثبت أن فيه مادة تاريخية تغني الباحث في أحوال العرب قبل الإسلام. والحقيقة أن الشعر الجاهلي حفظ المعلومات الخاصة في أسباب الحروب التي تمت بين القبائل العربية وأعدائها، وأبرز بوضوح المستوى العسكري الذي بلغته القبائل العربية في الجاهلية.

أدرك حماد الراوية عن كثب مكانة الشعر في المعادلة القبلية وتأثيره على أفراد القبيلة، لذا تخصص بحفظ الشعر العربي حتى صار المرجع لزملائه حينئذ؛ لأنه كان أعلم الناس بأيام العرب وأشعارهم وأخبارهم، وهو الذي جمع كلاً من المعلقات التي بين أيدينا وأشعار القبائل، بهذا كله يقف أبو القاسم حماد الراوية بصف المفكرين العرب الذين قدموا خدمة عظيمة للحضارة الإنسانية.

أبو مخنف الأزدي

هو **لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي**، يكنى **بأبي مخنف**؛ لأن جده مخنف كان صحابياً ومن أصحاب علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، ويلقب **بالكوفي** لأنه من أهل الكوفة، لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أنه توفي سنة (١٥٧ هجرية)، وذاع صيته بين معاصريه لاهتمامه بالكتابة عن الأحداث والظواهر التاريخية التي تمت في صدر الإسلام. وتجدر الملاحظة أنه عني عناية جيدة بأنساب العرب، كما اعتمد في معظم دراساته على الروايات القبلية. والملاحظ أنه ركز في جميع دراساته وبحوثه على الفترة الممتدة منذ عهد أبي بكر الصديق حتى أواخر العصر الأموي. والمتواتر أن مؤلفاته وصلت إلى اثنين وثلاثين كتاباً ضاع مع الأسف معظمها. ومادة هذه الكتب تدور حول موضوع كل من الردة والفتوح الإسلامية والشورى في الإسلام ومعركة صفين والخوارج. كما بذل جهداً عظيماً بجمع المعلومات الضرورية للأحداث التاريخية التي كانت في العراق خلال عهد الأمويين.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «أبو مخنف أخباري كوفي له اهتمام بالأنساب. وقد كتب عن الردة، وعن فتوح الشام والعراق، والشورى، وصفين وعن الحوادث التالية في العراق حتى نهاية العصر الأموي وخاصة الثورات والمعارك وعن الخوارج، ووضع ذلك في كتب تجاوزت الثلاثين. ويُعتبر أبو مخنف من أميز الأخباريين في العراق، واستعمل الروايات العائلية خاصة عن صفين، واعتمد بكثرة على روايات قبيلته الأزد. كما أنه استفاد من الروايات الكوفية الأخرى، فمثلاً يأخذ عن الشعبي، وعن رواة من قبائل أخرى كتميم وهمدان وطي وكندة، ثم إنه أتمها بروايات من المدينة. ونلاحظ أن سلاسل رواياته كثيرة وتتبدل بتبدل الحوادث، وهذا طبيعي في أخباري من الأولين. ويورد أبو مخنف عادة الصورة العراقية (الكوفية)

للحوادث. فهو أميل للعراق تجاه الشام نتيجة اعتزاز القبائل بمصرها، كما أن اعتزاز القبائل بمآثرها ينعكس أحياناً في رواياته، ولكن أخباره على العموم ليست متحزبة».

اشتغل أبو مخنف الأزدي في ميدان علم التاريخ ولا سيما فيما يتعلق بالأنساب العربية، وتفوق في ذلك إلى درجة جعلت علماء زمانه يحترمونه ويجلونه. والجدير بالذكر هنا أن مؤلفاته الكثيرة لم تقتصر على علم التاريخ؛ لأن له باعاً طويلاً في مختلف فروع المعرفة، وهذا يظهر واضحاً في مؤلفاته التي وردت في المصادر التاريخية المختلفة، والتي من بينها كتاب «فوات الوفيات» والذيل عليها لمحمد بن شاكر الكتبي الذي ذكر منها: كتاب الردة وكتاب فتوح الشام، وكتاب فتوح العراق، وكتاب الجمل، وكتاب صفين، وكتاب النهروان، وكتاب الغارات، وكتاب الخريت بن راشد وابن ناجية، وكتاب مقتل علي رضي الله عنه، وكتاب مقتل حجر بن عدي وأصحابه، وكتاب مقتل محمد بن أبي بكر والأشتر ومحمد بن أبي حذيفة، وكتاب الشورى، وكتاب مقتل عثمان رضي الله عنه، وكتاب المسور بن علقمة، وكتاب مقتل الحسين رضي الله عنه، وكتاب المختار بن أبي عبيد، وكتاب وفاة معاوية وولاية يزيد ووقعة الحرة ومقتل عبد الله بن الزبير، وكتاب سليمان بن صرد وعين الوردة، وكتاب مرج راهط ومقتل الضحاك بن قيس الفهري، وكتاب مصعب بن الزبير والعراق، وكتاب حديث وادي الجماجم ومقتل عبد الرحمن ابن الأشعث، وكتاب نجدة الحروري، وكتاب الأزارقة، وكتاب حديث روستقياذ، وكتاب نجيب الحروري وصالح بن مسرح، وكتاب المطرف بن المغيرة، وكتاب يزيد بن المهلب ومقتله بالعقر، وكتاب خالد القسري ويوسف بن عمر وموت هشام وولاية الوليد، وكتاب زيد بن علي ويحيى بن زيد، وكتاب الضحاك الخارجي، وكتاب الخوارج والمهلب بن أبي صفرة، وكتاب مقتل عبد الله بن الزبير، وله غير ذلك.

وخلاصة القول: اهتم حكام بني أمية بالمؤرخين اهتماماً بالغاً لاعتقادهم القوي أن علم التاريخ يحتوي على مادة تاريخية محددة الأبعاد لكل من الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية القديمة والمعاصرة لهم، كما أنهم فهموا فهماً جيداً أن علم التاريخ ضروري لمعرفة الحاضر والتخطيط للمستقبل. وعليه عني أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي بتاريخ صدر الإسلام حتى معركة صفين المشهورة، ولكنه ركز في دراساته وبحوثه على الحوادث التاريخية التي صارت في العراق حتى نهاية العصر الأموي، وهكذا لمع أبو مخنف الأزدي بين زملائه في مجال علم التاريخ، وإبراز ولع خلفاء بني أمية بسماع علم التاريخ.

ونستطيع أن نقول الآن: إن أبا مخنف الأزدي خصب القريحة وقوي العقل ودقيق الملاحظة، وهذا يظهر واضحاً للقارىء من مؤلفاته الكثيرة في حقل علم التاريخ، والتي تعطي انطباعاً جيداً أنه كان أستاذاً ناجحاً في هذا المجال الحيوي، ومبرزاً في أنساب العرب.

والحقيقة التي لا تحتاج إلى تفسير أن أبا مخنف الأزدي كان منصرفاً إلى العلم، ولكن يبدو لأول وهلة أن معظم كتبه تشبه الرسائل، ولكنها في مجموعها تكون تاريخاً متكاملاً للفترة الممتدة من عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى أواخر العصر الأموي. ولاشك أن إنتاج أبي مخنف الأزدي يمثل أثراً من الآثار الخالدة التي تركها للأجيال، والتي كانت من أهم عوامل تقدم علم التاريخ والقرب منه.و الجدير بالذكر أن أبا مخنف الأزدي لم يصل إلى هذه المكانة العلمية الجيدة إلا بالتدرج في أخذ المعارف التاريخية، وعليه وصل في مسعاه إلى مبتغاه.

أبو معشر السندي

هو **نجيح بن عبد الرحمن السندي**، يُكنى **بأبي معشر**، ويُلقب **بالسندي** لأن أصله من السند، والمتواتر أنه كان ألكن، فعندما يتكلم يقلب حرف الكاف قافاً. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أنه توفي ببغداد سنة (١٧٠ هجرية)، ولكنه نما وترعرع في المدينة المنورة، وتفنن فيها في علم التاريخ وخاصة ما يتعلق بمغازي رسول الله ﷺ، حيث جمع مادته التاريخية من مصادر موثوقة، لذا تمكن وبجدارة من تأليف كتاب قيم في مجال المغازي. ذاع صيت أبي معشر السندي بين زملائه بأنه أخباري متمكن، ويُعتبر من علماء المدينة المنورة المتميزين. فقد اعتمد على كتابه في المغازي كبار المؤرخين في الحضارة العربية والإسلامية مثل كل من الواقدي وابن سعد والطبري، وهذا كله يظهر واضحاً من مقتبساتهم منه في مؤلفاتهم المشهورة بين الدارسين والباحثين في حقل علم التاريخ.

عندما زار الخليفة العباسي المهدي المدينة المنورة سنة (١٦٠ هجرية) التقى بأبي معشر السندي، وأعجب بسعة ثقافته وكثرة علمه في التاريخ والحديث، فاستصحبه معه إلى بغداد وبقي فيها مشاركاً جهابذة الفكر هناك حتى انتقل إلى جوار ربه سبحانه وتعالى. ويذكر محمد بن إسحاق ابن النديم في كتابه آنف الذكر: أن نجيح المدني (المعروف باسم أبي معشر السندي) عارف بالأحداث والسير وأحد المحدثين، وتوفي أيام الخليفة العباسي الهادي، وله من الكُتب كتاب المغازي. وعليه حصل على الذكر الحسن والسمعة المحترمة.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «كان يحاول أبو معشر السندي أن يكون محدثاً، ولكن شهرته في الحديث بقيت محدودة واشتهر بالتاريخ، وبأنه (بصير بالمغازي) كما قال أحمد بن حنبل، وقد احتج الأئمة

بتاريخه. ويظهر من المقتطفات الباقية في الكتب عنه أنه مؤلف في المغازي، روى سيرة الرسول ﷺ جميعاً وتراجم الصحابة، كما يظهر أنه ألف تاريخاً، عرف باسم تاريخ الخلفاء، على الحوليات، تناول فيه التاريخ الإسلامي حتى سنة (١٧٠ هجرية).. ولعله من المناسب أن نلاحظ هنا أن مدرسة المدينة التاريخية قد تحولت في مركزها منذ مطلع العهد العباسي إلى العراق. لقد انتقل ابن إسحاق منها وقد انتقل أبو معشر، وقد ظهر آخر ممثلين لهذه المدرسة، يمثلان نهاية تطورها وقمة ذلك التطور في العراق أيضاً وهما الواقدي وابن سعد».

وخلاصة القول: في القرن الثاني الهجري صار الأمر ملحاً جداً عند المسلمين لمعرفة مغازي رسول الله ﷺ؛ لأنها تحتوي على معارف متنوعة عن الحروب، وهم كانوا في أمس الحاجة إليها لكي يهتدوا بها في حروبهم مع الكفار الخونة، لذا ركّز أبو معشر السندي على دراسة علم التاريخ. وفرغ نفسه للدراسة والبحث في مجال المغازي التي يقول عنها أحمد أمين في كتابه آنف الذكر: «أصل المغازي جمع مغزى ومغزاة، وكلاهما معناه موضع الغزو أو الغزو نفسه، ثم توّسعوا في معناها فأطلقوها على مناقب الغزاة وغزواتهم، ثم نجدهم استعملوها استعمالاً واسعاً للدلالة على حياة النبي ﷺ حتى جعلوها مرادفة للسيرة».

وكان أبو معشر السندي متميزاً في المغازي ومتفنناً فيها ومتفقهاً في الدين الإسلامي، وصاحب أفكار جليلة ليس فقط في علم التاريخ، ولكن في العلوم الأخرى. والحقيقة أنه برز بروزاً عظيماً بين زملائه في مجال مغازي رسول الله ﷺ، لذا كان الخليفة العباسي المهدي يأتمنه ويثق بآرائه ويحترمه كثيراً، فكان يطلعه على أمور الدولة الخطيرة ويستشيره ويأخذ برأيه في أكثر الأحيان؛ لأنه كان رجلاً صحيح العقل وحكيماً يعطي رأياً قائماً على الحقائق التاريخية المنقحة والناجحة، ولاشك أن له أفكاراً تاريخية تدل على قوة معرفته في مغازي صفوة الخلق رسول الله ﷺ واطلاعه الواسع على دقائقها.

جميع المراجع التي ترجمت لأبي معشر السندي لم تقدم لنا معلومات عنه تشفي الغليل، بل عرضت نذراً يسيراً عن سيرته وحياته وإنجازاته التاريخية لا تُسمن ولا تُغني من جوع، مع العلم أنه كان معتنياً بجميع الكُتب التي لها علاقة بالمغازي والنظر فيها وتحقيق ما ذكره المتقدمون من تحليلات ودراسات حول هذا الموضوع الحيوي. والجدير ذكره هنا أن كبار المؤرخين المسلمين أجمعوا على أنه عالي الثقافة إلى جانب معرفته التامة بالمغازي، حيث اقتبسوا الكثير من معارفهم عن المغازي من إسهاماته الثمينة في هذا الميدان الحيوي. وأخيراً أتمنى من أعماق قلبي أن يتحمس أحد أبناء الأمة العربية والإسلامية في تقصي أعمال أبي معشر السندي المدني في مجال علم التاريخ، ويخرجها في ثوب جديد إلى مؤرخي القرن العشرين.

obeikandl.com

سيف التميمي

هو **سيف بن عمر الأسدي التميمي**، ويلقب **بالتميمي** لأنه من قبيلة بني تميم المشهورة بدينها وشجاعتها وكرمها، فهم الذين يقول عنهم رسول الله ﷺ : «بنو تميم هم أشد أمتي على الدجّال». لا نعرف بالضبط تاريخ ميلاده، ولكن الثابت أنه نشأ وترعرع وتلقى تعليمه الأولي في المدينة المنورة، ثم غادرها إلى العراق، حيث تنقل بين مدن العراق؛ لكي يتتلمذ على كبار علماء العرب والمسلمين هناك، فنبغ في علم التاريخ وخاصة الجزء الخاص بالتراجم، حيث كانت التراجم أقدم نماذج التعبير التاريخي وأثبتها وأصدقها. استقر مدة طويلة بمدينة الكوفة، ولذا ذاع صيته بأنه كان أخبارياً وكوفياً، حيث أخذ عن شيوخ الكوفة الكثير من معارفه الأدبية والشرعية. اختلف في تاريخ وفاته، فقيل: إنه توفي سنة (١٨٠ هجرية)، وروي أيضاً أنه مات سنة (٢٠٠ هجرية)، ولكن الراجح أنه انتقل إلى رحمة الله تبارك وتعالى ببغداد سنة (١٨٠ هجرية). كان من العلماء المتحمسين لدراسة كل من التراجم والفتوحات الإسلامية، والردة ومسير أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والخليفة الراشد علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. والمشهور بين المؤرخين للأمة الإسلامية أن جميع معلوماته التاريخية مستقاة عن طريق قبيلته (قبيلة بني تميم)، وهذا بلا شك يؤكد ميوله القبلي، ولكنه عرف بصدقه وأمانته في النقل، حيث كان حريصاً جداً على الإسناد عند جمعه مادته التاريخية التي حصل معظمها بالنقل عن قبيلة بني تميم، إذن لا عجب أن يكون سيف بن عمر التميمي من المؤرخين المعتمدين في ميدان علم التاريخ الإسلامي، لذا نقل عنه كبار المؤرخين للحضارة العربية والإسلامية. ويذكر إسماعيل باشا البغدادي في كتابه «هداية العارفين» (أسماء المؤلفين وآثار المصنفين): «أن سيف بن عمر الأسدي التميمي من أصحاب السير، توفي ببغداد في خلافة هارون الرشيد

obeikandi.com

سنة (٢٠٠ هجرية)، له كتاب الجمل ومسير عائشة وعلي، وكتاب الفتوح الكبير والردة».

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «نشأ سيف بن عمر التميمي (توفي ١٨٠ هجرية/ ٧٩٦ ميلادية) في المدينة وبها تثقف، ثم رحل إلى العراق، وزار الكوفة ورأى الخليفة المنصور، وعنه أخذ أهل الكوفة أحاديث عروة عن عائشة. وكان أهل المدينة يضنون بها، وليس لسيف كُتب كثيرة، والكتابان المرويان عنه أحدهما عن الردة والفتوحات، والثاني عن الفتنة ووقعة الجمل، وأخباره في الكتابين مستقاة من روايات قبيلته تميم، ولهذا ظهر فيها نظرتها القبلية والميول العراقية بشكل عام، كما يظهر فيها القصص العاطفي على أسلوب الأيام، ويبدو من الروايات التي نقلها الطبري عن سيف التميمي أنه كانت له كُتب أخرى، ولكنها ضاعت. وسيف بن عمر متهم كمعظم الأخباريين في رواية الحديث ولكنه عند الطبري موثوق في الأخبار».

وخلاصة القول: في البداية عني بعض مؤرخي العرب والمسلمين في تراجم طائفة معينة من الشخصيات الإسلامية الذين أسهموا إسهامات مرموقة في دفع عجلة الحضارة العربية والإسلامية. واستمروا في هذا الاتجاه حتى قوي عودهم، فبدؤوا في تصنيف المعاجم المتقنة لرجال الفكر ولفروع العلوم المختلفة، فأصبحت هذه المعاجم من المراجع الهامة جداً للدارسين والباحثين في مجال علم التاريخ الإسلامي، وذلك لاحتوائها على مادة دسمة عن جهابذة الفكر في الحضارة العربية والإسلامية. وعليه اهتم سيف بن عمر التميمي اهتماماً بالغاً في الكتابة عن العلماء الكبار في سائر الفنون الإسلامية بجانب عنايته المعروفة في الفتوحات الإسلامية.

ولقد حرص بعض المؤرخين المعاصرين لسيف بن عمر التميمي على الكتابة عن الفتوحات الإسلامية، وذلك لإبراز شجاعة أفراد قبائلهم الذين أبلوا بلاء حسناً في تلك الفتوحات، لذا صارت القبائل تروي وقائعها لكي

تتناقلها الأجيال اللاحقة، وكل هذا كان يحدث عن طريق كل من الروايات القبلية والشعر المشحون بالفخر والاعتزاز، لكن المؤرخ سيف بن عمر التميمي يختلف تماماً عن زملائه؛ لأنه تميز في نظرياته وتأملاته التاريخية التي توحي بمعرفة واسعة في الفتوحات الإسلامية، حيث تمكن من ربط الأحداث التاريخية بعضها ببعض بطريقة فنية عجيبة، واستطاع أيضاً من إسناد جميع رواياته التاريخية التي كان مصدرها قبيلته تميم بإخضاعها لمنهج الإسناد العلمي المعتمد آنذاك، لذا كان ثقة وأميناً فيما رواه، وعليه اعتمد على إنتاجه كبار المؤرخين مثل الطبري.

هناك حقيقة يجب أن لا تغيب عن القارئ ألا وهي أن المؤرخ سيف بن عمر التميمي استفاد فائدة عظيمة من الأخبار التي نقلها من علماء المدينة المنورة عندما كان هناك. وقد نوّه عن ذلك في مؤلفاته التي ضاعت، ولم يبق منها إلا ما اقتبسه المؤرخ المعروف محمد بن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هجرية) الذي أثنى على كل من أفكاره التاريخية القيمة وأسلوبه القوي المؤثر. كما تواتر أنه من المعجبين في قبيلته تميم. وهذا قاد بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن عنده ميولاً قبلياً.

الواقدي

هو **محمد بن عمر بن واقد المدني**، ويكنى **بأبي عبد الله**، ويُلقب **بالواقدي** وأحياناً بأمير المؤمنين في الحديث لتفوقه في علم الحديث.. ولد في المدينة المنورة سنة (١٣٠ هجرية) في عهد الخليفة مروان بن محمد، وتلقى تعليمه فيها على جهابذة الفكر الإسلامي، لذا نبغ في علوم كثيرة وفي مقدمتها علم التاريخ. والجدير بالذكر أن أبا عبد الله الواقدي اشتغل في التجارة مدة طويلة، ولكنه لم يوفق في هذا الميدان، بل خسر خسارة فادحة، مما جعله يرحل إلى العراق سنة (١٨٠ هجرية) ليعمل مع الخليفة العباسي هارون الرشيد ووزيره يحيى بن خالد البرمكي، لذا ولاه هارون الرشيد قضاء الجانب الشرقي من بغداد، وثبته ابنه الخليفة العباسي المأمون على ذلك. فكان قاضياً ناجحاً، وبقي يزاول مهنة القضاء في العراق حتى توفي سنة (٢٠٧ هجرية) في عهد الخليفة العباسي المأمون. عرف الواقدي بكرمه وسخائه بين زملائه، من هنا اهتم الخليفة المأمون في إكرامه وإعطائه الكثير من المال ليرد اعتباره ومكانته بين العلماء؛ لأنه وقع في مصيدة الديوان.

يقول **أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان** في كتابه آنف الذكر: «وكان المأمون يكرم جانب أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم ويبالغ في رعايته، وكتب إليه مرة يشكو ضائقة لحقته وركبه بسببها دين، وعين مقداره في قصته، فوقع المأمون فيها بخطه: فيك خلتان سخاء وحياء، فالسخاء أطلق يديك بتبذير ما ملكت، والحياء حملك أن ذكرت لنا بعض دينك، وقد أمرنا لك بضعف ما سألت، وإن كنا قصّرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك على نفسك، وإن كنا بلغنا بغيتك فزد في بسطة يدك، فإن خزائن الله مفتوحة ويده بالخير مبسوطة، وأنت حدثتني حين كنت على قضاء الرشيد أن النبي ﷺ قال للزبير: «يا زبير إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش، ينزل الله سبحانه وتعالى للعباد أرزاقهم على قدر

نفقاتهم، فمن كثر كثر له، ومن قلل قلل عليه»، قال الواقدي: وكنت نسيت الحديث، فكانت مذاكرته إياي أعجب إلي من صلته».

برز **أبو عبد الله الواقدي** في علم التاريخ الإسلامي لمقدرته الخارقة للعادة في تحديد وشرح مكان المعركة، وذلك عن طريق معاينته الموقع الجغرافي المتصل في الحديث التاريخي الذي كان يريد الكتابة عنه، لذا لا عجب أن يكون ألمعياً في ميدان علم التاريخ. لقد اشتهر أبو عبد الله الواقدي بين المؤرخين والمستشرقين في العصر الحديث بسبب سعة اطلاعه بكل من المغازي والسير والطبقات والفقه والحديث والتفسير، كما كان يستند كثيراً في كتاباته التاريخية على الوثائق وفيما كتب في الصحف والكتب في زمنه.

ويصف **عبد العزيز الدوري** منهج أبي عبد الله الواقدي في تناوله الأحداث التاريخية في كتابه آنف الذكر قائلاً: «فهو منتظم ومنطقي في تناول مادته، إذ يعرض أولاً إطار الموضوع ثم يعقبه بذكر التفاصيل، ويبدأ بقائمة لمصادره الأساسية وبقائمة بمغازي الرسول وتواريخها، وحين يذكر الغزوات واحدة بعد أخرى حسب تسلسلها التاريخي ويبدي اهتماماً خاصاً بالتواريخ، وهو في أسلوبه أكثر دقة من ابن إسحاق في استعمال الإسناد، وفي تحقيق تواريخ الحوادث، وفي نظرته للشعر، إذ يقتبس منه باعتدال، وفي تقليصه لعنصر القصص الشعبي في مادته، وقد استعمل طريقة الإسناد الجمعي بانتظام تقريباً ليعطي المواد الأساسية عن كل غزوة، ثم يورد بعد ذلك روايات فردية ليعطي تفاصيل أخرى أو روايات مباينة، وهذا الأسلوب يدل بوضوح على أن الواقدي يعطي بالإسناد الجمعي روايات مدرسة المدينة، ثم يضيف إليها ما وصل إليه، ويظهر أثر بحوثه الشخصية في المادة الإضافية التي يقدمها، وفي ضبط التواريخ، وفي تقديم إطار أوضح للغزوات، وفي اهتمامه بالتفاصيل الجغرافية التي تتصل بمواقع المعارك».

وخلاصة القول: شعر علماء العرب والمسلمون الأوائل بالحاجة الماسة لمعرفة أخبار كل من الأجيال الغابرة عن كثب، وخاصة الأحداث التي تمت في عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين؛ لأنهم يعتبرونها القناديل المتوهجة التي كانت تضيء لهم الطريق في حياتهم السياسية والاجتماعية، ونتيجة لذلك قضى أبو عبد الله الواقدي مدة طويلة من حياته، يدرس ويبحث ويستقصي في هذا المجال الحيوي، حتى أصبح من كبار علماء كل من التاريخ والحديث والمغازي والسير والطبقات والفقه، ولكنه ذاع صيته بين زملائه كمتخصص في علم التاريخ الإسلامي.

وكان **أبو عبد الله الواقدي** بعيداً كل البُعد عن التحزب والتحيز، بل اشتهر بصراحته في رواياته وعباراته التاريخية، لذا صارت مؤلفاته التي بلغت ٢٨ كتاباً ـ كما تناقلها المؤرخون في العالم ـ من المصادر الضرورية جداً للمؤرخين ليس فقط في العالم الإسلامي، ولكن أيضاً في جميع أرجاء المعمورة، وبهذه المناسبة نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر: المغازي النبوية، وفتح إفريقية، وفتح العجم، وفتح مصر، وأخبار مكة، وتاريخ الفقهاء، والتاريخ الكبير، وكتاب الطبقات، وكتاب السقيفة وبيعة أبي بكر، وكتاب الردة والدار، وكتاب حزب الأوس والخزرج، وكتاب يوم الجمل، وكتاب صفين، وكتب فتوح الشام، وكتاب القبائل ومراتبها، وغيرها.

لقد نال أبو عبد الله الواقدي تقدير معاصريه من علماء العرب والمسلمين الأوائل لمواقفه القضائية المشرفة، والجريئة، خصوصاً عندما كان قاضياً بعسكر المهدي في عهد المأمون، ومما يجدر بالملاحظة أن صاحب الترجمة ألَمَّ عن كثب بصعوبة الكتابة في مجال علم التاريخ؛ لأنه يعرف تمام المعرفة أن المؤرخ يحتاج إلى اطلاع واسع في كثير من فروع المعرفة ليكون مؤرخاً مثالياً، يجمع بين ملاحظة العالم ونزاهته، وعليه حفظ أعداداً كبيرة جداً من الأحاديث النبوية في سن مبكر، كما كان أيضاً يعي أن علم التاريخ ثمرة من ثمرات الثقافات الأصلية، وهكذا أصبح الواقدي من ألمع وأقدم المؤرخين في الإسلام لاتباعه هذه الفلسفة الصادقة.

أبو محمد بن قتيبة

هو **عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الكوفي**، يكنى **بأبي محمد**، ويُلقب **بالدينوري** لأنه كان قاضياً في دينور مدة من الزمن، أما تسميته الكوفي فهذا عائد لأنه سكن في الكوفة ردحاً من الزمن، عندما كان في ريعان شبابه. والمتواتر أنه وُلد ببغداد سنة (٢١٣ هجرية) من عائلة متعلمة، فوالده مسلم بن قتيبة كان من فقهاء المسلمين، الآن نستطيع القول: إن أبا محمد عبد الله بن قتيبة نما وترعرع في بيئة علم وجاه، حيث تتلمذ الابن عبدالله على يد والده، ولكنه نبغ ليس فقط في العلوم الشرعية بل في كل من علم التاريخ والنحو والأدب والشعر، لذا اشتهر شهرة عظيمة بين معاصريه، مما دفع بالوزير الفتح بن خاقان أن يقربه منه ويستعين به في النواحي العلمية وخاصة في علمي التاريخ والنحو، إذن ليس بغريب أن يقول **محمد بن إسحاق بن النديم** في كتابه آنف الذكر: «كان أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري صادقاً فيما يرويه عالماً باللغة والنحو والشعر وغريب القرآن ومعانيه والفقه». أما الحافظ **أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي** فيقول في كتابه آنف الذكر: «كان عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ثقة ديّناً فاضلاً، وهو صاحب التصانيف المشهورة والكتب المعروفة منها: غريب القرآن، وغريب الحديث، ومشكل القرآن، ومشكل الحديث، وأدب الكاتب، وعيون الأخبار، وكتاب المعارف وغير ذلك. سكن ابن قتيبة بغداد وروى فيها كتبه إلى حين وفاته». وتوفي ببغداد سنة (٢٧٦ هجرية) عن عمر يناهز الثلاث والستين سنة.

بذل أبو **محمد عبد الله بن قتيبة** جهداً لا يُستهان به في الدراسة والبحث في مجال التاريخ والنحو، وهذا يظهر من مؤلفاته الكثيرة التي وصل عددها ٤٦ مؤلفاً، والحقيقة الواضحة أنه أسهم إسهامات عظيمة في إثراء المكتبة العربية والإسلامية. ولقد تناقل المؤرخون في مؤلفاتهم مجموعة من مؤلفاته

ومنها: طبقات الشعراء، وكتاب الخيل، وكتاب الأنواء، وكتاب المسائل والجوابات، وكتاب الميسر والقداح، وكتاب الأشربة، وكتاب إصلاح الغلط، وكتاب التفقيه، وكتاب إعراب القرآن الكريم. ولكن الثابت أن أهم مؤلفاته، هما: كتاب عيون الأخبار وكتاب المعارف. لقد خصص كتاب عيون الأخبار لتراجم بعض الأعيان وعرض أعمالهم السياسية والحروبية والفروسية. أما كتاب المعارف فهو كتاب تاريخي عالمي يبدأ بالخليقة وينتهي في عصر الخليفة العباسي المعتصم بالله، ويشتمل على تاريخ الأنبياء والسيرة النبوية الطاهرة والصحابة الأفاضل والخلفاء وأنساب العرب وأصحاب الرأي والفكر، ويعتمد في جمع المعلومات على المصادر المكتوبة المتواجدة لديه آنذاك، وعلى بعض الروايات الشفهية. فبهذا الكتاب تمكن أبو محمد عبد الله بن قتيبة أن يجمع بين فكرة التاريخ العالمي وفكرة الوحدة الثقافية في تاريخ العرب والمسلمين.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «فكتاب ابن قتيبة (المعارف) هو دائرة معارف تمتزج فيها مختلف خطوط الكتابة التاريخية، إذ نجد فيه فكرة كتابة تاريخ عالمي يبدأ بالخليقة وينتهي بأيام المعتصم، وتظهر فيه وجهة أصحاب الأخبار والأنساب في كتابة التاريخ، كما يتناول (أيام العرب) بإيجاز، ويبدو فيه اهتمام الفقيه بطريقة الفتح هل هي صلحاً أم عنوة، وأعتقد أن الكتاب وضع ليسد حاجة الكتاب إلى المعلومات التاريخية الأساسية، استفاد ابن قتيبة في كتابه (المعارف) من مصادر مكتوبة ومن الروايات الشفوية، وسلك سبيل انتقاء معلوماته التاريخية بعد نقد مصادره.. وكان ابن قتيبة أول من رجع إلى (العهد القديم) ليأخذ منه مباشرة عن بدء الخليقة وعن تاريخ الأنبياء. وتتميز مادته التاريخية بالحياد وبالتأكيد على الحقائق، ومع أنه يورد الآراء السائدة أحياناً إلا أنه يعطي أحكاماً خاصة طريفة في بعض الأحيان».

خلاصة القول: كان لعلم النحو نكهة خاصة عند العرب والمسلمين على

اختلاف اهتماماتهم وتخصصاتهم، حيث كانوا يعتقدون أن علم النحو هو الفرع الوحيد من المعارف الإنسانية الذي لا يمكن أن يستغني عنه أي باحث سواء في علم التاريخ أو في غيره، لذا أنشئت مدرسة النحويين بمدينة بغداد، وصار رئيسها أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، وكانت لهذه المدرسة سمعة عالية بين الباحثين في العالم العربي والإسلامي، وذلك خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين؛ لأنها كانت مصدراً من المصادر الهامة جداً في العالم العربي والإسلامي في مجال علم النحو، وعليه ذاع صيت أبي محمد ابن قتيبة في العالم لإسهاماته العظيمة ليس فقط في علم النحو ولكن في كل من علم التاريخ والفقه والشعر والأدب، والحقيقة أنه حاز على مكانة مرموقة جداً في علمي النحو والتاريخ بين زملائه؛ لأنه عمل كل مافي وسعه أن يبسط معلوماته التاريخية والأدبية لكي تصل إلى عامة الناس، ونجح بذلك نجاحاً باهراً.

ولقد نهل أبو محمد عبد الله بن قتيبة من العلوم الشرعية واللغوية الكثيرة في ريعان شبابه على يد والده الفقيه، كما طالع أعداداً هائلة من الكتب في مكتبة والده حينئذ، لذا كان الابن عبد الله بن قتيبة عالماً فاضلاً ومشاركاً في أنواع كثيرة من العلوم التاريخية والأدبية واللغوية والشرعية والاجتماعية، واشتهر بصدقه وأمانته فيما رواه وما كتبه حول الأحداث التاريخية، وإنه أيضاً بذل جهداً عظيماً في مؤلفاته لتكون سهلة وواضحة المعالم لكي تسد حاجة السواد من الناس.

حاول **أبو محمد عبد الله بن قتيبة** أن يجمع مادته التاريخية من قراءاته المتنوعة ومن سماعه للأشخاص المتخصصين، لذا استطاع وبكل جدارة أن يسخّر كلاً من الأدب واللغة والشعر والأخبار لعلم التاريخ. والمعروف أن كتاباته في ميدان علم التاريخ تمتاز في استنباط الحقائق وعرض الآراء المنتشرة، ولكنه أيضاً لا يخفي رأيه الصريح فيها، لذا نجد أن جميع المعلومات التاريخية التي وردت في مؤلفاته والتي يعود تاريخها إلى بدء الخليقة منقحة لا غبار عليها. إذن لا عجب أن يعتبر عبد الله بن قتيبة من أئمة علم التاريخ.

obeikandl.com

أحمد البلاذري

هو **أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري**، وتواتر عن المؤرخين أنه سمي البلاذري نسبة لنبات البلاذر الذي ثمره شبيه بنوى التمر، ولبه يشبه تماماً لُب الجوز، وكان البلاذري يكثر من استعماله لأنه كان يعتقد أنه صالح لتقوية الحفظ، ويكنى بكل من **أبي الحسن وأبي بكر وأبي جعفر**، ويلقب **بالبغدادي**. لا نعرف بالضبط تاريخ ولادته، ولكن معظم المؤرخين يرون أنه من مواليد أواخر القرن الثاني للهجرة، والثابت أنه ولد بمدينة بغداد، وتوفي فيها سنة ٢٧٩هجرية. نما وترعرع في مدينة السلام (بغداد)، وتتلمذ على جهابذة الفكر هناك في كل من علم التاريخ والجغرافيا والأدب والشعر، ولكنه تفوق في علم الأخبار والأنساب.

تنقل أبو الحسن البلاذري في عدد كبير من مدن بلاد الشام مثل دمشق، وأنطاكية، وحمص، وحلب، والجزيرة، والرقة، وتكريت وغيرها، وعن طريقها حصل على معارفه التاريخية والعلمية والأدبية. وكان له علاقة قوية جداً في خلفاء بني العباس، وهذه الصلات ساعدته كثيراً على فتح المدارس وبناء المكتبات الضخمة في بغداد. والجدير بالذكر أن الفترة التي عاش فيها أبو الحسن البلاذري تُعتبر أخصب فترات الخلافة العباسية، حيث كان كل من النشاطات العلمية والثقافية والترجمة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية على قدم وساق، لذا ترجم أبو الحسن البلاذري من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية أعداداً كثيرة من الكُتب الثمينة. ويقال: إن اهتمام البلاذري باللغة الفارسية يرجع إلى أن أصله كان فارسي.

يقول **حسان حلاق** في كتابه «مقدمة في مناهج البحث التاريخي»: «وكانت نشأة أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري في العهد العباسي في عهد ازدهار بغداد وتطورها في النواحي العلمية والثقافية والعمرانية. وكانت

بغداد عاصمة العواصم الإسلامية والعربية. فقد ارتادها طلاب العلم من الهند وفارس والشام ومصر وبلاد ما وراء النهر، ومن بين المميزات الخاصة في حياة البلاذري العلمية أنه كان رحّالة يرحل من بلد إلى آخر من أجل العلم، لذا أصبح بما اكتسبه في بغداد وخلال رحلاته مؤرخاً راوياً وأديباً ومحدثاً وشاعراً. ومن بين البلاد التي زارها حلب ودمشق وحمص ومنبج وأنطاكية والثغور الشامية ومدن شمال الشام وبلاد ما بين النهرين ومدن العراق الأخرى غير مدينة بغداد، وقد اكتسب في هذه الرحلات معارف علمية وأدبية متنوعة مما ضاعف عدد تلامذته ومريديه بعد عودته إلى بغداد، ولذلك فقد قسّم البلاذري وقته بين التدريس والتأليف، وأصبحت مؤلفاته موضع ثقة والمصدر الأساسي الجامع للتواريخ والموضوعات».

اعتكف أبو الحسن البلاذري على التأليف مدة طويلة من الزمن، فأنتج إنتاجاً هائلاً، ومن مؤلفاته كل من كتاب البلدان الصغير، وكتاب البلدان الكبير (لم يتمه)، وكتاب عهد أردشير (ترجمة)، وكتاب أنساب الأشراف وأخبارهم، وكتاب الاستقصاء في الأنساب والأخبار (لم يتمه). ولكن نال شهرة عظيمة من كتابه فتوح البلدان، الذي عرض فيه بطريقة جيدة الوضع السياسي والعسكري والاقتصادي والإداري والمعماري والعلمي والتربوي والاجتماعي في البلدان المفتوحة، وتكلم بشيء من التفصيل عن الطريقة المثلى لفتح الأقاليم والأمصار دون المساس بالبنية الأساسية فيها، وتحدث أيضاً عن الحفاظ على الأنهار والبحار والظواهر الطبيعية. ولحُسن الحظ قام المستشرق (دي غويه) سنة (١٢٨٧ هجرية) بتحقيق ونشر كتاب فتوح البلدان لأبي الحسن البلاذري، لذا أصبح متواجداً في معظم مكتبات العالم كما طبع سنة ١٣١٩ هجرية في مصر، وصار الأكثر تداولاً بين طلاب العلم والباحثين في مجال علم التاريخ، مما شجّع اللبنانيين أن يعيدوا طباعته عدة مرات في بيروت لأهميته.

ويمتدح **عبد العزيز الدوري** أبا الحسن البلاذري في كتابه آنف الذكر

فيقـول: «وطريقـة البـلاذري في الكتابـة هـي في أن ينتقـي المـادة بعـد الغربلـة والنقد، وأن يعطي صورة متزنة للحوادث، مع تجنـب إيراد روايـات متعـددة حول الحادث، وهو يعتمد كثيراً على الروايـات المدوّنـة الـتي تتصـف بالحيـاد والدقة أكثر من غيرها، كما أنه استفاد بالدرجة الأولى مـن الروايـات المحليـة. وقد أورد البلاذري كثيراً من المعلومات القيمة عن النواحي الثقافية والاقتصاديـة والإدارية.. ويظهر أنه في انتقائه لمادته التاريخية أعطى أهميـة خاصـة للروايـات الـتي تعـود للمنطقـة الـتي وقـع فيهـا الحـادث، وأتمهـا بروايـات أخـرى حـول الموضوع.. ورغم اتصاله بالعباسيين فإنه محايد في أخباره ومتزن، فهو يفسح المجال لكافة الروايات ويحاول بصورة جدية أن يكون موضوعياً في أخباره».

وخلاصة القول: عني مؤرخو العـرب والمسـلمين بالفتوحـات الإسـلامية عناية خاصة، مما جعلهم يركّزون على دراسة علم التاريخ الذي اعتبروه بـؤرة العلوم الإنسانية ومركز انطلاقها، من هنا أدرك أبو الحسن البـلاذري ضـرورة معرفة أسس منهج البحث التاريخي؛ لأنـه لا يمكـن للبـاحث الدقيـق أن يقـدم علـى الدراسـة لأي فـرع مـن فـروع المعرفـة دون اللجـوء إلى علـم التـاريخ. وعرف أبو الحسن البلاذري أن المؤرخ الناجح هو الإنسان الذي يبحـث عـن الحقيقة أينما وجدت ومهما كلفه ذلك من مشقة وجهد وعناء.

ولقد تفنن أبوالحسن البلاذري بجمع الروايات التاريخية الصحيحة والأحاديث الطويلة الموثقة ذات الطابع التاريخي؛ لأنـه حـاول في جميـع مـا كتبـه عـن التـاريخ الإسلامي أن يعتمد علـى كـل مـن القـرآن الكريـم، وأحـاديث رسـول الله ﷺ والأسانيد القوية والمشـاهدات العينيـة. كمـا اسـتخدم بكـل نجـاح منهـج المقارنـة والتعليل للظواهر التاريخية، وعليه تجنب التـاريخ الأسـطوري؛ لأنـه كـان يحـارب دون هوادة الخزعبلات التي بقيت يتناقلها الناس عبر التاريخ. ويجب بهذه المناسـبة أن يعرف القارىء أن أبا الحسن البلاذري سخّر بكل جدارة كـلاً مـن السياسـة والاقتصاد والإدارة والتربية والظواهر الطبيعية لعلم التاريخ.

obeikandi.com

والثابت أن أبا الحسن البلاذري في آخر أيام حياته تفرغ للبحث والتدريس تاركاً هموم السياسة ومشاكلها ومتطلباتها وراء ظهره، لذا تمكن من رصد معارف تاريخية نادرة قل وجودها في كتب السابقين له. كما أبرز بكل وضوح بمصنفاته الكثيرة أنه كان حيادياً فيما يكتبه سواء عن الأشخاص أو عن العادات والتقاليد. والمتواتر أنه كان يحب كثيراً الاستشهاد في بعض أبيات الشعر للحوادث التاريخية المشهورة. وعليه يقف أبو الحسن البلاذري بصف المؤرخين الذين صنعوا لجيلهم وللأجيال التابعة تاريخاً راقياً مزدهراً متجدداً لم تغرب الشمس عنه في يوم من الأيام.

obeikandl.com

أبو جعفر الطبري

هو **محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري**، يكنى **بأبي جعفر** ويُلقب **بالطبري** نسبةً إلى إقليم طبرستان الذي يقع جنوب بحر قزوين، ولد في مدينة آمل عاصمة إقليم طبرستان في سنة (٢٢٤ هجرية) وتوفي في بغداد عام (٣١٠ هجرية)، حيث استوطنها في آخر أيام حياته، لأنها كانت تعج بفطاحل العلم. والجدير بالذكر أنه بدأ دراسته الأكاديمية في آمل ثم في الري، وعندما نما وكبر واستوى عوده علمياً زار معظم المراكز الإسلامية الموجودة في كل من بغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر ليتلقى العلم على يدي كبار المفكرين آنذاك.

كما أنه عمل رحلة خاصة في ريعان شبابه إلى بغداد ليتتلمذ على شيخ الإسلام الكبير أحمد بن حنبل، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب وفاة الشيخ ابن حنبل رحمة الله عليه سنة (٢٤١ هجرية)، حينما كان أبو جعفر الطبري بالطريق إلى دار السلام، وهذا بدون أدنى شك يوضح حرص علامة الأمة الإسلامية الطبري على مجالسة جهابذة الفكر الإسلامي مثل الشيخ أحمد بن حنبل. ومن صفات أبي جعفرالطبري أنه كان يكره تماماً الإطراء، عفيفاً لم يتزوج لانشغاله بالعلم وتعليمه، وليس هذا عزوفاً عن الزواج الذي حث عليه صفوة الخلق رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ. والمعروف عنه أنه رجل ذكي جداً وواضح التفكير وفصيح اللسان، يحب الحوار حول جميع فروع المعرفة وخاصة كلاً من علم التاريخ والتفسير والفقه. ويرى المؤرخون الكبار في المعمورة أن الريادة انتهت إليه في كل من علم التاريخ الإسلامي والتفسير والفقه.

ينقل لنا **ياقوت الحموي** في موسوعته آنفة الذكر قول عبد العزيز بن محمد الطبري: «كان أبو جعفر يذهب في جل مذاهبه إلى ما عليه الجماعة من السلف، وطريق أهل العلم المتمسكين بالسنن شديداً عليه مخالفتهم ماضياً

على مناهجهم، لا تأخذه في ذلك ولا في شيء لومة لائم.. وكان أبو جعفر ظريفاً في ظاهره، نظيفاً في باطنه، حسن العشرة لمجالسته، متفقداً لأحوال أصحابه، مهذباً في جميع أحواله، جميل الأدب في مأكله وملبسه، وما يخصه في أحوال نفسه، منبسطاً مع إخوانه، حتى ربما داعبهم أحسن مداعبة.. وكان إذا أهدى إليه مهد هدية مما يمكنه المكافأة عليها قبلها وكافأه، وإن كان مما لايمكنه المكافأة عليها ردها واعتذر إلى مهديها».

درس أبو جعفر الطبري كلاً من العلوم الأساسية والسياسية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية دراسة مفصلة أبدع فيها، فظهر ذكاؤه الخارق للعيان. ومن صفاته الحميدة التي تميز بها أنه حارب الشعوبية التي كانت منتشرة بين الأعاجم، وهذا يعطي بُرهاناً على ورعه وتقواه. وهكذا بقي أبو جعفر الطبري منشغلاً بالعلم والدين والمعرفة، فلم يقبل المناصب الحكومية التي عرضت عليه، بل قسم وقته الثمين بين العبادة والتدريس والقراءة والتأليف، ونجح فيها كلها بجدارة مرموقة. وكان حينئذ يحصل على قوته من مزرعة كبيرة خلفها له والده بإقليم طبرستان. وعليه عاش عيشة مهيبة ومحترمة من الخلفاء والوزراء والعلماء، لذا كان الخليفة العباسي المقتدر با لله يقدره ويحترمه؛ لأنه كان زاهداً عازفاً عن الدنيا وحطامها. أما طلبته فكانوا يجلّونه كثيراً لعلمه وفضله، حيث استمروا يأتون إليه بأعداد هائلة من كل حدب وصوب للتتلمذ عليه.

يقول **عبد الرحمن حسين العزاوي** في كتابه «الطبري» (سلسلة نوابع الفكر العربي): «تمشياً مع مبدئه في الزُهد عن الدنيا والترفع عن بهارجها، ظل الطبري مشتغلاً بالعلم والدين والمعرفة، وهذا ما نلمسه بشكل واضح لرفضه هذه المناصب (قضائية كانت أو غيرها) تبعاً لمبدأيته أو تقديراً للموقف السياسي أو التأثير الديني آنذاك. وحينما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر الطبري بمال فامتنع من قبوله وعرض عليه القضاء فأبى، وعرض عليه

المظالم فامتنع، فعاتبه أصحابه وقالوا له: (لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد درست، وطمعوا في قبوله المظالم وباكره ليركب معهم لقبول ذلك)، لكن الطبري انتهرهم وقال لهم: (قد أظن لو رغبت ذلك لنهيتموني عنه ولامهم)، وقد يكون سبب رفضه المناصب هذه اضطراب الحياة السياسية والاجتماعية - والتي لها أثرها الواضح في تفكير الطبري بعلمه بعدم جدوى الجهد الفردي في إصلاح الخلل العام وقد يكون أيضاً رفضه - فضلاً عما ذكرناه أنه جريء في الحق لا يخاف في الله لومة لائم، ومن شأن القاضي أن تعرض عليه منازعات يتصل بعضها بأمراء ذلك العصر وحُكامه وهو لا يستطيع أن يمالي أحداً أو يجامل وزيراً أو يحابي كبيراً فمن الخير له أن يكون بعيداً عنها وعنهم وأن يفرغ للعلم والتصنيف ولتلاميذه، ناعماً بحريته، وراحة ضميره».

وهكذا برز أبو جعفر الطبري بين المؤرخين في المعمورة بأسلوبه السلس الممتع وبأفكاره المتجددة وحكمته الناضجة. كما اشتهر بحبه النادر للكلمة ومتابعة تطوراتها عبر العصور، ونتيجة لذلك فقد مر في كثير من المنحنيات والمنعطفات المسدودة؛ لأنه قلما يتبع طريقاً واضح المحجة وساطع الضوء؛ لأنه فرغ نفسه للبحث والاستقصاء والتنقيب ليس فقط في مجال علم التاريخ ولكن أيضاً في جميع فروع المعرفة.

يتصف أبو جعفر الطبري بصفات نبيلة، فكان ظريف المظهر حسن المعشر، محباً لأصحابه ومجالستهم، وفياً مخلصاً لعمله، كما تنقل في معظم عواصم الأقطار الإسلامية لكي يلتقي ويتحدث مع كبار المفكرين من الذين لهم باع طويل في كل من التاريخ وتفسير القرآن الكريم والفقه والحديث واللغة العربية والنحو والشعر؛ كان يعتز ويعترف بفضل عائلته التي كرّمته، فعاش عيشة العلماء الكبار الذين نذروا حياتهم لخدمة العلم وطلابه، حيث إنه لم يحتج أبداً لمساعدة أحد؛ لأنه كان يصرف من الدخل الذي يأتيه من مزرعة ورثها من والده. والجميع في العالم الإسلامي يعترفون أن أبا جعفر

الطبري فتح الطريق للمؤرخين والمفسرين والفقهاء بإنتاجه العلمي الغزير الذي يمتاز بما يحتويه من معارف قيمة ونادرة.

كان أبو جعفر الطبري ليس فقط شيخ المؤرخين، ولكن أيضاً رجل قانون وعلم، فهو من علماء الدين الإسلامي المتميزين. ولكن ذاع صيته بين المؤرخين في العالم في حولياته التي أخذت مكاناً بارزاً بين المؤلفات التاريخية في المكتبة العربية والإسلامية، والمعروف عن أبي جعفر الطبري الصدق في روايات المعلومات، لذا يُعد كتابه تاريخ الأمم والملوك مصدراً أساسياً في ميدان علم التاريخ الإسلامي.

ويقول **صالح موسى درادكة** في كتابه «بحوث في تاريخ العرب» قبل الإسلام: «ويعرض الطبري كتابه تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري على شكل حوليات، ويجمع مادته على طريقة المحدثين وأهل السير والمغازي، معتمداً أسلوب الإسناد في الرواية، ولا يكتفي برواية واحدة للخبر الواحد، بل يحشد كل الروايات التي تمكن من جمعها في الحادث الواحد مما جعل كتابه أغنى كتب التاريخ بالمادة التاريخية للفترة الإسلامية الممتدة على طول القرون الهجرية الثلاثة الأولى وعلى الرغم من أن الطبري اهتم بتاريخ الرسل والملوك، كما هو واضح من عنوان الكتاب إلا أن الباحث يجد كثيراً من الإشارات في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والفكرية في ثنايا أخباره».

وخلاصة القول: إن تاريخ الطبري مصدر هام لا يستغني عنه مؤرخ التاريخ العربي قبل الإسلام والتاريخ الإسلامي حتى وفاته تقريباً.

دوّن أبو جعفر الطبري ـ الذي يُعتبر بحق أنه أول مؤرخ مسلم ـ في كتابه التاريخ الكبير المعروف باسم: «تاريخ الرسل والملوك وأخبارهم» أو تاريخ الأمم والملوك، أو تاريخ الطبري، حقائق تاريخية من بدء الخليقة إلى أيامه. وقد تحدث فيه عن الأحداث التاريخية القديمة المتعلقة بالبارزين من الأنبياء الأولين

obeikandi.com

وملوك الفرس والبابليين وأنبياء بني إسرائيل والمسيح وملوك الإغريق والرومان، ثم تاريخ المسلمين منذ ظهور الإسلام إلى عصره، وقد اعتمد على جمع معلوماته التاريخية القيمة على مصادر مختلفة أهمها الأخبار التي كان يتناقلها المؤرخون من مصادرها الشفوية والمكتوبة. وقد اتبع أبو جعفر الطبري في تأليف كتابه القيم المنهج الحولي المعتمد على السنين، والثابت أنه بذل جهداً كبيراً في دراسة وغربلة معارفه التي رصدها في كتابه الذي ظل من أهم المصادر في مجال التاريخ عبر العصور المتعاقبة.

يقول **أبو جعفر الطبري** في مقدمة كتابه «تاريخ الأمم والملوك» ـ المجلد الأول ـ: «وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيها، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم، و لم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين، ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا».

حاز أبو جعفر الطبري على سمعة مرموقة بمؤلفاته القيمة، ليس فقط في ميدان كل من التاريخ والتفسير والفقه؛ ولكن أيضاً في العلوم الأخرى. وللأسف ضاع أكثرها، ولكن معظم المؤرخين لأبي جعفر الطبري ذكروا في مؤلفاتهم بعضها وهي:

١ ـ تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الرُسل والملوك، أو تاريخ الطبري).

obeikandi.com

٢ ـ جامع البيان في تفسير القرآن (جمع البيان عن تأويل القرآن).

٣ ـ اختلاف الفقهاء.

٤ ـ تهذيب الآثار وتفصيل معاني الثابت عن رسول الله من الأخبار (شرح الآثار).

٥ ـ تبصير أولي النهى ومعالم الهدى.

٦ ـ الرد على ذي الأسفار.

٧ ـ الخفيف في أحكام شرائع الإسلام.

٨ ـ صريح السُّنة.

٩ ـ رسالة البصير في معالم الدين.

١٠ ـ ذيل المذيل.

١١ ـ لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام.

١٢ ـ كتاب فضائل العباس.

١٣ ـ أدب النفس الجيدة والأخلاق النفيسة.

١٤ ـ كتاب في عبارة الرؤيا.

١٥ ـ بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام.

١٦ ـ كتاب مختصر مناسك الحج.

١٧ ـ كتاب القراءات وتنزيل القرآن.

١٨ ـ كتاب مختصر الفرائض.

١٩ ـ كتاب فضائل علي بن أبي طالب (ولم يكمله).

٢٠ ـ المسند المجرد.

٢١ ـ كتاب فضائل أبي بكر وعمر (ولم يكمله).

obeikandl.com

٢٢ ـ آداب القضاء.

٢٣ ـ كتاب في الرد على ابن عبد الحكم على مالك.

٢٤ ـ كتاب المسترشد.

٢٥ ـ كتاب الموجز في الأصول.

٢٦ ـ كتاب العدد والتنزيل.

المتفق عليه أن أبا جعفر الطبري باحث فريد من نوعه في ميدان علم التاريخ لايكل أبداً من العمل في هذا المجال الحيوي، بل لا يعرف التعب. ولقد مكث مدة طويلة جداً في تجميع وتحليل وتفسير المادة التاريخية التي ضمّنها كتابه المشهور «تاريخ الأمم والملوك». ولاشك أنه بهذا الكتاب جعل له من التأييد والخصومة الكثير، ولكن هذا لايتم إلا للجهابذة، والحقيقة أن كتاب «تاريخ الأمم والملوك» يعكس تماماً أخلاق أبي جعفر الطبري الذي يمتاز بكل من التفاؤل والحياد. والمتواتر عن كبار المؤرخين في العالم أن المعارف التاريخية المتأثرة باللمسة الإسلامية التي عرضها في تاريخه تُعد بحق من أصح المواد التاريخية الموجودة؛ لأنه كمحدث يحرص على السند (أي: إسناد الرواية إلى سلسلة من الرواة)، ولذا بقي كتاب: «تاريخ الأمم والملوك» مصدراً موثقاً يعتمد عليه الدارسون والباحثون في حقل علم التاريخ.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «يمثل كتاب: (تاريخ الرُسل والملوك) للطبري (ت٣١٠/٨٢٣م) قمة ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند العرب في فترة التكوين. فقد كان الطبري طالب علم لا يعرف الكلل، فدرس على أساتذة في الري وبغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر واستقر أخيراً في بغداد، وقد بلغ علمه بالروايات التاريخية والروايات الفقهية منزلة لا تبارى. إن نظرة الطبري إلى التاريخ وأسلوبه في كتابته متأثرة بدراسته وثقافته كمحدث وكفقيه. ولذا فإن طريقته في نقد الروايات تتجه إلى الإسناد. في

حين أن مصادره مؤرخون لهم منزلة موثوقة في حقولهم أو في الموضوعات التي كتبوا عنها، وهو يُعبر في كتابه عن فكرتين أساسيتين في التاريخ؛ وحدة الرسالات من جهة وأهمية خبرات الأمة واتصالها على الزمن من جهة أخرى، ومثل هذه الخبرات عظيمة الأهمية في سلوك الأمة في حالات الوحدة والاختلاف، وهي في الحالين توضح ما يصيب الأمة في تاريخها».

لقد أتى أبو جعفر الطبري بحقائق تاريخية نادرة في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» عن كل من الفرس واليونان والرومان تدعو إلى الدهشة لصحتها وحُسن ترتيبها وتبويبها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانة أبي جعفر الطبري المرموقة في مجال علم التاريخ، ولذا حاز على شهرة عالية جداً كمنظم ومحلل وجامع لأطراف الحوادث التاريخية من البداية حتى سنة ٣٠٢هـ، وعليه اكتفى الجمهور في الدول الإسلامية بكتابه (تاريخ الأمم والملوك) عن كل ما سواه من المصنفات كمرجع لدراساتهم التاريخية.

يقول **نقولا زيادة** في كتابه «قمم من الفكر العربي الإسلامي»: «وقد جمع أبو جعفر الطبري الكثير من أخبار العرب في الجاهلية وبذلك حفظت من الضياع. ما أكثر ما نقل عنه لاحقوه في هذا الباب. أما أخباره عن العصور الإسلامية إلى أيامه فمن أثمن ما وصل إلينا، خصوصاً أن الكثير مما كتبه عمن سبقه ضاع، ولعله من الحق علينا أن نذكر أن تاريخ الفرس في الأزمنة السابقة للإسلام متوفر في كتاب الطبري ولا يوجد له مصدر سواه. ويقول محمد أحمد الحرفي: (قد تبين من البحث المفصل في تاريخ الروم أن الطبري دقيق فيما ذكره عنهم؛ لأنه نقل عن نصارى الشام وسمع منهم وكانوا هم قد نقلوا من وثائق صحيحة وأدوها إليه بأمانة) وتاريخ الطبري غني بالنصوص الأدبية فيها الشعر والخطب والمحاورات التي قد لاتوجد عند غيره».

خلاصة القول: في أواخر القرن الثالث الهجري انتشر العلم في الدولة الإسلامية، فتفنن أبناؤها في كل من العلوم الشرعية واللغوية والتاريخ، وكان

في مقدمة هؤلاء المفكرين أبو جعفر الطبري الذي حفظ القرآن الكريم وهو في سن السابعة من العمر، وصلى إماماً في الناس وهو ابن ثماني سنين، وبدأ يكتب في ميدان علم التاريخ وهو في التاسعة من عمره، والمتواتر أنه نشأ وترعرع في بيت علم ودين. لقد تعلم أبو جعفر الطبري اللغة العربية وأجادها في بلد غير عربي، وهكذا نال شهرة عظيمة في علوم اللغة العربية، حيث ثبت أنه من المستحيل أن يلحن.

ولقد ظهرت أيضاً على أبي جعفر بوادر الذكاء والحكمة في سن مبكرة جداً، لذا حرص والده أن يسند تعليمه إلى معلمين مؤهلين، فنبغ في مجالات متعددة، ولكنه تفوق في كل من علم التاريخ الذي ألف فيه أكبر موسوعة تاريخية (تاريخ الأمم والملوك) وتفسير القرآن الكريم (جامع البيان في تفسير القرآن) الذي يشتمل على معلومات شاملة ومنظمة والفقه الإسلامي (اختلاف الفقهاء) الذي يحتوي على بعض الأحكام الفقهية بأدلتها المفصلة. كما درس عن كتب العلوم الأساسية ومنها كل من المنطق والحساب والجبر والمقابلة، وله ملاحظات مفيدة في ميدان العلوم الطبية. والحقيقة أن أبا جعفر الطبري عبارة عن موسوعة علمية تمشي على قدمين.

لقد تميز أبو جعفر الطبري بأفكاره الأصلية التي سبق بها عصره. وقد نال شهرته الكونية بكتابه تاريخ (الأمم والملوك) الذي يشتمل على نظريات وأبحاث في غاية الأهمية في علم التاريخ الإسلامي، حيث ذهب الباحثون في هذا المجال يغرفون ما طاب لهم من معارفه المتنوعة. وعليه صار الحديث الممتاز الممتع عن أبي جعفر الطبري سهلاً ومقبولاً لأن المؤرخين يعرفون الكثير عنه بحكم تخصصهم، ولاشك أنه رائد علم التاريخ دون منازع.

ولعل أحسن ما يقال في هذا المقام عن المؤرخ الكبير أبي جعفر الطبري ما ورد في مقدمة كتاب «الكامل في التاريخ» للشيخ العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير: «ولكن أقول: إنني قد جمعت في

كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحة ذلك، فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبري. إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت مافيه من جميع تراجمه لم أخل بترجمة واحدة منها. وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد، كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها، وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه، فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها، وأودعت كل شيء في مكانه فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً على ما تراه. وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقن حقاً، الجامع علماً وصحة اعتقاداً وصدقاً ». ويدلنا كلام ابن الأثير هذا على أن أبا جعفر الطبري كانت له مكانة مرموقة بين المؤرخين، كما أن آثاره العلمية توحي باطلاع واسع وثقافة شاملة متميزة ويتضح أيضاً أن متعة الطبري في دنياه إنما كانت في الدأب على المعرفة والسعي في طلبها والبحث عنها في جميع مظانها.

أحمد بن عبد ربه

هو **أحمد بن محمد بن عبد ربه**، يلقب **بأبي عمر**، ويكنى **بالمرواني** القرطبي الأندلسي، وفي بعض الأحيان يُعرف باسم المؤرخ الأديب ابن عبد ربه، ولد سنة (٢٤٦ هجرية) بمدينة قرطبة، وتلقى تعليمه فيها على أيدي كبار المفكرين المسلمين، تربى وترعرع في بيت علم ووقار، فجده الأعلى سالم كانت له صلة قوية بالأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الذي اشتهر باسم الداخل مؤسس الأسرة الأموية بالأندلس، نبغ أبو عمر ابن عبد ربه في كل من علم التاريخ والشعر والنحو والأدب والفقه، ولاشك أن هذه المعارف نفسها اكسبته ثقافة واسعة، لذا ذاع صيته بين زملائه في كل من بلاد الأندلس والأقطار الإسلامية الأخرى، وعليه تمكن من إقامة علاقة وطيدة مع الأمير عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس. والمتواتر عن بعض المؤرخين في المعمورة أن أبا عمر بن عبد ربه كان يحب كلاً من السجع والسماع إلى الغناء. كما قضى وقتاً طويلاً جداً في البحث والتنقيب والاستقصاء عن أخبار كل من المؤرخين والأدباء في العالم الإسلامي، لذا أنتج إنتاجاً غزيراً في هذين المجالين الهامين. وفي آخر أيام حياته ابتلي بمرض الفالج - الله يعافينا منه -. وتوفي في قرطبة سنة (٣٢٨ هجرية) عن عمر يناهز ٨٢ عاماً.

يقول **علي أدهم** في كتابه «بعض مؤرخي الإسلام»: «وقد أجاد ابن عبد ربه دراسة علوم عصره من تاريخ وشعر ونحو ولغة وفقه ودين، وأثر هذه الدراسة العلمية المستوعبة الشاملة يتجلى في كل باب من أبواب كتابه (العقد الفريد)، وهذه الثقافة الكثيرة الجوانب أكسبته اعتدالاً في التفكير، وسعة في الرأي والنظر، وتجافت به عن الضيق والتعصب والتزمت، وهو يعول في مراجعه على علماء المشارقة، ويكثر من النقل عنهم، وعمدته أمثال المبرد

والأصمعي والمدائني وأبي عبيدة وابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم من الأخباريين والنحاة والمحدثين والفقهاء».

أما كتاب «العقد الفريد» **لأبي عمر ابن عبد ربه** فقد حاز رضاء كل من المؤرخين والأدباء ليس فقط في العالم الإسلامي، ولكن في جميع أرجاء المعمورة لشموله على معارف نادرة عن مشاهير علماء وحكام العرب والمسلمين وأخبار العرب في الجاهلية والإسلام، لذا يُعتبر هذا الكتاب بحق المرجع الفريد في مجالي التاريخ والأدب، حيث وظف فيه المؤلف ثروته العلمية المتميزة التي حصل عليها ونمّاها عبر خبرته العلمية الطويلة، ونتيجة لذلك فقد خطا في كتابه خطوات علمية مدروسة. والجدير بالملاحظة هنا أن البيئة التي عاش فيها المؤلف كان لها أثر عظيم على أسلوبه وطريقة عرضه للأفكار التاريخية والأدبية. وفي عهده كانت مدينة قرطبة من أعظم مدن الأندلس، حيث كانت تحتضن كبار المفكرين في العالم الإسلامي، بل إنها في الحقيقة كانت حينئذ تضارع بغداد.

لقد ورد وصف جيد لكتاب «العقد الفريد» لأبي عمر ابن عبد ربه في هامش معجم الأدباء ـ الجزء الرابع ـ لياقوت الحموي نصه: «أما العقد الفريد؛ فإنه من أجل كتب الأدب وأحواها، أو هو كخزانة حوت خلاصة علوم ذلك العصر، حتى الطب والموسيقى، فضلاً عن الأخبار، والأنساب، واللغة، والأمثال، والشعر، والعروض، وقواعده، في ثلاثة مجلدات، تزيد صفحاتها على ألف صحيفة كبيرة، وهو مقسّم حسب الموضوعات. وقد تأنق صاحبه في تقسيمه، وتسمية أبوابه، فسمّاها بأسماء الحجارة الكريمة، تطبيقاً لاسم (العقد الفريد) ويشتمل الجزء الأول على: السلطان، والحروب، والأجواد، والأصفاد، والوفود، والعلم، والأدب، والأمثال، والمواعظ. ويشتمل الثاني على: التعازي، والمراثي، والنسب، وفضائل العرب، وكلام الأعراب، والأجوبة، والخطب، والتوقيعات، وأخبار الكتبة. ويشتمل الجزء الثالث على:

أخبار زياد، والحجاج، والطالبيين، والبرامكة، وأيام العرب، ووقائعها، وفضائل الشعر، وعلم الألحان، والنساء، والمتنبئين، والمتمردين، والبخلاء، وطبائع الإنسان، وفي الطعام والشراب. وفي بعض هذه الأبواب فصول تاريخية لا تجد مثلها في كتب التاريخ».

وقال **أبو عمر ابن عبد ربه** في مقدمة كتابه «العقد الفريد»: «وقد ألفت هذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الأخبار، وفضل الاختيار، وحُسن الاختصار، وفرش في صدر كل كتاب، وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء، واختيار الكلام أصعب من تأليفه، وقد قالوا: اختيار الرجل وافد عقله».

خلاصة القول: اهتم الكثير من أدباء العرب والمسلمين الأوائل بعلم التاريخ؛ لأنهم كانوا يعتقدون بضرورة معرفة أنسابهم وأخبار أمتهم وسيرة رسولهم محمد بن عبد الله ﷺ وأصحابه الكرام، لذا ركّز أبو عمر أحمد بن عبد ربه على دراسة علم التاريخ، وخاصة ما يتعلق بكل من مغازي رسول الله ﷺ والفتوحات الإسلامية المشرقة وتواريخ الخلفاء الراشدين. ونتيجة لذلك ألف كتابه الشهير الذي بعنوان: «العقد الفريد» والذي يحتوي على معلومات تاريخية رائعة ونادرة، والذي لا يزال من المصادر الهامة جداً للباحثين في ميدان علم التاريخ الإسلامي حتى يومنا هذا. والحقيقة أن كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه يُعتبر موسوعة أدبية وتاريخية، لا يستغني عنه باحث في كل من علم التاريخ والأدب العربي. والجدير بالذكر هنا أن معظم كتب الأدب القديمة تميزت باحتوائها على معارف قيمة جداً في حقل علم التاريخ الإسلامي، والمتواتر أن الشعر الجاهلي سجل ناصع للأحداث التاريخية.

ولقد بلور أبو عمر ابن عبد ربه بوضوح تام في جميع كتاباته التاريخية والأدبية تواضعه وزهده وسعة اطلاعه، وسهولة أسلوبه وحُسن اختياره

للموضوعات العلمية ووضوح المعنى والرؤية لديه وبعده عن التكلف. والجدير بالذكر هنا أنه لم يتوقف ببحوثه ودراساته على إنتاج علماء العرب والمسلمين، بل تعداها كثيراً وذلك باستخدامه بطريقة علمية أعمال كل من علماء اليونان والهنود والفرس، وهذا يظهر في مؤلفاته الكثيرة التي اشتهر منها كل من كتاب «العقد الفريد»، و «اللباب في معرفة العلم والأدب»، و«أخبار فقهاء قرطبة» كما عرف بإخلاصه وتفانيه في جميع أعماله، وخاصة في التراث العلمي العربي والإسلامي، فهو القائل: «إن الأمة التي لا تربط ماضيها بحاضرها تصبح من الأمم المقتلعة السطحية». وهكذا صار أبو عمر ابن عبد ربه بمنهجه وفلسفته وخلقه من كبار قادة الفكر في الحضارة العربية والإسلامية.

obeikandi.com

لسان اليمن الهمداني

هو **الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني**، وكنيته **أبو محمد**، كما كان يُعرف أيضاً بابن الحائك، ولقبه **الهمداني** نسبة لقبيلته همدان الشهيرة باليمن، والمتواتر أنه كان يسمي نفسه لسان اليمن. أما والده أحمد الهمداني فكان من تجار الذهب المعروفين، لذا كانت صلة أسرة الهمداني قوية مع التجار في كل من البصرة والكوفة وبغداد وعمان ومصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، لذا استطاع بسهولة أن يزور أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني هذه المدن الشهيرة التي كانت مراكز للعلوم الشرعية والعلوم التجريبية والأساسية. وكما قضى ردحاً من الزمن في رحاب مكة المكرمة، وقد ساعده على ذلك أيضاً مكانة عائلته التي كانت تنقل حجاج اليمن إلى البوادي اليمنية، حيث كان يتمتع في قصصهم وشعرهم، وقد أقام في صعدة عشرين عاماً كان يستقبل طلابه لكي يزودهم بما عنده.

لا نعرف بالضبط متى ولد الحسن الهمداني، ولكن القرائن توحي أنه ولد سنة (٢٨٠ هجرية) تقريباً في مدينة صنعاء، وتوفي في سجنها سنة (٣٣٤ هجرية)، مع العلم أن بعض المؤرخين يرون أنه لم يتفرغ للبحث والتأليف إلا بعد خروجه من السجن (أي أنه لم يمت بالسجن)، والمعروف أنه نشأ وترعرع في مدينة صنعاء، ثم رحل إلى مكة المكرمة بعد أن اشتد عوده في العلم والتحصيل، وذلك لأداء فريضة الحج، ولكي يستمع إلى العلماء الأفاضل هناك، لذا نبغ في كل من الحديث والفقه والأصول والتاريخ الإسلامي، ولكن ذاع صيته بين زملائه لمعرفته النادرة والقوية لأخبار العرب والعجم، إلا أنه كان يؤخذ عليه ميوله لكل من قبيلته الهمدانية وبلده اليمن، لذا تمكن وبجدارة أن يبرز معارف اليمن ومظاهر حياة أهله، وعليه كان يعتبر أكبر مؤرخي اليمن، بل أبا المؤرخين

في اليمن وإمامهم، وهذا ناتج من حرصه وتعلقه بكل علم بسبب.

يقول علامة الجزيرة **حمد الجاسر** في مقدمته لكتاب «صفة جزيرة العرب» تأليف الحسن بن أحمد الهمداني، وتحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ما نصه: «الدارس لكل ما يتصل بحياة الهمداني يجد أن تعصبه لقومه أو للقحطانية عامة، المنفذ الواسع لدراسة أحوال الهمداني، ومن هذه الناحية نجد أن كل نقد يمكن أن يوجه إليه يلج من هذا الباب الواسع الذي بقي مفتوحاً إلى عصرنا الحاضر، حيث نجد أشعاراً لشعراء معاصرين من اليمن ولجوا هذا الباب.. ويضاف إلى هذا اتساع آفاق المعرفة عند الهمداني اتساعاً يدعو إلى الاستغراب والدهشة، بالنسبة لرجل عاش في بقعة توشك أن تكون في ذلك العهد منعزلة عن العالم، ولكن هذا الرجل استطاع أن يمنح من كل علم من علوم عصره بالدلاء الملآء، ومن هنا تتسع جوانب الدراسة، فتشمل كل ما عرف في ذلك العصر من معارف وفنون وعلوم، ولا يكون من المبالغة القول بأن هذا العالم طرق آفاقاً لا يجد الباحثون بين من طرقها في البلاد العربية أحداً غيره، ومن هنا تبرز أهمية دراسة كل ما يتصل بحياته العلمية».

وبعد عودة لسان اليمن الهمداني إلى اليمن من زياراته العلمية التي قام بها في العالم الإسلامي، استقر واعتكف مدة طويلة في صعدة يقرأ ويؤلف، ليس فقط في علم التاريخ ولكن في سائر العلوم الأخرى، وعليه أنتج إنتاجاً علمياً عظيماً مملوءًا بالأحداث والإشارات الحضارية والأدبية والتاريخية، وهذا بالحقيقة ناتج عن مقدرته العجيبة والمدهشة على وصفه للآثار المعمارية والنقوش، وإتقانه الخط المسند الحميري، لذا ذاع صيته بين معاصريه بتدقيقه التام للروايات التاريخية، واهتمامه البالغ في استخدام مصطلحات للغة العربية الأصيلة، والمعروف عنه أنه كان دائماً يحاول الكشف عن الحقيقة العلمية، والوقوف عليها مهما كلفه هذا الأمر.

يقول **أنور الجندي** في كتابه آنف الذكر: «نشأ مؤرخ اليمن وصاحب

الإكليل الحسن بن أحمد الهمداني في اليمن في عصر الخلافات والفتن. وكان صاحباً لأحمد بن محمد الضحاك سيد همدان في عصره، مدحه وصور أيامه وشهد الحروب التي قام بها، وصف بلاد اليمن وصفاً دقيقاً مسهباً بقراها وبواديها. ولم يكن يعتمد على النقل بل كان يجمع ملاحظاته ويدرس الآثار، ويسجل كل شيء في دقة ويقظة. وقيل: كان عالماً بالنجوم والطب والفلك، وألف زيجاً كان عليه اعتماد أهل اليمن، ومن أبرع كتاباته تصور الفرق بين سرعة الضوء وسرعة الصوت».

ولاشك أن مقدرة لسان اليمن أبي محمد الحسن الهمداني العلمية تدعو إلى الاستغراب والذهول، فهو بحق من فحول علم التاريخ الذين أحاطوا في غرائبه ونوادره، كما أنه تميّز بمعرفته الفائقة النظير على فك رموز الكتابة العربية القديمة في اليمن، وذلك لتبحره بالمباحث اللغوية واللهجات المختلفة. والجدير ذكره أن لسان اليمن الهمداني كان لديه اهتمامات عظيمة في النواحي الأثرية وأنساب القبائل ومآثرها. لعل اتجاهه هذا جعل من جميع كتاباته وثائق بالغة القيمة للدارسين والباحثين في مجال العلوم المختلفة.

يقول **أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي** في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» ـ القسم الأول ـ : «كان الحسن بن أحمد الهمداني خبيراً كبيراً بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية نفسها، خاصة آثارها القديمة، وهو أمر نادر بين العرب، ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أنه استطاع فك رمز الكتابة العربية القديمة في جنوب الجزيرة، ويقف مصنفه (الإكليل) الذي يقع في عشرة أجزاء دليلاً ساطعاً على سعة معارفه. فقد أفرغ فيه جماع معرفته بالأنساب والتاريخ والآثار بل وحتى بأدب الحميريين سكان جنوب الجزيرة في القدم. ولم يكتف في كتابة بعض المادة الأسطورية التي تجمعت في الأدب العربي بعد الإسلام، بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد، وذلك

على ضوء دراسته المباشرة للنقوش التاريخية».

استطاع لسان اليمن الهمداني من خلال موسوعته «الإكليل» المكون من عشرة أجزاء أن يظهر بوضوح للقارىء مكانة الجزيرة العربية العلمية والسياسية والاقتصادية والتاريخية. وللأسف الشديد ضاع بعض أجزاء هذا الكتاب القيم الذي فيه استطاع أيضاً المؤلف أن يصف قصور وقلاع ومدن وسدود وهياكل اليمن وصفاً رائعاً ودقيقاً، ولذا صار كتاب الإكليل من المصادر الهامة جداً للباحثين في تاريخ اليمن قبل الإسلام وبعده. وعن طريق هذا الكتاب وصل لسان اليمن الهمداني إلى غايته في بعد الصيت والشهرة والذكر الواسع العريض، حيث حاز على إعجاب جهابذة الفكر ليس فقط في العلوم الإنسانية، ولكن أيضاً في العلوم الأساسية والتطبيقية. والحقيقة أن كتاب «الإكليل» يدل على خصب قريحة لسان اليمن الهمداني وقوة عقله ومقدرته العجيبة على استخلاص الحقائق العلمية من مصادرها المختلفة.

يقول **جمال الدين القفطي** في كتابه «إنباه الرواة على أنباه النحاة» عن كتاب «الإكليل» للسان اليمن الهمداني: «إنه يشتمل على عشرة أجزاء، الجزء الأول: في المبتدأ ونسب مالك بن حمير، والثاني: في أنساب ولد الهميسع من ولد حمير ونوادر من أخبارهم، والثالث: في فضائل اليمن ومناقب قحطان، والرابع: في سيرة حمير الأولى، والخامس: في سيرة حمير الوسطى، والسادس: في سيرة حمير الأخيرة إلى الإسلام، والسابع: في ذكر السياسة القديمة والأخبار الباطلة المستحيلة، والثامن: في القبوريات وعجائب ما وجد في قبوريات وعجائب ماوجد في قبور اليمن، والتاسع: في كلام حمير وحكمهم وتجارتهم المروية برطانة لسانهم، والعاشر: في معارف همدان وأنسابها ونتف من أخبارهم».

وكان لسان اليمن الهمداني متبحراً في علوم كثيرة، ولكنه تفوق على زملائه في مجال علم التاريخ، وهنا يبدو واضحاً من مؤلفاته العديدة والمتنوعة

التي تناقلها كبار المؤرخين في المعمورة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: سرائر الحكمة، وصفة جزيرة العرب، وكتاب الإبل، وأسماء الشهور والأيام، والإكليل، والجوهرتين، والحرث والحيلة، والدمغة، وديوان الهمداني، وزيج الهمداني، والسير والأخبار، والطابع والمطارح، وعجائب اليمن، والمسالك والممالك، ومفاخر اليمن، واليعسوب، وكتاب الحيوان وغيرها. والجدير ذكره أن الكثير من مؤلفاته دخلت بلاد الأندلس واستفاد منها العلماء هناك، حيث عرفوا بدقة متناهية دور العلماء المشارقة في تطوير الحضارة الإنسانية. ولقد أسهم لسان اليمن الهمداني إسهامات جليلة على الرغم من الفترة التي عاشها (أواخر القرن الثالث الهجري) التي كانت غارقة بالاضطرابات السياسية، والتي قادت بدورها إلى القلق الفكري.

وخلاصة القول: كان للدين الإسلامي الأثر العظيم على تقدم وتطور علم التاريخ، حيث إن علماء المسلمين أدركوا بكل وضوح المنافع والفوائد الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية التي يمكن جنيها عن طريق هذا العلم، وعليه وضعوا بكل جدارة الأسس العلمية لنقل المعلومات حول كل من غزوات المسلمين، وأخبار الخلفاء والصحابة والعلماء ورجال الدولة من الذاكرة والمعرفة الشفهية إلى المعرفة المسجلة الدقيقة. من هنا اهتم المؤرخون في القرن الرابع الهجري في تدوين كل من عادات وتقاليد الناس، لذا أعطى لسان اليمن الهمداني علم التاريخ جانباً كبيراً من وقته، حيث تمكن من الكتابة عن الحياة الاجتماعية والسياسية والتعليمية لجميع البلدان التي زارها مع التعمق في دراسة الجوانب الخاصة في الجو والتربة والجبال والبحار لهذه البلدان، ولكنه تفوق تفوقاً ملموساً في دراساته التي كانت تتعلق باليمن وسكانه.

ولقد احتل لسان اليمن الهمداني مكانة مرموقة بين المؤرخين ليس فقط في العالم الإسلامي، ولكن في جميع أرجاء المعمورة. فقد عرف بسعة ثقافته

ودقة تحليلاته للموضوعات التاريخية، بهذا تمكن من عرض كل من آثار اليمن العلمية وقبائله وتاريخه، واعتمد بذلك على المشاهدة والمعاينة وتدقيق الروايات وقراءة الكتابة الأثرية والنقوش، وقد ساعده على ذلك معرفته الجيدة بخط المسند الحميري.

كان لسان اليمن الهمداني متنوع المعلومات والخبرة ووافر المروءة كريم النفس، وكان أيضاً محباً لكل من صنع المعروف وطلب العلم، لذا اشتهر بين معاصريه بهذه الصفات الحميدة، ولكن بعض المؤرخين يرون أنه لهج بتفضيل قبيلة قحطان على قبيلة عدنان، هذا أعطى أعداءه الفرصة لإيذائه بتصيد هفواته، وعليه أدخل السجن مرتين. والمتواتر أنه في آخر أيام حياته انقطع تماماً للبحث والتأليف، وامتنع عن كل ما يصرفه عنهما.

obeikandl.com

محمد الصولي

هو **محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي**، كنيته **أبو بكر** ، ولقبه **الصولي**، لأن اسم جده صول تكين ملك جرجان. لا نعرف بالضبط تاريخ ولادته ولكن الثابت أنه ولد ببغداد ونما وترعرع هناك، ذاع صيته بين زملائه في كل من الأدب والأخبار والشعر والتاريخ، ولكنه نبغ في علم التاريخ، لذا نقل عنه مؤرخو الإسلام أخبار كل من الخلفاء والملوك والشعراء، عرف أيضاً بنوادره المتعددة وخبرته الطويلة حول الأحداث التاريخية بأشكالها المختلفة مما أعطاه فرصة التفوق في مجال علم التاريخ، وفوق هذا كله تميز بأمانته وصدقه في النقل. انتقل من بغداد في آخر أيام حياته إلى مدينة البصرة وتوفي بها سنة ٣٣٥هـ.

ويصف الحافظ **أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي** في كتابه آنف الذكر محمد بن يحيى الصولي بقوله: «كان أبو بكر الصولي أحد العلماء بفنون الآداب، حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء ومآثر الأشراف وطبقات الشُعراء، كان واسع الرواية حسن الحفظ للآداب، حاذقاً بتصنيف الكتب، ووضع الأشياء منها مواضعها، ونادم عدة من الخلفاء وصنف أخبارهم وسيرهم وجمع أشعارهم، ودوّن أخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتاب والرؤساء، وكان حسن الاعتقاد جميل الطريقة مقبول القول، وله أبوة حسنة فإن جده صول وأهله كانوا ملوك جرجان، ثم رأس أولاده بعده في الكتابة وتقلد الأعمال السلطانية. لأبي بكر الصولي شعر كثير في المدح والغزل وغير ذلك».

والمتواتر أن لأبي بكر الصولي علاقة قوية بخلفاء بني العباس آنذاك، حيث نادم ثلاثة منهم وهم كل من الراضي والمكتفي والمقتدر. وكان الراضي من المعجبين بأبي بكر الصولي فأكثر من مجالسته حتى صار يضرب به المثل بخلقه وأمانته وتفننه في لعبة الشطرنج، والجميع من خلفاء وغيرهم كانوا يعاملونه

openkanz.com

معاملة حسنة لمكانته العلمية التي كان يتمتع بها بين زملائه المؤرخين. والجدير بالذكر أنه تفنن بالشطرنج فكان أحسن الناس لعباً بهـا، ولكنـه أيضـاً اشتهر بمعرفته الجيدة لآداب الملوك وتأليف الكتب، فقد ألف كتاباً في أخبار الخلفاء سماه: «الأوراق في أخبار آل العباس وأشعارهم» بقي مرجعاً هاماً جداً للباحثين في مجال علم التاريخ أمداً طويلاً.

وينقل أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي في كتابه آنف الذكر محاسن أبي بكر الصولي فيقول: «وذكر أن الراضي رأى في بعض منتزهاته بالثريا بستاناً مونقاً وزهراً رائقاً، فقال لمن حضر (من ندمائه): هل رأيتم أحسن من هذا؟ فقال: قال: أشياء ذهب فيها إلى مدحه ووصف محاسنه وأنها لا يفي بها شيء من زهرات الدنيا، فقال: لعب الصولي الشطرنج والله أحسن من هذا (الزهر) ومن كل ما تصفون. وذكر أن الصولي في بدء دخوله إلى المكتفي، وقد كان ذكر له بجودة لعبة الشطرنج وكان الماوردي اللاعب (مقدماً عنده، متمكناً من قلبه) معجباً بلعبه، فلعبا جميعاً بحضرة المكتفي فحمل المكتفي حسن رأيه في الماوردي، وتقدم الخدمة والألفة على نصرته وتشجيعه حتى أدهش ذلك الصولي في أول وهلة، فلما اتصل اللعب بينهما وجمع له الصولي غايته (وقصد قصده غلبه) غلباً لا يكاد يرد عليه شيئاً، وتبين لعبه للمكتفي فعدل عن هواه ونصره للماوردي، وقال له: صار ماء وردك بولاً».

وكان أبو بكر الصولي كاتباً موهوباً حيث ألف كتباً نفيسة ليس فقط في علم التاريخ، ولكن في سائر العلوم الأخرى، وهذا يدل على ثقافته المتنوعة والعالية. وذكر صلاح الدين خليل الصفدي في كتابه: «الوافي» آنف الذكر بعضها وهي: أخبار الخلفاء، وأخبار الشعراء، وأخبار الوزراء، وأخبار القرامطة، وكتاب الورقة، وكتاب الغرر، وأخبار أبي عمرو ابن العلاء، وكتاب العبادة، وأخبار ابن هرمة، وأخبار السيد الحميري، وأخبار إسحاق

بن إبراهيم، وجمع أخبار جماعة من الشعراء ورتبه على حروف المعجم كلهم محدثون، وكتاب أدب الكاتب على الحقيقة، وكتاب الشبان عمله لابن الفرات، وكتاب الشامل في علم القرآن (لم يتم)، وكتاب مناقب ابن الفرات وكتاب سؤال وجواب، وكتاب رمضان، وأخبار أبي نواس، وأخبار أبي تمام، وكتاب أخبار أبي سعيد الجنابي، وكتاب في السعادة، وكتاب الأمالي.

خلاصة القول: كان المؤرخون المسلمون يحرصون كل الحرص على ربط علاقة متينة مع ولاة الأمر حينئذ؛ لأنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أن مكتبات وجلساء هؤلاء الولاة من المصادر الهامة جداً للباحثين في ميدان علم التاريخ، حيث كانوا يجمعون أخبار الأمم القديمة وسياساتها ونظمها، ويعينون كبار العلماء ليقرؤوا عليهم أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها، لذا ترى محمد ابن يحيى الصولي يوثق صلته مع من عاصره من الخلفاء العباسيين، لأنه يحب أن تكون معرفته بأخبار الأمم الماضية والأجيال الغابرة والمعاصرة له جيدة؛ ليصل في مسعاه إلى مبتغاه.

ولقد أدهش أبو بكر الصولي المؤرخين بإنتاجه الضخم الحافل بالاستنباطات والآراء الجديدة الجيدة في ميدان علم التاريخ التي لم يسبقه إليها أحد. والحقيقة أنه كتب بكل إتقان عن مآثر كبار القوم وطبقات الشعراء؛ لأنه كان يرى في البحث والاستقصاء في الأحداث التاريخية متعة ولذة. والجدير ذكره أنه عرف بين زملائه بسعة الرواية وجودة الذاكرة، فهو من ألمع علماء عصره، وأولاده كانوا من كبار الكتاب. أتمنى من الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه السيرة الموجزة لأبي بكر الصولي حافزاً لأحد أبناء الأمة العربية الإسلامية أن يقوم بدراسة إسهاماته العلمية المتنوعة؛ لكي يكون بين يدي القارىء دراسة مفصلة تليق بأبي بكر الصولي.

قدامة بن جعفر الكاتب

هو قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، وكنيته **أبو الفرج**، ولقبه **البغدادي** لأنه ولد في بغداد، وأعطي اسم الكاتب لأن لديه ولعاً شديداً في الكتابة، لا نعرف بالضبط تاريخ ميلاده. كان والده جعفر بن قدامة بن جعفر الكاتب. وقد تفوق على زملائه تفوقاً ملحوظاً ليس فقط في علم التاريخ، ولكن في سائر العلوم، وكان أبو الفرج قدامة بن جعفر نشأ وترعرع في بيئة نصرانية متطرفة، ولكنه تلقى تعليمه على كبار مفكري الإسلام، فتأثر تأثيراً عظيماً بمنهجهم العادل والصادق، لذا أصبح من البلغاء الفصحاء الذين يشار إليهم بالبنان، كما أحكم كلاً من المنطق والفلسفة والرياضيات والنحو والبلاغة والتاريخ. واعتنق الإسلام على يد الخليفة العباسي المكتفي با لله، الذي أسند إليه مناصب كبيرة في الدولة حينئذ ومنها ديوان الأموال (الخراج) في بغداد للمكانة العلمية الفريدة التي احتلها بين زملائه، وتوفي في بغداد سنة (٣٢٧ هجرية).

كرَّس **أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب** حياته للبحث والمطالعة والاستقصاء في مختلف فروع المعرفة، لذا تكون لديه مقدرة عجيبة على الكتابة والنقد العلمي البريء، وقد نوه أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي في كتابه آنف الذكر عن ذلك بقوله: «فإن أبا الفرج قدامة بن جعفر الكاتب حسن التأليف، بارع التصنيف، موجزاً للألفاظ، مقراً للمعاني، وإذا أردت علم ذلك فانظر في كتابه في الأخبار المعروف بكتاب «زهرة الربيع»، وأشرف على كتابه المترجم بكتاب «الخراج»، فإنك تشاهد بهما حقيقة ما قد ذكر، وصدق ما وصفنا».

ويذكر **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «أن أبا الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي من الكتاب النصارى المشهورين، ولكنه أسلم وكتب

في المادة التاريخية الإسلامية بطريقة جيدة ونزيهة، يشهد له بذلك كبار المؤرخين المسلمين. ولكن للأسف الشديد ضاع معظم كتبه، ولكن بقي له كتاب الخراج وصنعة الكتابة (مخطوطته توجد في مكتبة كوبريلي بإستامبول رقم ١٠٧٦)، وله أيضاً كتابان يدخلان في إطار مادة علم التاريخ هما نزهة القلوب وزاد المسافر وكتاب السياسة».

وقد تناقل المؤرخون في المعمورة بعض مؤلفاته القيمة في مصنفاتهم، لأن أبا الفرج قدامة بن جعفر الكاتب لم يأخذ إلا ما سمعوه عن ثقة أو نقله عن مرجع مشهور، لذا تقمص منهجه الكثير من المؤرخين المسلمين الذين عاصروه أو جاؤوا بعده. وقد ذكر ياقوت الحموي في كتابه آنف الذكر بعض كتبه منها: كتاب الخراج، وكتاب نقد الشعر، وكتاب صابون الفم، وكتاب صرف الهم، وكتاب جلاء الحزن، وكتاب ترياق الفكر، وكتاب السياسة، وكتاب الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام، كتاب حشو حشاء الجليس، وكتاب صناعة الجدل، وكتاب النجم الثاقب، وكتاب نزهة القلوب وزاد المسافر، وكتاب زهر الربيع في الأخبار والتاريخ، وكتاب سر البلاغة، وكتاب جواهر الألفاظ، وكتاب البلدان وغيرها.

وخلاصة القول: عندما بدأ أبو الفرج قدامة بن جعفر في دراسة علم التاريخ وجد معظم المؤرخين يركزون في بحوثهم على كل من أخبار الخلفاء والوزراء والحروب والفتن، فلم يرض أبداً عن ذلك، مما جعله في بادىء الأمر يحاول إدخال الكوارث الطبيعية والضرائب ضمن محتويات علم التاريخ لكي يوسع مجال البحث التاريخي، فنجح بهذا نجاحاً باهراً، وكما اعتبر أيضاً كلاً من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية والتربوية جزءاً من علم التاريخ، لذا صار علم التاريخ في عصره علماً جامعاً. كما اهتم أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب اهتماماً بالغاً باستخدام اللغة العربية في جميع معاملات الدولة، وذلك في عهد الخليفة العباسي المكتفي با لله. ولا يخفى على القارىء بهذه المناسبة

أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان هو الذي نقل دواوين الدولة من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية.

وكان أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب باحثاً ومثابراً وذكياً، ولديه قدرة عجيبة على استخراج الأفكار العلمية المفيدة من النصوص القديمة، لذا تميزت مؤلفاته بجزالة المعلومات؛ لاحتوائها على الأخبار التاريخية النادرة والفريدة التي لا يستغني عنها طلاب العلم والباحثون في مجال علم التاريخ. كما عني عناية تامة بإبراز كل من نوادر، وأمثال وحكم العرب في مؤلفاته؛ لأنها تحمل معاني عميقة وضرورية لشباب الأمة الإسلامية، وذلك ليكونوا يقظين من أعدائهم أعداء الأمة الإسلامية.

لقد اتفق المؤرخون في العالم الإسلامي دون استثناء على غزارة علم أبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب، واعترف له أيضاً كل من جهابذة النقد وأئمة البلاغة بمكانته العلمية. ولا يخفى على القارىء أنه خدم الدين الإسلامي خدمة عظيمة، وذلك لمعرفته أسرار النصرانية، حيث تمكن بما آتاه الله سبحانه وتعالى من رسوخ ملكته وتوقد ذهنه أن يعمل مقارنة ناجحة جداً بين الإسلام والنصرانية، وعن طريقها أثبت لذوي النهى محاسن الدين الإسلامي ومثالب وعيوب النصرانية المهزوزة.

obeikandi.com

المسعودي

هو **علي بن الحسين بن علي المسعودي** يلقب بأبي الحسن ويكنى **بهيرودوت العرب**، لجمعه بين علمي التاريخ والجغرافية، فهو بحق مؤرخ وجغرافي من الطراز الأول. ولد ببغداد، ولكن لا نعرف تاريخ ميلاده، اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته، ولكن الثابت أنه توفي (سنة ٣٤٥ هجرية) في مصر حيث قضى السنوات العشر الأخيرة من عمره متنقلاً بين سوريا ومصر. ولقد نما وترعرع في بيت علم وفضل ببغداد، فهو من ذرية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. برز أبو الحسن المسعودي في علوم كثيرة، حيث ذاع صيته بين زملائه بسعة الاطلاع والثقافة والفطنة والذكاء، وهذا كله عائد لكثرة قراءته الكتب والوثائق العلمية، وعليه امتازت مؤلفاته باحتوائها على المعارف النادرة عن العادات والتقاليد والأدب والأخلاق والسياسة والتاريخ، كما اشتهر بأخلاقه وغرائبه وخفة ظله وبحوثه في كل من علم التاريخ وعلم الجغرافية.

كان أبو الحسن المسعودي عالماً بعلوم عصره عن كتب على كثرتها، وهذا يظهر واضحاً من تنوع محتويات مؤلفاته التي ذكر بعضها ياقوت الحموي في كتابه «معجم الأدباء» ـ الجزء الثالث عشر ـ وهي: كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك، وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور، وكتاب الرسائل، وكتاب الاستذكار لما مر في سالف الأعصار، وكتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم، وكتاب التنبيه والإسراف، وكتاب خزائن الملك وسر العالمين، وكتاب المقالات في أصول الديانات، وكتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وكتاب البيان في أسماء الأئمة، وكتاب أخبار الخوارج.

أما كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن المسعودي الذي يوجد في جميع المكتبات العربية والإسلامية، فقد حاول أبو الحسن المسعودي أن يتناول فيه جوانب ثقافية وعقائدية وفكرية متنوعة، ليس فقط عن العرب

والمسلمين، ولكن عن تاريخ الإنسانية بوجه عام منذ بدء الخليفة إلى عهده، ويعتبر من المصادر الهامة جداً للباحثين في مجالي التاريخ والجغرافية، ويتضح ذلك من قول محققه محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمة هذا الكتاب: «أما بعد، فهذا كتاب، جمع فيه مؤلفه من علوم الأوائل ومعارفهم عيون المسائل وأمهاتها، و لم يفصل القول فيه تفصيلاً يطيل به على قارئه، ولا أحاط بأطراف ما تعرض له من المسائل، مكتفياً بأن ينتقي من كل عقد درة هي أثمن درره وأغلاها عنده، وأن يغترف من كل بحر قطرة هي أهنأ قطراته وأمرؤها، وأن يقتطف من كل روض زهرة هي أرج أزاهيره وأنضرها، وقد تعرض لاختلاف العلماء في أكثر ما بحث من مسائله، وبين أقاويلهم، وأشار إلى بعض حججهم تاركاً تفصيل ما أخذ فيه من القول إلى كتبه التي صنفها قبل هذا الكتاب، وقد أخذ علمه الذي أودعه كتابه هذا وكتبه السابقة عليه من مصدرين: أحدهما: جملة من كتب العلماء الذين سبقوه بالتدوين، وقد أشار إلى أكثر هذه الكتب في مطلع هذا الكتاب، وبين مقدار أهميتها في نظره، والمصدر الثاني: ـ وهو في الأكثر عندما يريد أن يحدثك عن عادات بعض البلدان أو حاصلاتها ـ أحاديث الناس التي يتناقلونها كابراً عن كابر.

وخلاصة القول: بقي الاعتقاد سائداً بين المؤرخين المسلمين الأوائل أن تعليل الحوادث التاريخية لا تكون صادقة ودقيقة ومقبولة إلا إذا درست عن طريق مواقعها الجغرافية، ولذا ظل كل من علم التاريخ وعلم الجغرافية متلازمين بل إن الكثير من مؤرخي الإسلام يرون علم الجغرافية جزءاً لا يتجزأ من علم التاريخ. والمعروف آنذاك أن للبيئة تأثيرات خطيرة على المؤرخ الدؤوب؛ لأنه يأخذ مادته التاريخية مما حوله، فهي ـ في الحقيقة ـ عامل مهم في حفز همته للبحث والاستقصاء. إذن يظهر بجلاء للقارىء أن كلاً من علم التاريخ وعلم الجغرافية، يكمل كل واحد منهما الآخر، وعليه حاول أبو الحسن المسعودي أن يجمع بينهما، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً.

ينقل **عمر رضا كحاله** في كتابه: «التاريخ والجغرافية في العصور الوسطى» شعور المسعودي حول علم التاريخ حيث يقول: «إنه لولا التاريخ لبادت آثار العلوم منذ زمان بعيد؛ لأن العلماء عرضة للزوال، ولكن التاريخ هو الذي يدوّن ما تجود به عقولهم، فيحفظ صلة الماضي بالحاضر، وهو ينبئنا بآراء الناس، ويقص علينا ما وقع من حوادث من غير تشيع». وهكذا يؤكد أبو الحسن المسعودي على أن التاريخ يصور أعمال البشر، ويفسر ذخائر فكرهم.

ولقد أتعب أبو الحسن المسعودي نفسه في الكد والمثابرة في طلب العلم منذ الصغر، حتى فاق أهل عصره في كل من علم التاريخ وعلم الجغرافية، وهذا يظهر واضحاً من دراسته للمواضيع التي تناولها في مؤلفاته العديدة، حيث وضع أول إطار صحيح للتأليف في مجالي علم التاريخ وعلم الجغرافية، فهو بحق الذي أرسى هذه القواعد المتينة، كما ترك لمن يأتي بعده أن يتم الطريق بالتفاصيل والتفسيرات العلمية، وعليه اهتم المؤرخون في دراسة إنتاجه العلمي دراسة متأنية خاصة في ميدان علم التاريخ.

برز أبو الحسن المسعودي في منهجه وأسلوبه في الكتابة، حيث اعتمد في كتاباته الكثيرة على المشاهدة والوثائق العلمية والكتب، كما تميز عن غيره بذكر مصادره التي استخدمها بأمانة وصدق، أما أسلوبه في الكتابة فقد كان بسيطاً بعيداً كل البُعد عن الإنشاء، متسماً بالوضوح والصراحة، وخالياً تماماً من المبالغات التي تعودنا أن نقرأها لبعض المؤرخين. أما الحقيقة التي يلزم ذكرها أن أبا الحسن المسعودي حصل على مكانته المرموقة بين مؤرخي زمانه بسببين هامين: الأول: مؤلفاته الكثيرة التي تدل على ما كان عليه من العلم وعلو المنزلة، والثاني: منزلة أسرته العربية العريقة التي كان لها أثر عظيم على تفوقه العلمي. وأخيراً يمكن القول: إن أبا الحسن المسعودي من المؤرخين المسلمين الأوائل الأفذاذ الذين ينطبق عليهم قول الشاعر:

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم   بعد الممات جمال الكتب والسير

أبو بكر الزبيدي

هو **محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي**، وكنيته **أبو بكر**، ولقبه **الزبيدي** لأنه ينتمي إلى قبيلة زبيد اليمنية المشهورة التي هاجر بعض أفرادها إلى حمص ثم الأندلس واستوطنوا مدينة إشبيلية، ولذا عرف باسم الحمصي والإشبيلي. كان والده الحسن بن عبد الله الزبيدي رجلاً جاداً فاضلاً، له مكانة مرموقة بين أهل مدينة إشبيلية. ولد الابن محمد بن الحسن الزبيدي في إشبيلية سنة (٣١٦ هجرية)، وتلقى تعليمه فيها، وتفوق على زملائه في كل من السير والأخبار والأدب والنحو واللغة والشعر والخطابة والعلوم الشرعية، ولكنه لم يكتف بهذا بل انتقل إلى مدينة قرطبة التي كانت تعج بجهابذة الفكر الذين تتلمذ عليهم، ونبغ ليس فقط في علم التاريخ ولكن في سائر العلوم، وبقي هناك مدة طويلة جداً من الزمن.

عاش أبو بكر الزبيدي يتيماً، لأن والده الحسن بن عبد الله الزبيدي توفي وعمر الابن عشر سنوات، ولكن عائلته العريقة لاحظت علامات النبوغ تبدو واضحة عليه، فاهتمت بتعليمه لاعتقادها أنه سيكون له شأن عظيم في تطوير معالم الحضارة الإسلامية، وعليه كان تحصيله العلمي متميزاً جداً، حيث ذاع صيته في جميع أرجاء العالم الإسلامي، مما جعل الحاكم (المستنصر بالله) يطلب من أبي بكر الزبيدي أن يدرس ابنه ولي العهد هشام (المؤيد بالله) وأن يسند إليه القضاء في قرطبة، ولكن لم يدم هذا الاحتفاء والتقدير طويلاً، فعندما توفي الخليفة المستنصر بالله تولى ابنه هشام (المؤيد بالله) الحكم، فأطاح به المنصور بن أبي عامر وحبسه، فاضطر أبو بكر الزبيدي أن يغادر قرطبة ويتجه إلى مسقط رأسه إشبيلية.

تفرغ أبو بكر الزبيدي للدراسة والبحث والاستقصاء والتأليف في مدينة إشبيلية، وعمل فيها قاضياً حتى توفي فيها سنة (٣٧٩ هجرية)، ولم يقطع

صلته بمجالس علماء قرطبة التي كـان يعتبرهـا مرجعـاً أصيـلاً للعلمـاء الكبـار والصغار. ولا يخفى على القارىء أن أبا بكر الزبيدي أنتج إنتاجاً هـائلاً ليـس فقط في العلوم الشرعية واللغوية، ولكن أيضاً في علـم التـاريخ. وهـذا يظهـر واضحاً من كتابه القيم الذي بعنوان: «طبقات النحويين واللغويين» الذي رتبه بطريقة علمية راقية، حيث جعل لكل جيل طبقة من العلماء. وهكـذا صـار هـذا الكتاب مرجعاً هاماً جداً للباحثين في مجالي النحو والتاريخ.

يقول **أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان** في كتابه آنف الذكر: «كـان أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر الزبيدي الإشبيلي واحد عصره في علـم النحـو وحفـظ اللغة، وكـان أخبر أهـل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر إلى علم السير والأخبار، ولم يكن بـالأندلس في فنه مثله في زمانه.. واختـاره الحكـم المستنصر بـا لله صـاحب الأندلـس لتأديب ولده ولي العهد هشام المؤيد با لله، فكان الذي علمه الحساب والعربية ونفعه كثيراً، ونال أبو بكر الزبيدي منـه دنيـا عريضـة، وتـولى قضـاء إشـبيلية وخطة الشرطة، وحصل نعمـة ضخمة لبسـها بنـوه مـن بعـده زمانـاً، وكـان يستعظم أدب المؤيد با لله أيام صباه ويصف رجاحته وحجـاه، ويزعـم أنـه لم يجالس قط من أبناء العظماء مـن أهـل بيتـه وغـيره مثـل سـنه أذكـى منـه ولا أحضر يقظة وألطف حساً وأوزن حلماً».

كان أبو بكر الزبيدي من ألمـع علمـاء عصـره ويبـدو ذلـك واضحـاً مـن إنتاجه الضخم الحافل بالأفكار والآراء العلمية التي مكنته من كشـف الحقيقـة والوقوف عليها. ومن مؤلفاته التي ذكرها معظم المؤرخين في المعمورة: كتاب أبنية الأسماء والأفعال، وكتاب مختصر العـين، وكتـاب فيمـا يلحـن فيـه عـوام الأندلس، وكتاب الموضح في النحو، وكتاب هتك ستور الملحديـن، وكتـاب أخبار الفقهاء المتأخرين من أهل قرطبة، وكتاب الغايـة في العـروض، وكتـاب الأبنية في شرح كتاب سيبويه، وكتاب الاستدراك على كتاب العـين للخليـل

في اللغة، وكتاب طبقة اللغويين والنحويين بالمشرق والأندلس، وكتاب الواضح في العربية وغيرها.

وخلاصة القول: كان لأبي بكر الزبيدي علاقة قوية في جماهير بلاد الأندلس، فهو الذي بذل جهداً كبيراً في تأليف كتاب بسيط في النحو لعامة الناس «كتاب فيما تلحن فيه عوام الأندلس» لكي يقضي على اللحن في اللغة العربية حينئذ، وليعلمهم سهولة لغة الاشتقاق (اللغة العربية)، وبهذا قدم أبوبكر الزبيدي خدمة جليلة للأمة الإسلامية، إذن ليس بغريب أن يسمى شيخ اللغة العربية في الأندلس.

امتاز أبو بكر الزبيدي على علماء زمانه بروحه العلمية النادرة وتسامحه وإخلاصه وزهده واعترافه بفضل أجداده (علماء المسلمين الأوائل)، حيث استقى معارفه العلمية الراقية عن طريق مؤلفاتهم الفاخرة. والجدير ذكره أنه كان دائماً يحاول دعم دراساته وتحرياته بالبراهين المادية والحجج المنطقية، لذا انتشرت مؤلفاته المختلفة بين طلاب العلم، بهذا تمكن من إثراء مكتبات العالم بإسهاماته الفريدة. وخير ما نختتم هذه الخلاصة فيما قاله **انجل جنثالت بالنثيا** عن أبي بكر الزبيدي في كتابه «تاريخ الفكر الأندلسي»، حيث يقول: «كان أبو بكر الزبيدي شاعراً يميل في شعره إلى الحكمة والزهد، فيذكر الخوف من الله، وخلود الروح، وثواب الآخرة وعقابها، كقوله:

أنا مسلم الفتى بجنانه ... مقوله إلا بالمراكب واللبس
وليس ثياب المرء تغني قلامه ... إذا كان مقصور على قصر النفس
وليس يقيد العلم والحلم والحجى ... أبا مسلم طول القعود على الكرسي

ابن النديم

هو **محمد بن إسحاق بن النديم**، كنيته **أبو الفرج**، ويعرف بالأخباري الأديب، و لم يثبت بالضبط لماذا لقب **بابن النديم**؟ ولكن الشائع أنه كان أخبارياً وأديباً متميزاً، لذا فما أولاه أن يكون نديماً ينادم الجماهير من الناس بأخباره. والمتواتر أنه كان يدعى بالوراق البغدادي، وهذا ناتج عن أن والده أبا يعقوب إسحاق بن محمد بن النديم كان وراقاً أخبارياً مرموقاً، فورث الابن أبو الفرج محمد بن النديم هذه المهنة الجيدة؛ لأن عمل الوراق حينئذ يشبه إلى حد ما عمل الباحث اليوم الذي يوثق المعلومات بالمراجع الجيدة، من هنا استخدم المصطلح (وراقة) رديفاً للمصطلح الحديث (ببيلوجرافيا).

لا نعرف شيئاً يذكر عن نشأة أبي الفرج محمد بن النديم ولا تاريخ ولادته، لكن المعروف أنه ولد بمدينة بغداد، وتلقى تعليمه بها حتى رسخت قدماه في حبه لعلم التاريخ، لذا صار يجالس أهل العلم ويتحدث إليهم عن التراث العربي والإسلامي، مما مكنه من الانتهاء من تصنيف كتابه «الفهرست» سنة (٣٧٧ هجرية). والجدير ذكره أن الفهرست كلمة فارسية الأصل عربت منذ أن استخدمها ابن النديم. وكذا اختلف في تاريخ وفاته، ولكن القرائن التي ذكرها مؤرخو العرب والمسلمين وصلت بنا إلى التحقق من أنه مات بمدينة بغداد سنة (٣٨٥ هجرية)، لم يعطه مؤرخو العرب والمسلمين حقه، علماً أنه ألف كتابه الفهرست الذي يحتوي على الببيلوجرافية عن المؤلفين والكتب، والذي يُعتبر أول كتاب يغطي تراث الفكر العربي والإسلامي حتى أواخر القرن الرابع الهجري بمنهجية شاملة ودقيقة.

يقول أحد أساتذة الجامعة المصرية الذي لم يذكر اسمه في مقدمته الشائقة عن محمد بن إسحاق بن النديم في كتاب «الفهرست» لابن النديم: «لم يكن التاريخ حاكماً عادلاً، يمنح للناس شهرة بنسبة أعمالهم، ويكافئهم على قدر

استحقاقهم. فهذا رجل جمع صحائف من أقوال غيره ولفقها تلفيقاً فمنحه التاريخ ألقاباً ضخمة وخلد له ذكراً مطولاً في بطون الصحائف، وآخر كان نابغة حقاً في تفكيره وعمله ثم أهمله التاريخ، فقل أن تجد له ذكراً، أو تعرف له حياة مفصلة، ولعل أصدق ما ينطبق عليه هذا القول (ابن النديم)، فكتابه الفهرست يدل على أنه كان رجلاً فذاً من نواحي مختلفة.. والحق أن كتاب الفهرست ذخيرة لا تقدر، غرضه أن يحصي جميع الكتب العربية المنقولة من الأمم المختلفة والمؤلفة في جميع أنواع العلوم، ويصفها ويبين مترجميها أو مؤلفيها، ويذكر طرفاً من تاريخ حياتهم ويعيِّن تاريخ وفاتهم. فكان الكتاب على هذا النمط أجمع كتاب لإحصاء ما ألف الناس إلى آخر القرن الرابع الهجري وأشمل وثيقة تبين ما وصل إليه المسلمون في حياتهم العقلية والعلمية في هذا العصر. وأكثر هذه الكتب التي وصفها قد ضاعت بتوالي النكبات المختلفة على المملكة الإسلامية ولا سيما في غزو التتار لبغداد، ولولا كتاب الفهرست لضاعت أسماؤها وأوصافها أيضاً كما ضاعت معالمها».

المعروف لدى المؤرخين للحضارة العربية والإسلامية أن أبا الفرج محمد بن النديم، قضى مدة طويلة في تصنيف كتابه الفهرست، ولكنه أيضاً تمكن أن يكتب كتاباً آخر سماه التشبيهات، وقد حاول ابن النديم في كتابيه أن يكشف الحقيقة وأن يقف عليها. وصدق **ياقوت الحموي الرومي** عندما قال في كتابه «معجم الأدباء» ـ الجزء الثامن عشر ـ ما نصه: (محمد بن إسحاق النديم مصنف كتاب «الفهرست» الذي جود فيه، واستوعب استيعاباً يدل على اطلاعه على فنون من العلم وتحققه لجميع الكتب، ولا أبعد أن يكون قد كان وراقاً يبيع الكتب، وذكر في مقدمة هذا الكتاب أنه صنف في سنة سبع وسبعين وثلاث مئة، وله من التصانيف: فهرست الكتب، وكتاب التشبيهات».

خلاصة القول: كانت الفترة ما بين (٣٣٤ هجرية) و (٤٤٧ هجرية) هي فترة امتازت بكثرة الإنتاج العلمي في العالم الإسلامي (في سنة ٣٣٤

هجرية) بدأت الدولة البويهية وفي (سنة ٤٤٧ هجرية) دخل السلاجقة بغداد، حيث تعددت المؤلفات في مختلف فروع المعرفة، مما دفع بالعلماء الكبار إلى التفكير في تطوير علم معين يهتم برصد أسماء الكتب وموضوعاتها، لذا اتجه محمد بن إسحاق بن النديم إلى الدراسة والبحث في هذا الميدان الحيوي، فألف كتابه الشهير «الفهرست» (علم الببلوجرافيا) الذي لا تخلو منه مكتبة في العالم والذي يحتوي على معلومات بيوجرافية مفيدة عن كل من المؤلفين وكتبهم، وإن كان لا يدخل في التفاصيل. كان كتاب الفهرست لابن النديم المصدر الفريد للباحثين في مجال علم التاريخ؛ لأنه يعطي فكرة موجزة ليس فقط عن الكتب القديمة الموجودة في مكتبات العالم، ولكن يقدم أيضاً معلومات قيمة عن الكتب المفقودة، ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب للباحثين في علم الببلوجرافيا.

ولقد اشتهر أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم بكل من أمانته العلمية وتحريه للصدق، وولعه الشديد بقراءة الكتب وتحليل محتواها تحليلاً علمياً رائعاً بعيداً كل البعد عن الميل الشخصي وتعريفه للباحث بعلم الببلوجرافيا، بهذا استطاع وبجدارة إدراك الأبعاد المختلفة لعلم التاريخ، حيث جمع مادة دسمة عن المؤلف ومؤلفاته في كتابه «الفهرست» ساعدت الباحث في الوقوف على الحقيقة.

obeikandl.com

أحمد بن فارس القزويني

هو **أحمد بن فارس بن زكريا القزويني**، ويكنى **بأبي الحسين**، ويلقب بكل من **القزويني** لأن أصله من قزوين التي ولد فيها سنة (٣٢٩ هجرية)، **والرازي** نسبة إلى الري من بلاد الديلم التي استوطنها وتوفي فيها سنة (٣٩٥ هجرية)، وتتلمذ على أيدي كبار علماء همذان، فنبغ في شتى العلوم، ولذا كانت ثقافته في اللغة العربية والتاريخ واسعة، فكتب عن علماء اللغة وفقهاء الإسلام الكثير، وهذا أكسبه شعبية وسمعة رائعة. لقد ذاع صيته ليس فقط في ميدان اللغة العربية والفقه وتاريخهما، ولكن أيضاً في سائر العلوم، فهو بحق موسوعة علمية تمشي على قدمين.

كان أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني يحث طلابه على التعمق في مجال اللغة العربية وتاريخها؛ لأنها الهيكل العظمي لجميع العلوم، وهذا لا يستغرب عليه؛ لأنه من أئمة اللغة العربية وتاريخها، فقد تنقل في مدن إسلامية كثيرة لبث أفكاره بين طلاب العلم حينئذ، ورحلاته هذه خدمته خدمة عظيمة حيث مكنته من جمع معلومات تاريخية هامة جداً عن فطاحل اللغة العربية.

يقول **الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر: «مولد الإمام العلامة أبي الحسين أحمد بن فارس القزويني بقزوين ومرباه بهمذان، وأكثر الإقامة بالري، وكان رأساً في الأدب، بصيراً بفقه مالك، مناظراً متكلماً على طريقة أهل الحق، ومذهبه في النحو على طريقة الكوفيين، جمع إتقان العلم إلى ظرف أهل الكتابة والشعر، ومن نظمه:

سقى همذان الغيث لست بقائل   سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرم
ومالي لا أصفي الدعاء لبلدة   أفدت بها نسيان ما كنت أعلم
نسيت الذي أحسنته غير أنني   مدين ومافي جوف بيتي درهم

وله:

إذا كنت تؤذى بحرّ المصيف ... ويبس الخريف وبرد الشتا

ويلهيك حسن زمان الربيع ... فأخذك للعلم قل لي متى؟

أما **أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان** فيقول في كتابه: «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ الجزء الأول ـ: أن لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي أشعار جيدة، فمنها قوله:

إذا كنت في حاجة مرسلاً ... وأنت بها كلف مغرم

فأرسل حكيماً ولا توصه ... وذاك الحكيم هو الدرهم

وله أيضاً:

وقالوا كيف حالك قلت خير ... تقضّى حاجة وتفوت حاج

إذا ازدحمت هموم الصدر قلنا ... عسى يوماً يكون لها انفراج

وله أشعار كثيرة حسنة».

وكان أبو الحسن أحمد بن فارس القزويني ذا عقلية فريدة في كثير من العلوم، ومؤلفاته العديدة التي ذكرها صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي في كتابه «الوافي بالوفيات» ـ الجزء السابع ـ تشهد له بهذا ومنها: كتاب المجمل وكتاب متخير الألفاظ، وكتاب فقه اللغة، وكتاب غريب إعراب القرآن، وكتاب تفسير أسماء النبي ﷺ، وكتاب مقدمة في النحو، وكتاب دارات العرب، وكتاب حلية الفقهاء، وكتاب الفرق، وكتاب مقدمة في الفرائض، وكتاب ذخائر الكلمات، وكتاب شرح رسالة الزهري إلى عبد الملك بن مروان، وكتاب أصول الفقه، وكتاب أخلاق النبي ﷺ ، وكتاب جامع التأويل في تفسير القرآن، وكتاب الثياب والحلي، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الحماسة المحدثة، وكتاب مقاييس اللغة، وكتاب المتعلمين في اختلاف النحويين، وكتاب فقه اللغة المسمى بالصاحبي.

obeikandl.com

وخلاصة القول: في القرن الرابع الهجري برز الاهتمام باللغة العربية وتاريخها، وذلك لأن علماء المسلمين كانوا يعتقدون أنه لم يكن هناك بد من تفوق اللغة العربية على جميع اللغات الأخرى، وعليه خطت المعرفة بميادينها المختلفة خطوات فاصلات، كان لها أبعد الأثر في تميز الحضارة العربية والإسلامية على جميع الحضارات الإنسانية. من هنا حازت اللغة العربية وتاريخها على الشيء الكثير من عناية أبي الحسن أحمد بن فارس القزويني، فبرع فيها وأضاف إضافات جوهرية على مكوناتها، أثارت إعجاب علماء العرب والمسلمين، لذا اعترفوا بفضله وأثره العظيم على خدمة الحركة العلمية في العالم الإسلامي.

ولقد تفوق أبو الحسين أحمد بن فارس القزويني على زملائه بروحه العلمية وزهده وكرمه وتسامحه وإخلاصه للحقيقة، ويظهر ذلك واضحاً مما نقله **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر: «من أن الصاحب بن عباد كان يكرم العلامة أحمد بن فارس القزويني ويتتلمذ له ويقول: شيخنا أبو الحسين، ممن رزق حسن التصنيف وآمن فيه من التصحيف، وكان كريماً جواداً لا يبقي شيئاً، وربما سئل فوهب ثياب جسمه وفرش بيته».

والعجيب أن القليل جداً من المؤرخين المسلمين يعرفون بوضوح وجلاء أن لأبي الحسين أحمد بن فارس القزويني فضلاً في علم التاريخ، وقد يكون لهؤلاء عذر؛ لأن شهرته في مجال اللغة العربية بفروعها المختلفة طغت تماماً على عبقريته في النواحي الأخرى مثل علم التاريخ، ولكن من يقرأ مؤلفاته بدقة يكتشف أنه كان ضليعاً في علم التاريخ، واقفاً على مبادئه وأصوله، وعلى كل حال يمكن القول: إن أبا الحسين أحمد بن فارس القزويني أعطى جل وقته للغة العربية، ولكنه لم يهمل أبداً المعطيات التاريخية التي يجب أن يلم بها الباحث، فهو أعلم الناس بتاريخ العرب ونوادرهم وفصيح أشعارهم ونثرهم وسائر أمثالهم.

أبو حيان التوحيدي

هو **علي بن محمد بن العباس التوحيدي**. ويلقب **بأبي حيان**، ويعرف **بأبي حيان التوحيدي**. لا نعرف بالضبط متى ولد ولا متى توفي، ولكن الثابت أنه كان حياً سنة ٣٨٠ هجرية، ويرى بعض المؤرخين أنه توفي سنة ٤٠٠ هجرية عن عمر يناهز الثمانين سنة، شيرازي الأصل استوطن كلاً من نيسابور وبغداد والري. وقف حياته المديدة للكتابة حيث دأب على ذلك بقية حياته، وذاع صيته بين معاصريه عن طريق كتبه المطبوعة: كتاب الصداقة والصديق، وكتاب المقابسة، وكتاب الإمتاع والمؤانسة، تلقى تعليمه على جهابذة الفكر في كل من بغداد والبصرة، فكان جيد الحفظ وسريع البديهة وقوي الإرادة، نبغ في كل من علوم اللغة العربية والفقه والتاريخ، برز بروزاً عظيماً في كتابة السير؛ لأنه عرف بصراحته وصدقه ونزاهته وبُعده كل البُعد عن الإطراء الزائف. والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين المسلمين يميلون إلى أنه عربي الأصل، وذلك لمدحه للعرب وعدم معرفته اللغة الفارسية.

يقول **ياقوت الحموي** في موسوعته آنفة الذكر عن أبي حيان التوحيدي ما نصه: «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، وعمدة لبني ساسان، سخيف اللسان، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان. الذم شأنه، والثلب دكانه، (بضاعته المثالب)، وهو مع ذلك. فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية، وكان مع ذلك محدوداً، محروماً، محارفاً يتشكى صرف زمانه ويبكي في تصانيفه على حرمانه، حيث يقول أبو حيان التوحيدي عن نفسه: «لقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء وإلى التكلف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق وإلى مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم».

openkanz.com

تميزت مؤلفات أبي حيان التوحيدي باحتوائها على ما حصل عليه من الروايات والأقوال التاريخية، لذا كانت من المصادر الهامة جداً للباحثين في عهده في مجال كل من الأدب والتاريخ، ولقد تواتر عن المؤرخين المسلمين التابعين له أن عدد مؤلفات أبي حيان التوحيدي بلغت حوالي عشرين كتاباً. منها ما طبع ومنها ما يزال مخطوطاً ومنها ما ضاع، والمعروف منها ما ذكره **ياقوت الحموي** في موسوعته آنفة الذكر ومنها: كتاب الصديق والصداقة، وكتاب الرد على ابن جني في شعر المتنبي، وكتاب الإمتاع والمؤانسة جزءان، وكتاب الإشارات الإلهية جزءان، وكتاب الزلفة جزء، وكتاب المقابسة، وكتاب رياض العارفين، وكتاب تقريظ الجاحظ، وكتاب ذم الوزيرين، وكتاب الرسالة البغدادية، وكتاب الرسالة في الحنين إلى الأوطان، وكتاب البصائر وهو عشر مجلدات، وكتاب المحاضرات والمناظرات.

وخلاصة القول: اعتبر علماء العرب والمسلمون الأوائل دراسة الأدب العربي من الموضوعات الضرورية لفهم المسارات المختلفة للحضارة الإسلامية، حيث إنه من العلوم المساعدة التي تعين الباحث في مجال علم التاريخ، والمعروف أن علم التاريخ يمتلك المادة العلمية للموضوعات المختلفة التي تتعلق في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والأدبية، لذا استخدم أبو حيان التوحيدي في بحوثه المختلفة المنهج التاريخي لقناعته التامة أن علم التاريخ عبارة عن وصف أدبي لنشاط الشعوب عبر العصور، كما اشتهر أبو حيان التوحيدي ببراعته في وصف الشخصيات التاريخية وتصنيف السير، وعليه أصبح من المؤرخين المرموقين في الحضارة العربية والإسلامية.

يصف **علي أدهم** في كتابه «بعض مؤرخي الإسلام» أبا حيان التوحيدي بقوله: «وقد كان أبو حيان التوحيدي كاتباً من كتاب الطراز الأول في الأدب العربي، وخليفة الجاحظ في سعة المعرفة وتعدد ألوان الثقافة وامتلاك ناصية البيان، وامتداد النفس في الكتابة وربما كانت تنقصه فكاهة الجاحظ ومرحه

وخفة روحه، ولكن ربما كان يمتاز عنه كذلك بأنه يتناول المسائل تناولاً جدياً، ويكتب عن عقيدة وصدق سريرة، فهو لايريد أن يظهر براعته وألمعيته في القدرة على إثبات الشيء ونفيه أو ذمه وحمده، والتلاعب بعقول قرائه، والعبث بأفهامهم، وإنما يستغل بلاغته وقوة بيانه في عرض وجهة نظره. والمصارحة بما يعتقد حقاً.. وكان كاتباً فلسفي النزعة، دقيق التفكير واسع المعرفة، جم الإحاطة».

ولقد أنجبت الحضارة الإسلامية مفكرين كباراً في ميدان علم التاريخ، ولم يكن أبو حيان التوحيدي سوى واحد منهم، والمشهود له أنه تفوق في علوم كثيرة على علماء عصره ومن بينها الفلسفة والأدب والتاريخ، علماً أنه آثر الكتابة في السير على جميع العلوم الأخرى. والجدير بالذكر أن كتاباته تميزت بالدقة والوضوح والأمانة العلمية، حيث لم ينسب لنفسه شيئاً قاله غيره، بل كل شيء نقله في مصنفاته يرجعه إلى مصدر وينوه عنه، عرف بين زملائه بصدق الحكم والقدرة العجيبة على تمييز الدلائل وتقويمها، والثابت أن أبا حيان التوحيدي كان يهوى البحث والمناقشة في كل من العلوم الرياضية والفلسفة والأدب والتاريخ، لذا أصبح من أفذاذ مفكري الإسلام.

كان أبوحيان التوحيدي مثالاً للفكر العلمي الذي يستند على المقارنة بين المعطيات المختلفة، لذا حسم كثيراً من الخلافات الأدبية والتاريخية التي كانت تخضع للقياسات العلمية، ومن المؤلم حقاً أن هذه العقلية الجبارة أودت بصاحبها إلى الحزن واليأس في آخر أيام حياته، فقد أحرق كتبه لاعتقاده أن الناس جحدوا فضله، حيث كان يعيش حياة شاقة وضيقة جداً، والله المستعان.

عبد الملك الثعالبي

هو **عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري**، كنيته **أبو منصور**، ولقبه **الثعالبي** لأنه في بداية حياته كان يصنع من جلود الثعالب فراء، لهذا السبب نسبوه إلى مهنته. ولد في نيسابور سنة (٣٥٠ هجرية) وتوفي فيها عام (٤٢٩ هجرية)، لذا يعتبره المؤرخون من أهل نيسابور الأصليين، تلقى تعليمه على كبار المفكرين في العالم الإسلامي حينئذ، وذلك بتوجيه من أبي المظفر نصر شقيق السلطان الغزنوي الذي كان يجل العلماء كثيراً ويحب مجالستهم والتحدث إليهم، وعليه نبغ أبو منصور عبد الملك الثعالبي ليس فقط في علم التاريخ ولكن في كل من الأدب (نثراً ونظماً) واللغة العربية بفنونها المختلفة، كما عني عناية كبيرة بألقاب الشعراء العرب، وذلك عن طريق الكتب القديمة النادرة، مما قاده في النهاية إلى تصنيف الكتب الكثيرة المتميزة التي بقيت ذخيرة قيمة وممتعة للباحثين في مجالي العلوم التاريخية واللغة العربية.

ولقد كسب أبو منصور عبد الملك الثعالبي عن طريق كتابه الشهير: «الغرر في سير الملوك وأخبارهم» سمعة عالية لاحتوائه على المادة التاريخية الفريدة المتعلقة بكل من حكم الخلفاء وأخبار المشرق، لهذا اعتمد عليه معظم المؤرخين للعالم الإسلامي في بحوثهم التاريخية. والحقيقة أن هذا الكتاب يُعتبر كتاباً في التاريخ العام يشبه في مجمله كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه. ولكن للأسف الشديد لم يبق لنا من هذا الكتاب إلا نتف قليلة جداً موزعة في مكتبات العالم مثل كل من المكتبة السليمانية في إستنامبول، والمكتبة الوطنية في باريس ومكتبة البودليان في أكسفورد وغيرها.

وقام المستشرق زوتنبرج (ZOTENBERG) في نشر الجزء الأول من كتاب «الغرر في سير الملوك وأخبارهم» المكون من أربعة أجزاء، مع ترجمة إلى اللغة

الفرنسية ومقدمة جيدة عن المؤلف، توحي بمكانته العلمية التي احتلها بين المؤرخين في المعمورة. كما أعيد طبع الجزء الأول من الكتاب المذكور في طهران عام (١٣٨٢ هجرية) لاحتوائه على معلومات قيمة وفريدة عن تاريخ الفرس. أما الأجزاء الأخرى من الكتاب فلم يعرف حتى الآن بالضبط أين توجد؟.

ويصف **فرانزروزنتال** في كتابه آنف الذكر أبا منصور عبد الملك الثعالبي بقوله: «فقد اعتمد الثعالبي بالدرجة الأولى على الطبري عند بحثه تاريخ الإسلام إلى زمن العباسيين، إلا أنه ترك التنظيم الحولي، واتبع التقسيم حسب حكم الخلفاء، مع إضافة تقسيمات جزئية خصصها لبحث الوزراء وبعض كبار القصر، أما الأخبار المتعلقة بالمشرق فهي متماسكة وطريفة، ويتجلى من عنوان الكتاب اهتمام المؤلف بالأمور الثقافية التي تطغى على تاريخ ما قبل الإسلام، وقد سجل بدقة حكم الخلفاء».

ولقد خلف أبو منصور عبد الملك الثعالبي مؤلفات عديدة ومتنوعة، تناقلها المؤرخون في مؤلفاتهم ومنها: أحاسن المحاسن في المحاضرات، وإعجاز الإيجاز، والأنوار البهية في تعريف مقامات فصحاء البرية، وجواهر الحكم، والمؤنس الوحيد ونزهة المستفيد، والنهاية في الكناية (الكناية والتعريض)، وبرد الأكباد عند فقد الأولاد، والتمثيل والحضارة، وسحر البلاغة وسر البراعة، وسر الأدب في مجاري كلام العرب، وغرر البلاغة، وتراجم شعراء عصره، ويتيمة الدهر، ونثر النظم وحل العقد، وثمار القلوب في المضاف والمنسوب، والكشف والبيان، واللآلي والدرر (أحسن ما سمعت نظماً ونثراً)، ولطائف المعارف في الأدب، ومرآة المروءات، وتحفة الوزراء، ومكارم الأخلاق، والمنهج، وفقه اللغة، وما جرى بين المتنبي وسيف الدولة، والفوائد والقلائد (الأمثال)، ويتيمة اليتيمة (تراجم) وغيرها.

وخلاصة القول: لم يتأثر أبو منصور عبد الملك الثعالبي كثيراً في منهج المدرسة الفارسية التي كانت تتميز في كل من المحافظة على الأفكار الإقليمية

العقيمة، والربط بين التنجيم والأحداث التاريخية والتفاخر بأخبار قدمائهم، والعناية التامة في الملاحم الشعرية والتغني في ملوكهم وسلاطينهم، والإصرار القوي على استخدام اللغة الفارسية في جميع بحوثهم، إلا أن أبا منصور عبد الملك الثعالبي تبنى بعض أفكار المدرسة الفارسية التي لا تتعارض مع كل من مبادىء العقيدة الإسلامية وعادات العرب وتقاليدهم الرائعة واستعمال اللغة العربية (لغة القرآن الكريم والمصطفى محمد ﷺ)، والثابت أن عبد الملك الثعالبي اعتمد كثيراً في بحوثه التاريخية على إنتاج المؤرخ الإسلامي الكبير محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠ هجرية).

ولأبي منصور عبد الملك الثعالبي في كل فن من فنون المعرفة منهجاً واضحاً وأقوالاً وأفكاراً أصيلة، استشهد بها علماء العرب والمسلمين في بحوثهم التاريخية واللغوية، وله أيضاً تحليلات تاريخية رائعة تختلف عن الذي توصل إليها معاصروه، وهذا بدون شك يدل على خصب ملكاته وسعة ثقافته في مجال علم التاريخ. كما ذاع صيته بين زملائه لقدرته الفائقة على النفوذ في الحقائق العلمية وبلورتها للباحثين، ولأمانته العلمية، ولآرائه الجريئة. وكل هذه النعوت تظهر واضحة في المقدمة التي كتبها عنه المستشرق زوتنبرج في الجزء الأول من كتابه «الغرر في سير الملوك وأخبارهم» والتي نوهنا عنها عندما تحدثنا عن قيمة الكتاب في هذه الترجمة الموجزة.

والحقيقة أن عناية أبي منصور عبد الملك الثعالبي في حقل علم التاريخ لا تقاس في شيء إلا في اهتمامه بالأدب العربي، حيث كان مقبلاً بكل همة على التعمق في دراسة كل من علم التاريخ والأدب العربي، لذا كانت له مؤلفات قيمة صاغها صياغة علمية متقنة، واستخدم فيها المراجع العلمية التي اعتمد عليها أئمة مدارس علم التاريخ في المعمورة. وهكذا يقف أبو منصور عبد الملك الثعالبي عملاقاً بين المؤرخين في العالم.

علي بن حزم الأندلسي

هو **علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي** يكنى **بأبي محمد**، ويلقب **بابن حزم الظاهري**، ولد بمدينة قرطبة سنة (٣٨٤ هجرية). وتوفي منفياً في بادية لبلة التي تقع في غرب الأندلس عن عمر يناهز اثنين وسبعين عاماً. نما وترعرع في بيت علم وفضل، فوالده أحمد من أعيان مدينة قرطبة ومن كبار وزراء الخليفة الأموي المنصور محمد بن أبي عامر، لذا يتضح للقارىء أن أسرته عريقة النسب. تلقى تعليمه على كبار المفكرين بمدينة قرطبة حينئذ. ونبغ في كل من علم التاريخ والفلسفة والأدب والشعر والفقه. والجدير بالذكر أن علامات الذكاء كانت تبدو واضحة عليه في طفولته، حفظ القرآن الكريم وبرز في الشعر والنثر في ريعان شبابه، وتفرغ للكتابة والقراءة وطلب العلم حتى ذاعت شهرته في جميع أرجاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً. والمعروف عنه الشدة والصرامة والصراحة والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث (أي من أنصار مذهب محمد بن داود الظاهري) وعاش أبو محمد بن حزم الأندلسي في فترة من الزمن كان الصراع السياسي على أشده في شبه جزيرة الأندلس، لأن حكم الأمويين هناك كان يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وينقل شمس **الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر بعض أقوال العلماء المسلمين حول العلامة أبي محمد بن حزم الأندلسي ومنها على سبيل المثال لا الحصر: قال أبو حامد الغزالي: «وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه». وقال **أبو قاسم صاعد بن أحمد**: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعة في علم اللسان، و وفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار. أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه أبي محمد من تواليفه أربع مئة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين

ألف ورقة». وقال **أبو عبد الله الحميدي** : «كان ابن حزم حافظاً للحديث وفقهه مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسُّنة متفنناً في علوم جمة عاملاً بعلمه. ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين. وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديه أسرع منه. وشعره كثير جمعته على حروف المعجم».

يُعتبر علي بن حزم الأندلسي عالم موسوعي جماع للعلوم، بل موسوعة علمية تمشي على قدمين، كما نبغ بكثير من الفنون والمعارف فهو علامة عصره ليس فقط في العلوم الشرعية، ولكن أيضاً في مجال علم التاريخ الإسلامي، وهذا يظهر واضحاً من مؤلفاته الكثيرة التي تمتاز بشمولها العام لميادين المعرفة. واشتهر أبو محمد ابن حزم الأندلسي ببعده كل البُعد عن المصانعة إلى درجة أنه يقال: «لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان».

ويتحدث **أبو محمد ابن حزم الأندلسي** عن نفسه فيقول في كتابه الشهير: «طوق الحمامة في الألفة والألاف» ما نصه: «وعني أخبرك أني جبلت على طبيعتين لا يهنأ لي معهما عيش أبداً وأني لأبرم بحياتي باجتماعهما، وأود التثبت من نفسي أحياناً؛ لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما وهما: وفاء لا يشوبه تلون قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر، تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما دريته، ولا تتطلع إن عدم من صحبته، وعزة نفس لا تقر على الضيم مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف، مؤثرة للموت عليه، فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها، وإني لأجفى فأحتمل، وأستعمل الأناة الطويلة، والتلوم الذي لا يكاد يطيقه أحد، فإذا أفرط الأمر، ومحيت نفسي، تصبرت، وفي القلب ما فيه».

كان أبو محمد ابن حزم الأندلسي جريئاً جداً في قول ما يعتقد أنه صحيح، وقد ساعده على هذا ثقافته العالية، ولذا عمل له منهجاً مرسوماً في جميع كتاباته. كما أن له باع طويل في الشعر، وأصبح الكثير من معاصريه

يحفظون أشعاره لأهميته وقيمتها الأدبية. وقد ذكر **أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال** في كتابه «كتاب الصلة» ـ القسم الثاني ـ أبياتاً لأبي محمد ابن حزم الأندلسي تدل على مقدرته الشعرية المرموقة وهي:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة ... توالت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف ... نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة ... وفات الذي كنا نلذ به عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى ... وغم لما يرجى فعيشك لا هنا
كأن الذي كنا نسر بكونه ... ذا حققته النفس لفظ بلا معنى

وله:

منأى من الدنيا علوم أبثها ... وأنشرها في كل برد وحاضر
دعاء إلى القرآن والسنني التي ... تناسى رجال ذكرها في المحاضر

كثرت خصوم أبي محمد ابن حزم الأندلسي بسبب أفكاره المذهبية، لذا غضب عليه المعتضد بن عباد وأحرق كتبه بإشبيلة، وحورب اجتماعياً مما دعاه إلى اللجوء إلى بادية لبلة التي توفي بها، ولكنه أصر على أن يسير في طريقه أمام الحرب الضروس.

وينقل **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر شعره الذي يصف الموقف:

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويُدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

obeikandi.com

وإلا فعـــودوا في المكـــاتب بـــدأة　　فكـم دون مـا تبغـون لله مـن سـتر

وله أيضاً:

كـأنك بـالزوار لي قـد تبـادروا　　وقيـل لهـم أودى علـي بـن أحمـد

فيـارب محـزون هنـاك وضـاحك　　وكـم أدمـع تـذرى وخـد مخـدد

عفـا الله عـني يـوم أرحـل ظاعنًـا　　عن الأهل محمولاً إلى ضيـق ملحـد

وأتـرك مـا قـد كنـت مغتبطـاً بـه　　وألقـى الـذي آنسـت منـه بمرصـد

فواراحـتي إن كـان زادي مقدمـاً　　ويـا نصـبي إن كنـت لم أتـزود

ابتعد البعض عن أبي محمد ابن حزم الأندلسي ، ولم يبق حوله إلا طلابه الذين كانوا يتلقون العلم على يده، وعليه كانوا يسمعون الكثير جداً من أحاديثه عن نفسه والتي دوّنها في كتابه المشهور: «طوق الحمامة في الألفة والألاف» ومنها كان يعرض لطلابه الأزمات التي حصلت له. وينقل أحمد بن محمد المقري التلمساني في كتابه «نفح الطيب» ـ الجزء الثاني ـ ما كان يردده دائماً أبو محمد ابن حزم الأندلسي على طلابه مثل: قوله تبارك وتعالى: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف:١٩٩] وقول صفوة الخلق رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ : «وصل من قطعك، واعف عمن ظلمك». وقول الحكماء الأوائل: «كفاك انتصاراً ممن تعرض لآذاك إعراضك عنه» ثم شعره:

تتبـع سـواي امـرأً يبتغـي　　سـبابك إن هـواك السـباب

فـإني أبيـت طـلاب السـفاه　　وصنـت محلـي عمـا يعـاب

وقـل مـا بـدا لـك مـن بعـد ذا　　وأكـثر فـإن سـكوتي خطـاب

ولأبي محمد ابن حزم الأندلسي إنجازات علمية رائعة في حقل علم التاريخ ومنها على سبيل المثال لا الحصر: كتاب جوامع السير الذي يحتوي

obeikandi.com

على موجز للسيرة النبوية، وكتاب جمهرة الأنساب الذي يشتمل على معلومات مختصرة عن أنساب العرب وبني إسرائيل وملوك فارس، وله كتاب صغير سماه (نقط العروس) خصصه لأخبار الخلفاء ونظام الحكم في العصور الإسلامية المزدهرة، أما إسهاماته العلمية الأخرى فكثيرة جداً ومنها: كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل، وكتاب التقريب في المنطق، وكتاب الالتباس فيما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس، وكتاب الإيصال، وكتاب حجة الوداع، وكتاب مداواة النفس، وكتاب مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض، وكتاب الفصل بين أهل الآراء والنحل (في علم الجدل)، وكتاب الإحكام في أصول الأحكام، وكتاب المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاختصار، وكتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف، وكتاب في الإجماع ومسائله على أبواب الفقه وغيرها مما ذكره المؤرخون مثل حاجي خليفة في كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، وأبي العباس شمس الدين أحمد بن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» ــ المجلد الثالث ــ وعمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين» ـ الجزء السابع ـ وغيرهم.

بذل أهل الفضل والخير المعاصرون لأبي محمد ابن حزم الأندلسي جهوداً عظيمة لنصحه أن يخفف، بل أن يعدل عن الجدل الساخن مع الفقهاء المعروفين حينئذ؛ لأن موقفه الشديد خلق له أعداء لم يستطع أبداً أن يصمد أمامهم. والمتواتر أن مقاصد أبي محمد ابن حزم الأندلسي كانت نزيهة وصالحة، لذا دوّن شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي في كتابه آنف الذكر الوضع في أبيات من الشعر قالها الشاعر الملهم علي بن حزم الأندلسي وهي:

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت   أقوالهم وأقاويل الورى محن

فقلت: هل عيبهم لي غير أني لا   أقول بالرأي إذ في رأيهم فتن

وإنـي مولـع بـالنص لسـت إلى سـواه أنحـو ولا في نصـره أهـن

لا أنثـي لمقـاييس يقـال بهـا في الدين بل حسبي القرآن والسُّنن

يابرد ذا القـول في قلبي وفي كبدي وياسـروري بـه لـو أنهـم فطنـوا

دعهم يعضوا على صم الحصى كمداً من مات من قوله عندي له كفن

خلاصة القـول: اهتـم مؤرخـو العـرب والمسلمين الأوائـل بعلـم المنطق وبلوروا خصائصه واعتبروه علمـاً مفيـداً لحـل المستصعب وتبسيط العويص وترتيب الأفكار والعناية بسلامة المعنى واستقامته أمـام القـارىء اللبيـب، لـذا سخروا بجدارة علم المنطق ليخدم مواهبهم وخبراتهم العلمية في كتابـة تـاريخ الأمة العربية والإسلامية، وعليه عني أبو محمد ابن حزم الأندلسي بعلم المنطق عناية عظيمة، وتفوق به على معاصريه، ومما لا شك فيه أن علم المنطق ساعد ابن حزم للانصـراف إلى جـد الحيـاة وتنميـة الوعـي الاجتمـاعي والعلمـي عنـد طلابه آنذاك.

ونشأ أبو محمد علي بن حزم الأندلسي في بيئة علم وثراء، ولكـن هـذا لم يؤثر على حياته أبداً، بل أتعـب نفسـه في البحـث والدراسـة والاستقصاء في عدد كبير جداً من الفنون والمعارف، حتى أصبح قـوي النفـس وحـاد الذهـن وغزير العلم، كان من المغرمين بالمناظرة العلمية الطاهرة، ليس للمتعة والـترف والشهرة ولكن للعلم والبحث عن الحقيقة. والجديـر بـالذكر أنـه كـان يحب الصراع السياسي والاجتمـاعي في صغـره عندمـا كـان يشـغل منصـب وزيـر للدولة في الأندلس، وانتقل هذا إلى حقل العلم، فقد أقام الحجـة النـافذة علـى اليهود والنصارى لتغييرهم في كل من التوراة والإنجيل، وبقيت آراؤه يتداولهـا طلاب العلم في المعمورة عبر العصور لصحتها ودقتهـا ووضوحهـا. كمـا ذاع صيته بين معاصريه لبلاغته وحسن محاضراته وسعة اطلاعه ومتانة خلقه.

obeikandi.com

صاعد الأندلسي

هو **صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن التغلبي الأندلسي**، كنيته **أبو القاسم**، ويلقب **بالتغلبي** لأنه من قبيلة تغلب، حيث جاءت عائلته إلى الأندلس من المشرق أيام الفتح الإسلامي، ويعرف أحياناً بالقرطبي لأن عائلته الكريمة استوطنت مدينة قرطبة العامرة. ولد في المرية سنة (٤٢٠ هجرية)، ولكنه نما وترعرع في مدينة قرطبة، وتلقى معظم تعليمه فيها، ولكنه أكمله في مدينة طليطلة، ذاع صيته ليس فقط في علم التاريخ والعلوم الشرعية، ولكن في سائر العلوم، لذا أسند إليه حاكم طليطلة يحيى بن ذي النون القضاء فأعطي اسم قاضي طليطلة التي توفي فيها وهو قاض عليها سنة (٤٦٢ هجرية)، ولا يخفى على القارىء أن أبا القاسم صاعد الأندلسي قد أتى من عائلة عريقة، فكان جده من علماء الأندلس، أما والده فقد تولى مركزاً قيادياً في حكومة قرطبة، لذا سهل عليه التنقل في البلاد الأندلسية في ريعان شبابه باحثاً عن العلماء الكبار، فالتقى بأبي محمد علي بن حزم وتتلمذ عليه، فأصبح من أصحاب الدراية والذكاء الخارق.

وكتب أبو القاسم صاعد الأندلسي كتاباً قيماً محبوكاً بالإيجاز بعنوان: «طبقات الأمم» قدم فيه وصفاً رائعاً ومتكاملاً للأمم المختلفة التي اهتمت بالمعارف بفروعها، ويظهر ذلك واضحاً وجلياً فيما ذكره المحقق لهذا الكتاب حياة بوعلوان في مقدمته، حيث عرض تقسيم طبقات الأمم أولاً: الفرس مملكة واحدة ولسانها واحد فارسي، ثانياً: الكلدانيون وهم السريانيون والبابليون والكربانيون والأموريون، والجرامقة وهم أهل الموصل، والنبط وهم أهل سواد العراق. وثالثاً: اليونانيون والروم والإفرنجة والجلالقة وبرجان والصقالبة والروس والبرغر واللان وغيرها من الأمم، ورابعاً: القبط وهم أهل مصر وأهل الجنوب أصناف الوديان من

الحبشة والزنج وغيرهم، وخامساً: أجناس الترك، وسادساً: الهند والسند ومن اتصل بهم. وسابعاً: الصين كل أمة من تلك الأمم لها مملكة واحدة ولغة واحدة وهي محيطة بجميع البشر وديانتها صائبة، افترقت تلك الأمم السبع وتشعبت لغاتها وتباينت أديانها، فوجدها صاعد الأندلسي تنقسم إلى طبقتين، طبقة عنيت بالعلوم وطبقة لم تعن بها، الطبقة التي انكبت على العلوم ثمان وهي مميزة بالنسبة لصاعد الأندلسي، هم: أهل الهند والفرس والكلدان واليونان والروم وأهل مصر والعرب والعبرانيون، أما الطبقة التي لم تعن بالعلم فهي بقية الأمم بعد التي ذكرها صاعد الأندلسي وهؤلاء هم أشبه بالبهائم منهم بالناس.

ويمتدح **صالح أحمد العلي** كتاب «طبقات الأمم» لأبي القاسم صاعد الأندلسي في كتاب «العلوم عند العرب»بقوله: «ألف صاعد بن أحمد الأندلسي كتاب طبقات الأمم وهو كتاب صغير الحجم ولكنه ذو قيمة كبيرة لما حواه من معلومات غنية، وملاحظات ذكية وأحكام رصينة ونظرة شاملة، فقد تحدث فيه عن الأمم القديمة واختلافها في مدى العناية بالعلوم، وأشار إلى الأمم التي لم تعن بالعلوم، ثم تحدث عن الأمم التي عنيت بالعلوم فذكر العلوم عند كل من الهند والفرس. والكلدان واليونان والروم وأهل مصر والعرب وبني إسرائيل. وكان كتاب صاعد الأندلسي معتمداً على عدد ممن ألف في تاريخ العلوم فأكثروا النقل عنه، وخاصة ابن أبي أصيبعة في كتاب: عيون الأنباء في طبقات الأطباء».

وخلاصة القول: استطاع المسلمون بحكمتهم وذكائهم أن يكونوا حكومة إسلامية أندلسية مستنيرة ومستقرة، فلسفتها التسامح الديني، لذا بنى العلماء المسلمون في الأندلس حضارة إسلامية نافست حضارات الدول الأوربية المعاصرة لها. وهذا كله ناتج على انتشار العلوم بين سكان الأندلس،

حيث تمسكوا وتعمقوا بمبادىء الثقافة الإسلامية، وعليه أقبل علماء المسلمين في الأندلس على التأليف، فكتبوا كلاً من تاريخ الأندلس وتاريخ الأديان وتاريخ العلوم وغيرها بطريقة ترفع الرأس وتخلق الثقة. من هنا اندفع ودخل أبو القاسم صاعد الأندلسي في المعمعة فركز على علم التاريخ، حيث أثرى الساحة الثقافية بأفكاره القيمة في هذا المجال الحيوي. والجدير بالذكر أن معظم المؤلفات الأندلسية كانت متأثرة بالمعارف الشرقية، حيث نقل علماء المسلمين في الأندلس جميع الأحداث والروايات التاريخية بصورة دقيقة ومحكمة متبعين بذلك منهج علماء المسلمين في المشرق.

ولأبي القاسم صاعد الأندلسي مؤلفات كثيرة تناقلها المؤرخون في العالم ومنها: جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم، وصوان الحكم في طبقات الحكماء، ومقالات أهل الملل والنحل، وإصلاح حركة النجوم، وتاريخ الأندلس، وتاريخ الإسلام، وتاريخ الأديان وغيرها. وقد بقيت هذه المؤلفات النادرة من المصادر الهامة جداً بل الضرورية للباحثين في وضع الأمم من حيث تمدنها وحال العلم فيها. والمتواتر أن أبا القاسم صاعد الأندلسي كان من المغرمين في علم الفلك وتاريخه، حيث أسهم إسهامات مرموقة تدل على طول باعه في هذا الميدان.

لقد أعطى المؤرخون للعلوم أبا القاسم صاعد الأندلسي بعض حقه من الذكر الحسن، فلم يحط به الغموض والإبهام كمعظم علماء العرب والمسلمين في هذا المجال الذين ذهبوا ضحية عدم المبالاة من أبناء جلدتهم والعداء الضروس من المستشرقين. والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أن الذي حفظ مكانة أبي القاسم صاعد الأندلسي العلمية كتابه «طبقات الأمم» الذي ظل من المصادر الضرورية للدارسين والباحثين عبر العصور ليس فقط في تاريخ العلوم ولكن في جميع فروع المعرفة.

ولا عجب أن يكون بعض المؤرخين المسلمين من المعجبين بأبي القاسم صاعد الأندلسي وذلك لاعترافهم البين بفضله وعلمه، كما ثبت أن أبا القاسم صاعد الأندلسي من جانبه كان يحب ويحترم ويقدر الأوساط المثقفة التي أكسبته القدرة العظيمة على جمع المعلومات المتنوعة من مصادرها الدولية، وهكذا يقف أبو القاسم صاعد الأندلسي عملاقاً بين علماء العرب والمسلمين الذين أثروا الحضارة العربية والإسلامية بإنتاجهم العلمي.

obeikandl.com

الخطيب البغدادي

هو **أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي**، ويكنى **بأبي بكر**، ويلقب **بالخطيب** لأن والده كان خطيباً بدريجان قرية من قرى بغداد، ولد سنة (٣٩٢ هجرية) بدريجان، ولكنه نما وترعرع في دار السلام (بغداد) وتلقى تعليمه على أيدي جهابذة الفكر هناك، فتفوق على زملائه في كل من الفقه والحديث والتاريخ، ولذا عرف بين معاصريه من العلماء الكبار بكل من العلامة المفتي، والإمام الأوحد، ومحدث زمانه. كان لديه ولع شديد منذ نعومة أظفاره بجمع المعارف من مصادرها المختلفة ليس فقط في علمي التاريخ والحديث ولكن أيضاً في سائر العلوم.

كان أبو بكر الخطيب البغدادي مؤرخاً لامعاً وعاشقاً لدراسته وبحوثه المتنوعة بحق، ويظهر ذلك واضحاً وجلياً في كتابه «تاريخ بغداد» المكون من أربعة عشر مجلداً والذي يحتوي على معلومات نادرة لا يستغني عنها الباحث اللبيب، وبه أثرى المكتبة الإسلامية. وقد تواتر أنه كان على جانب عظيم من الورع والتقوى والأمانة، لذا كان مدرسة لطلاب العلم على جميع المستويات. وقد استقر في آخر أيام حياته في مدينة بغداد التي توفي فيها سنة (٤٦٣ هجرية)، فحزن عليه طلاب العلم في جميع أرجاء العالم الإسلامي حزناً عظيماً.

يقول **أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان** في كتابه آنف الذكر: «الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي ابن ثابت البغدادي، المعروف بالخطيب البغدادي، صاحب (تاريخ بغداد) وغيره من المصنفات، كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين، ولو لم يكن له سوى (التاريخ) لكفاه، فإنه يدل على اطلاع عظيم، وصنف قريباً من مئة مصنف، وفضله أشهر من أن يوصف، وأخذ الفقه عن أبي الحسن المحاملي

opelkanlar.com

والقاضي أبي الطيب الطبري وغيرهما، وكان فقيهاً فغلب عليه الحديث والتاريخ... وتصدق بجميع ماله ... فرقها على أرباب الحديث والفقهاء والفقراء في مرضه، وأوصى أن يتصدق عنه بجميع ما عليه من الثياب، ووقف جميع كتبه على المسلمين، و لم يكن له عقب».

وثقافة أبي بكر الخطيب البغدادي الأدبية عالية جداً وكان يقرض الشعر، وقد خلف إنتاجاً رائعاً في هذا المجال الهام، ويذكر **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر بعض الأبيات ومنها:

قد شاب رأسي وقلبي ما يغيره ... كر الدهور عن الإسهاب في الغزل
وكم زماناً طويلاً ظلت أعذله ... فقال قولاً صحيحاً صادق المثل
حكم الهوى يترك الألباب حائرة ... ويورث الصب طول السقم والعلل
وحبك الشيء يعمي عن مقابحه ... ويمنع الأذن أن تصغي إلى العذل
لا أسمع العذل في ترك الصبا أبداً ... جهدي فما ذاك من همي ولا شغلي
من ادعى الحب لم تظهر دلائله ... فحبه كذب قول بلا عمل

وله أيضاً:

تغيب الخلق عن عيني سوى قمر ... حسبي من الخلق طراً ذلك القمر
محله في فؤادي قد تملكه ... وحاز روحي ومالي عنه مصطبر
فالشمس أقرب منه في تناولها ... وغاية الحظ منها للورى النظر
أردت تقبيله يوماً مخالسة ... فصار من خاطري في خده أثر
وكم حليم رآه ظنه ملكاً ... وراجع الفكر فيه أنه بشر

لقد كان جميع زملاء العلامة المفتي الناقد الخطيب البغدادي يعترفون بفضله ومكانته العلمية، لذا كان لإنتاجه العلمي أثر عظيم على دراساتهم

obeikandi.com

وبحوثهم وقد أورد الامام الحافظ المؤرخ **ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر** في كتابه «تهذيب تاريخ دمشق الكبير» ـ الجزء الأول ـ مدح أبي الخطاب بن الجراح المقرىء لأبي بكر الخطيب البغدادي:

فاق الخطيب الورى صدقاً ومعرفة ... وأعجز الناس في تصنيفه الكتبا
حمى الشريعة من غاو يدنسها ... بوضعه ونفى التدليس والكذبا
جلا محاسن بغداد فأودعها ... تاريخه مخلصاً لله محتسبا
وقال في الناس بالقسطاس منزوياً ... عن الهوى وأزال الشك والريبا
سقى ثراك أبا بكر على ظمأ ... جون ركام يسح الواكف السربا
ونلت فوزاً ورضواناً ومغفرة ... إذا تحقق وعد الله واقتربا
يا أحمد بن علي طبت مضطجعاً ... وباء شانيك بالأوزار محتقبا

وبقيت أفكار وتأملات أبي بكر الخطيب البغدادي يتناقلها الشعراء والمؤرخون إلى يومنا هذا، وذلك لأنه كرس جهده ووقته لجمع وتحليل الآراء والظواهر العلمية بكل أمانة ونزاهة، لذا بات في طليعة العلماء الذين خدموا الحضارة الإسلامية، ويتناقل المؤرخون في كتبهم أن بعض زملاء الخطيب البغدادي يروون عنه أنه لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات، وسأل الله ثلاث حاجات: أن يحدث بـ «تاريخ بغداد» بها، وأن يملي الحديث بجامع المنصور، وأن يدفن عند بشر الحافي، فقضيت له الثلاث.

كان أبو بكر الخطيب البغدادي حاد الذكاء، لذا سئم من السماع لما يتحدث عنه بعض العلماء الذين يعيشون حوله، مما اضطره إلى التنقل بين كل من البصرة ونيسابور وأصبهان وهمذان والشام (دمشق وصور وطرابلس وحلب) ومكة المكرمة والمدينة المنورة للدراسة والبحث والاستقصاء عن

obeikandi.com

طريق لقاءاته الكثيرة مع كبار المفكرين وزياراته المتكررة للمكتبات المشهورة في هذه المدن التي تعتبر مراكز للعلوم آنذاك.

وعندما تقدم أبو بكر الخطيب البغدادي بالسن قرر أن يستقر ويستوطن مدينة بغداد؛ لكي يتفرغ لكل من التأليف وتدريس طلابه وخدمة الوزير أبي القاسم بن مسلمة وزير الخليفة العباسي القائم بأمر الله الذي جعل منه المرجع الأخير لكل من الأمور الشرعية والتاريخية. وتبلور ذلك بكل وضوح قصة اليهود الذين كانوا يدفعون الجزية للمسلمين ثم ادعوا كذباً أن صفوة الخلق رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ أسقطها عنهم.

والقصة حول موضوع الجزية التي كان يدفعها اليهود للمسلمين، ينقلها **صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي** في كتابه آنف الذكر: «وكان بعض اليهود قد أظهر في بغداد كتاباً وادعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر وفيه شهادات الصحابة، وأنه خط علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فعرضه رئيس الرؤساء (أبو القاسم ابن مسلمة وزير الخليفة العباسي القائم بأمر الله) على الخطيب البغدادي فقال: هذا مزور، فقيل له: من أين لك ذلك؟ قال: في الكتاب شهادة معاوية بن أبي سفيان، ومعاوية أسلم يوم الفتح، وخيبر كانت في سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ وكان قد مات ليوم الخندق في سنة خمس، فاستحسن ذلك منه، وتقدم رئيس الرؤساء إلى القصاص والوعاظ أن لا يورد أحد حديثاً عن رسول الله ﷺ حتى يعرضه على الخطيب البغدادي، فما أمرهم بإيراده أوردوه وما منعهم منه ألغوه».

أبرز أبو بكر الخطيب البغدادي في مؤلفاته المختلفة والكثيرة نبوغه الذي لا يماري فيه أحد، حيث صار العلماء الكبار في العالم الإسلامي يرجعون إلى كتبه في جميع العلوم وخاصة في علم التاريخ بلا منازع. والقارىء يمكن له أن يعرف بجلاء الحقيقة من الأبيات الشعرية التي قالها أبو طاهر أحمد بن محمد بن

أحمد السِّلفي الحافظ الأصبهاني الذي يمتدح مؤلفات أبي بكر الخطيب البغدادي، وقد نقلها ياقوت الحموي في كتابه آنف الذكر وهي:

تصانيف ابن ثابت الخطيب ... ألذ من الصبا الغصن الرطيب

تراها إذ حواها من رواها ... رياضاً للفتى اليقظ اللبيب

ويأخذ حسن ماقد صاغ منها ... بقلب الحافظ الفطن الأريب

فأية راحة ونعيم عيش ... يوازي كتبه بل أي طيب

وذكر **إسماعيل باشا البغدادي** في كتابه «هدية العارفين»: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ـ الجزء الأول ـ بعض مؤلفات العلامة الناقد أبو بكر الخطيب البغدادي وهي: كتاب تاريخ بغداد، وكتاب اقتضاء العلم والعمل، وكتاب التبيين لأسماء المدلسين، وكتاب التفصيل لمبهم المراسيل، وكتاب تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن نوادر الصحف والوهم، وكتاب التنبيه والتوقيف على فضائل الخريف، وكتاب الجامع لأخلاق الراوي والسامع في قواعد أصول الحديث، وكتاب الدلائل والشواهد على صحة العمل باليمن والشاهد، وكتاب رافع الارتياب في القلوب من الأسماء والألقاب، وكتاب روايات الصحابة من التابعين، وكتاب رواية الآباء عن الأبناء، وكتاب السابق واللاحق في تفسير القرآن الكريم، وكتاب شرف أصحاب الحديث، وكتاب صلاة التسبيح، وكتاب غنية المقتبس في تفسير الملتبس، وكتاب الفصل والوصل، وكتاب الفقه والمتفقه، وكتاب الإجازة للمعدوم والمجهول، وكتاب الاحتجاج للشافعي، وكتاب البخلاء، وكتاب الرحلة في طلب الحديث، وكتاب الرواة عن مالك بن أنس، وكتاب الطفيليين، وكتاب القنوت، وكتاب من حدث فنسي، وكتاب من وافق كنيته اسم أبيه، وكتاب النهي عن صوم يوم الشك، وكتاب كشف الأسرار، وكتاب الكفاية في معرفة أصول علم

openkandil.com

الرماية، وكتاب المتفق والمفترق، وكتاب المكمل في بيان المهمل، وكتاب موضح أوهام الجمع والتفرق، وكتاب المؤتلف تكملة المختلف، وكتاب نهج الصواب في التسمية من خاتمة الكتاب، وغير ذلك.

وخلاصة القول: عرف الوزير أبو القاسم بن مسلمة بفراسته السياسية ودهائه وحكمته وإخلاصه للخليفة العباسي القائم بأمر الله، لذا اختار الخطيب البغدادي أن يكون مستشاراً خاصاً له لمكانته العلمية التي كان يحتلها بين زملائه. والجدير ذكره أن الحافظ الناقد الخطيب البغدادي لم يتردد بقبول المهنة العظيمة التي أسندت إليه؛ لأنه كان حريصاً كل الحرص على أن يحصل على المعلومات التاريخية الأصيلة؛ لأنه ليس هناك أسرع وأسهل من التوصل إليها عبر القنوات الحكومية الرسمية، فمثلاً عندما يقوم الباحث بزيارة رسمية لبلد ما يستطيع أن يجمع ما يريده من وثائق حكومية وغيرها.

ولقد حاز أبو بكر أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي على شهرة عظيمة جداً نتيجة انتشار كتابه «تاريخ بغداد» الذي يشتمل على تراجم رجال العلم الذين عاشوا في دار السلام (بغداد) أوزاروها. وللمعلومة فإن مدينة بغداد كانت مركز الإشعاع العلمي في العصر العباسي، لذا معظم علماء المسلمين البارزين كانوا يقطنونها أو يزورونها من وقت لآخر. ولاشك أن أبا بكر الخطيب البغدادي بذل جهداً كبيراً في إتمام سير العلماء والرجال المعروفين في الحضارة الإسلامية العريقة باستخدام المراجع القوية والموثقة، لذا صار منهجه الذي طبقه على مؤلفه المذكور أعلاه قنديلاً بل نموذجاً للمؤلفين التابعين له في مجال علم التاريخ عبر العصور الطويلة.

استطاع أبو بكر الخطيب البغدادي بمؤلفاته العديدة أن يسهم إسهاماً جليلاً في الكشف عن أفكار ونظريات بعض علماء المسلمين الذين أحاط بهم الغموض والإبهام. ولاشك أن كتابه «تاريخ بغداد» هو الذي بلور أصالة تفكيره وعلو كعبه، ولحسن الحظ أنه طبع في القاهرة سنة (١٣٥٠ هجرية)،

وأعادت طبعه دار الكتب العلمية في بيروت سنة (١٣٨٥ هجرية). وعليه صار منتشراً في المكتبات الإسلامية، ولا يزال هذا الكتاب النادر حتى الآن معيناً لا ينضب للباحثين في سير أعلام الحضارة الإسلامية.

obeikandl.com

ابن حيان القرطبي

هو **حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي**، يكنى **بأبي مروان**، ويلقب **بالقرطبي**، ولد في قرطبة سنة (٣٧٧ هجرية) وتوفي هناك عام (٤٦٩ هجرية)، نما وترعرع في بيت أسرة عريقة، فجده من الأصدقاء المقربين للأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف باسم الداخل المؤسس للدولة الأموية في الأندلس. والمتواتر أن معظم أفراد عائلته كانت لهم صلة قوية بحكام الأندلس آنذاك. وتلقى تعليمه على جهابذة العلم في قرطبة فنبغ في أغلب فروع المعرفة، ولكنه حاز على مكانة مرموقة بين زملائه لفصاحته وبيانه وبلاغته ولأعماله العلمية في مجال علم التاريخ والأدب العربي، ويعتبر بحق حجة في كل من علم التاريخ والأدب العربي. وكما يشهد له بالدقة المتناهية في القول، فهو لا يتكلم عن شيء لا يعتقد أنه صدق ولو اجتمع الناس على صحته جميعاً. ويذكر **أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي** في كتابه «البداية والنهاية» ـ الجزء الثاني عشر ـ أن أبا علي الغساني قد أثنى عليه في فصاحته وصدقه وبلاغته. أما **أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد بن خلكان** فيقول في كتابه آنف الذكر: «كان أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان عالي السن (الهمة) قوي المعرفة متبحراً في الأدب بارعاً فيه، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه وأحسنهم نظماً له». وهكذا يقف أبو مروان ابن حيان القرطبي شامخ الرأس بين المؤرخين ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن في المعمورة.

يقول **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر: «اعتنى خلف والد ابن حيان القرطبي بتنشئة نجله، وتمكينه من أن يحصل العلم من أوثق مصادره، وأحسن مظانه، وسرعان ما ظهرت بوادر نبوغ ابن حيان، وتجلت مواهبه واستعداداته، وبذ زملاءه وأنداده حتى أصبح فيما بعد شيخ مؤرخي الأندلس

عن جدارة واستحقاق، ولا خلاف في أن والده خلف كان رجلاً كثير التجارب واسع الخبرة بالحياة؛ لأن طبيعة وظيفته كانت تستلزم منه معرفة واقعية للمجتمع الذي يعيش فيه والناس الذين يتعامل معهم، وكان على صلة واحتكاك بالطبقات الاجتماعية كلها، وكان على علم تام بأغراض الوزير الطموح وزير هشام الثاني وأهدافه البعيدة، كما كان على علم بأحوال الممالك المسيحية التي أخافتها انتصارات الوزير العبقري المجاهد الذي حملت غزواته النار والدمار إلى ديارهم، وكان خلف يعيش في بلاط يقدر العلم والأدب، ويعني بتشجيعهما والأخذ بأيدي أصحابها، فغير عجيب أن يجد خلف نفسه مدفوعاً إلى إجادة تثقيف ابنه، وإمداده بطائفة من المعلومات التاريخية الحقيقية والأخبار المؤكدة، وقد انتفع ابنه إلى أقصى حد بهذه الذخيرة النفيسة وضمنها كتبه ومؤلفاته».

استطاع عرب ومسلمو الأندلس أن يشيدوا المساجد والقصور والحدائق والقلاع في مدينة قرطبة؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الفن المعماري له مدلوله الثقافي والاجتماعي. كما أدركوا تماماً أن العناية بالعمارة العربية والإسلامية معناها العناية بالماضي الذي يوجه الحاضر إلى المستقبل المشرق. وعليه يعتبر الفن المعماري بشهادة أبي مروان ابن حيان القرطبي أعظم الفنون التي أنتجتها الحضارة العربية والإسلامية، والحقيقة التي يجب ذكرها هنا أن دقة وروعة العمارة العربية والإسلامية تظهر واضحة في العمارة العربية والإسلامية في المساجد.

وينقل **الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر أن أبا مروان بن حيان القرطبي قال: «وحين فتح المسلمون قرطبة شاطروا أهلها كنيستهم العظمى، كما فعل أبو عبيدة وخالد بأعاجم دمشق، فابتنوا فيها مسجداً، وبقي الشطر بأيدي الروم إلى أن كثرت عمارة قرطبة، وتداولتها بعوث العرب، فضاق المسجد، وعلق منه سقائف، وصار الناس ينالون مشقة لقصر السقائف إلى أن أذخر الله فيه الأجر لصحيفة الداخل، وابتاع الشطر الثاني من النصارى بمئة ألف دينار، وقبضوا على ملأ من الناس».

وخلاصة القول: حاول مؤرخو العرب والمسلمين الأوائل أن يجمعوا معارفهم التاريخية بطريقة أدبية بليغة، لكي يستقطبوا القراء المثقفين لدراستها واستذكارها وعرضها على طلاب العلم، حيث إن طلاب العلم بدورهم يدونون ما يسمعون ويقرؤون لتتناقله الأجيال اللاحقة. من هنا استطاع أبو مروان بن حيان القرطبي أن يسجل معلومات تاريخية على مستوى رفيع جداً وبأسلوب سلس، بهذا تمكن أن يصنف الحياة الاجتماعية والسياسية والمذهبية الدينية والقبلية في الأندلس، علماً بأن الاتجاه القبلي كان لديه ضعيفاً؛ لأنه يرى عدم أهميته. والحقيقة أن ابن حيان القرطبي استفاد من القصص الشائعة والشعر والأدب في جمع مادته التاريخية، لذا صارت مؤلفاته من المصادر الضرورية للباحث في حقل علم التاريخ الإسلامي في الأندلس. كما طور التاريخ الإسلامي كعلم، وبهذا بلور الفكرة التاريخية الإسلامية على شكل لم يتغير على مر العصور الطويلة إلا في التفاصيل المحدودة.

وإن إنتاج أبي مروان بن حيان القرطبي في ميدان علم التاريخ عظيم جداً، وهذا يتضح من مؤلفاته العديدة التي في مقدمتها كتاب (المقتبس في تاريخ الأندلس ـ في عشر مجلدات) وكتاب (المتين في تاريخ الأندلس ـ في ستين مجلداً) وكتاب (في تراجم الصحابة). والجدير بالذكر أن الكثير من المؤرخين يخطئون باسم كتاب المتين في تاريخ الأندلس، ويكتبونه كتاب المبين في تاريخ الأندلسي، وعلى رأسهم المؤرخ الشهير مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي، حيث يظهر ذلك في كتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» (المجلد الثاني). والمعروف أن صاحب الترجمة اعتمد في جميع مصنفاته على المصادر الأصلية مستعيناً أحياناً ببعض الروايات التاريخية التي يتناقلها الناس آنذاك.

والمعروف أن أبا مروان ابن حيان القرطبي قد أخذ من كل علم نصيباً وافراً، ولكن اهتمامه الشديد بعلم التاريخ طغى على اهتماماته الأخرى، لذا

أصبح إمام المؤرخين في عصره غير مدافع، وعليه اعتمد كبار المؤرخين في العالم على أعماله في هذا المجال الحيوي؛ لأنها تجمع بين الأمانة والصدق والإتقان. لم يصل أبو مروان بن حيان القرطبي إلى هذه المكانة المرموقة إلا عن طريقين: الأول: ملازمته لوالده خلف الذي عرف بعلمه وفضله وأمانته وخلقه، والثاني: إتعابه نفسه في الانشغال في العلم وكراهيته للفوضى، وصرامته وصراحته في وصف الرجال.

obeikandl.com

أبو الفضل البيهقي

هو **محمد بن الحسين البيهقي النيسابوري**، يكنى **بأبي الفضل**، ويلقب **بالبيهقي** نسبه إلى مكان ولادته قرية بيهق التي تقع جنوب شرق خراسان، نما وترعرع في بداية حياته العلمية بمدينة نيسابور التي كانت تعج بكبار علماء المسلمين في مختلف فروع المعرفة. لذا تتلمذ على أيدي بعض هؤلاء الأفذاذ في كل من القرآن الكريم وعلومه والحديث والشعر والأدب والتاريخ، ولكنه تفوق بل نبغ في علم التاريخ. اختلف المؤرخون في تاريخ ميلاده، ولكن البعض رأى أنه ولد سنة (٣٨٥ هجرية)، وتوفي سنة (٤٧٠ هجرية). ذاع صيته بين زملائه بذكائه المفرط وحكمته النادرة، لذا اختير أن يكون من رجال الدولة الغزنوية، حيث عُيِّن كاتب الإنشاء في هذه الدولة مدة طويلة من الزمن، وخلال هذه الفترة من عمره شغل منصب مكتب الإنشاء الذي يُعتبر مركز المعلومات عن الدولة. لذا كان ينال عناية خاصة من السلاطين الذين عمل معهم لإخلاصه وتفانيه في خدمتهم، ولكن للأسف الشديد حصل في آخر أيام حياته على إهانة وذُل وإضطهاد، لا يمكن وصفه على يد طغرل الذي أخذ السلطة بالقوة من عبد الرشيد الغزنوي بعد قتله وزج جميع أعوانه في السجن والذي كان من بين المسجونين البيهقي. وبعد خروجه من السجن ترك تماماً السياسة وأهلها، وتفرغ لطلاب العلم والبحث والتنقيب والاستقصاء في مجالات عدة من بينها علم التاريخ حتى انتقل إلى جوار ربه.

يقول **صلاح الدين خليل الصفدي** في كتابه آنف الذكر: «محمد بن الحسين البيهقي أبو الفضل الكاتب، كان كاتب الإنشاء في دولة السلطان محمود بن سبكتكين نيابة عن أبي نصر ابن مشكان، وتولى الإنشاء لمحمد بن محمود ثم المسعود بن محمود ثم لمودود ثم للسلطان فرخزاذ، ولما انقطعت دولته لزم بيته إلى أن مات سنة سبعين وأربع مئة، وله كتاب (زينة الكتاب) وتاريخ ناصر الدين محمود بن سبكتكين، وسماه (الناصري) ذكر فيه من أول

obeikandl.com

دولة محمود يوماً يوماً إلى آخر أيامه وهو في عدة مجلدات. ومن شعره:

جرمي قد أرني على العذر فليس لي شيء سوى الصبر
فاشتر مني خاطري كله لأنفق الأيام في الشكر

وقال وهو محبوس:

كلما مر من سرورك يوم مر في الحبس من بلائي يوم
ما لبؤس ولا لنعم دوام لم يدم في النعيم والبؤس قوم»

اعتكف أبو الفضل البيهقي في آخر أيام حياته في بيته للدراسة والتأليف، مما جعله يستقصي بكل دقة المعارف الكثيرة التي كانت بين يده بأسلوب سهل ممتنع، وهذا يظهر واضحاً من مؤلفاته التي تناقلها بعض المؤرخين والتي منها: كتاب مقامات أبي نصر مشكان، وكتاب أدب الإنشاء، وكتاب زينة الكتاب، وله شعر جيد، وكتاب تاريخ البيهقي الذي يحتوي على عدة أجزاء باللغة الفارسية. ولقد حصل أبو الفضل البيهقي على سمعة عظيمة من كتابه (تاريخ البيهقي)؛ لأنه موسوعة ضخمة تشتمل على معلومات وملاحظات تاريخية نادرة لم تكن معروفة من قبل. ويمتاز كتاب (تاريخ البيهقي) بالوضوح والأمانة العلمية، لذا قام بدراسته وتحقيقه ونشره في إيران سنة (١٣٠٥ هجرية) محمد أديب البيشاوري، فصار متداولاً في العالم أجمع باللغة الفارسية، ولحسن الحظ تحمس كل من يحيى الخشاب وصادق نشأت، فأخرجاه سنة (١٣٧٦ هجرية) في ثوبه الجديد باللغة العربية، وعليه أصبح هذا الكتاب القيم في متناول الباحثين في ميدان علم التاريخ، كما طبع عدة مرات في لبنان سنة (١٤٠٣ هجرية). وهذا صار لا تخلو مكتبة في العالم منه الآن.

وخلاصة القول: ركّز رجال الدولة على تقريب المؤرخين الموهوبين منهم وضمهم إلى موظفي دواوينهم، وذلك لاعتقادهم بسعة ثقافتهم وإحاطتهم بالأحداث التاريخية التي معرفتها يمكن أن تكون عوناً لولاة الأمر على اتخاذ القرار

المناسب الناجح، لذا اهتم مؤرخو العرب والمسلمين اهتماماً بالغاً بتقوية صلاتهم بالسلاطين والحكام في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وذلك ليسهلوا مهمتهم في الدراسة والبحث. وعليه اتجه أبو الفضل البيهقي إلى العمل مع سلاطين الدولة الغزنوية، لكي يحصل على المعلومات الضرورية للقيام بتأليف كتابه (تاريخ البيهقي)، الذي يحتوي على معلومات أولية وأصيلة عن الدولة الغزنوية ورجالها من مفكرين وسياسيين واقتصاديين وتربويين. والحقيقة أن جميع مؤلفات أبي الفضل البيهقي تمتاز عن غيرها من مؤلفات علماء العرب والمسلمين باحتوائها على أسس واضحة لا لبس فيها من حيث المنهج والمحتوى والأسلوب وطريقة العرض. وقد اشتهر أبو الفضل البيهقي بين زملائه بقدرته العجيبة على تصحيح وتنقيح وترميم المعارف التي حصل عليها من هنا وهناك.

ولقد عرف أبو الفضل البيهقي برجاحة عقله وقدرته على التعبير وفصاحته عند التحدث وحبه للعلم وطلابه، لذا كان دائماً يحاول أن يلتقي بكبار العلماء بمدينة نيسابور لكي يأخذ من كل علم نصيباً وافراً، وعليه تمكن أبو الفضل البيهقي من تطوير أسلوب رائع في كتابه (تاريخ البيهقي) يتصف بالسهولة والوضوح بجانب عمق ما يتناوله من أفكار وآراء تاريخية وخاصة التي تتعلق بالدولة الغزنوية، فعطاؤه التاريخي طويل وكبير.

ويتضح للقارىء مما تقدم أن أبا الفضل البيهقي حاز على شهرة عظيمة عبر التاريخ بواسطة كتابه الذي بعنوان (تاريخ البيهقي) والذي يضم بين دفتيه أحسن وأوفى الأفكار التاريخية، وخاصة التي تخص الدولة الغزنوية. لقد كتب كتابه هذا على منهج مرسوم بطريقة استقرائية خلابة، لذا يعتبر هذا الكتاب فيما يتعلق بالدولة الغزنوية في نهاية الجودة والإتقان. كما أجمع المؤرخون على أن المعلومات التي عرضها البيهقي في كتابه (تاريخ البيهقي) تدل على ما كان عليه من العلم وعلو المنزلة.

علي بن ماكولا

هو **علي بن هبة الله بن علي الجرياذقاني بن ماكولا**، كنيته **أبو نصر** وأحياناً يدعى **بالأمير الحافظ**، ولقبه **ابن ماكولا**، ولا يعرف لماذا أعطي هذا اللقب الغريب، ولُقب بالجرياذقاني، لأنه ينتمي لبلدة جرذقان المعروفة الواقعة بين همدان وأصفهان. اختلف المؤرخون كثيراً في تاريخ ولادته، ولكن المتفق عليه عند الكثير أنه ولد سنة (٤٢١ هجرية) بعكبرا القريبة من بغداد، نشأ وترعرع في بيئة علم وجاه ببغداد، فوالده أبو القاسم هبة الله كان وزيراً لجلال الدولة بن بويه، وعمه أبو عبد الله الحسن كان قاضي القضاة ببغداد،من هنا نما وقلبه متعلق في كل من العلوم الشرعية والتاريخية والأدبية.

تلقى أبو نصر علي بن ماكولا تعليمه على أيدي كبار المفكرين ببغداد، فبرع في كل من علم التاريخ والحديث والأدب والشعر والنحو، كما جال في الآفاق لطلب العلم، فزار كلاً من بلاد الشام ومصر وما وراء النهر وخراسان وغيرها، ولكنه في النهاية قتل بخورستان عن عمر يناهز ٥٤ سنة (أي سنة ٤٧٥ هجرية) بواسطة رجال من مماليكه الأتراك طمعاً بماله الذي نهبوه وهربوا به، وراح دمه هدراً. والجدير بالذكر أن هناك بعض المؤرخين يرون أنه قتل بخراسان. والحقيقة المرة أن الأمة الإسلامية خسرت عالماً مرموقاً من كبار علماء التاريخ الذين كانوا مغرمين بتتبع تراجم الأعلام والكتابة عنها.

يقول **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر: «علي بن هبة الله بن ماكولا، وهو ابن الوزير أبي القاسم هبة الله بن ماكولا وزير جلال الدولة البويه. وكان عمه أبو عبد الله الحسن بن جعفر قاضي القضاء ببغداد، يلقب بالأمير من بيت الوزارة والقضاء والرياسة القديمة، كان لبيباً عارفاً عالماً ترشح للحفظ، حتى كان يقال له الخطيب الثاني.. وكان نحوياً مجوداً وشاعراً مبرزاً جزل الشعر فصيح الكلام صحيح النقل، ما كان في البغداديين في زمانه مثله،

وسافر إلى الشام والسواحل وديار مصر والجزيرة والثغور والجبال ودخل بلاد خراسان وما وراء النهر وطاف في الدنيا وجول في الآفاق.. ورجع إلى بغداد، فأقام بها ثم خرج إلى خورستان، فقتل هناك. كان في صحبته جماعة من مماليكه الأتراك».

كان الخلفاء والوزراء يقربون الشعراء في كل عصر لأغراض سياسية تلذذاً بالشعر وآدابه، لذا أعطى أبو نصر علي بن ماكولا هذا الحقل الحيوي حقه كاملاً، ويظهر ذلك مما نقله محمد بن شاكر الكتبي في كتابه آنف الذكر من شعره:

ولما تفرقنا تبارت قلوبنا   فممسك دمع عند ذاك كساكبه

فيا نفسي الحرى البسي ثوب حسرة   فراق الذي تهوينه قد كساك به

كان أبو نصر علي بن ماكولا من النابغين ليس فقط في علم التاريخ، ولكن أيضاً في سائر العلوم، وهذا يظهر واضحاً من إسهاماته القيمة، فمن كتبه التي نوه عنها أعداد كبيرة من المؤرخين للحضارة العربية والإسلامية هي: كتاب الإكمال في رفع الارتياب عن المختلف والمؤتلف لا سيما الكنى والأنساب، وكتاب في علم الحديث، وكتاب الوزراء، وكتاب مستمر الأوهام على المؤتلف والمختلف من أسماء الأعلام، وكتاب مفاخر القلم والسيف والدينار، وكتاب تكملة الإكمال، وله شعر جيد وغيرها.

وخلاصة القول: عني علماء المسلمين بعلم التاريخ عناية عظيمة فألفوا فيه كتباً كثيرة جداً، وذلك عائد لرغبتهم وحرصهم على معرفة كل من سيرة صفوة الخلق رسول الله ﷺ وأخبار الخلفاء والملوك والأمراء وأخبار الفتوحات الإسلامية والحوادث التاريخية المثيرة بأسانيدها العلمية الدقيقة، لذا اتجه أبو نصر علي بن ماكولا في آخر أيام حياته إلى دراسة علم التاريخ فأنتج إنتاجاً رائعاً فيه، وذلك نتيجة طوافه في مدن العالم الإسلامي المشهورة بدورها في ميدان علم

التاريخ واجتماعه بكبار المفكرين فيها، حيث نقل عن علمائها معلوماته التاريخية النادرة التي طورها ونقحها وأبرزها للملأ عبر مؤلفاته العديدة التي صارت من أهم المراجع للدارسين والباحثين في مجال علم التاريخ.

وكانت مكانة عائلة أبي نصر علي بن ماكولا الاجتماعية والسياسية والعلمية المحرك الرئيسي لحرصه على التحصيل العلمي، حيث تمكن بعقله الثاقب وحكمته النيرة أن يستخدم علاقات والده الوزير وعمه قاضي القضاة في جمع المعلومات الهامة من المصادر الرئيسة المتاحة حينئذ ببغداد. كما أقام أيضاً علاقات علمية متينة بينه وبين جهابذة الفكر ليس فقط في العراق، ولكن في جميع أرجاء العالم الإسلامي.

وعندما استقر أبو نصر علي بن ماكولا ببغداد بعد طوافه الطويل حول جميع المراكز العلمية الإسلامية، وجمعه المعارف الجمة في مختلف فروع المعرفة، قرر أن يتفرغ للكتابة والتأليف في كل من علم التاريخ والنحو والأدب والحديث، لذا أثرى بجدارة المكتبة الإسلامية في إنتاجه الغزير. وعليه ذاع صيته في جميع أنحاء دار السلام (بغداد) فأكرمه أهلها وأجلوه، وبقي بينهم كالقنديل ينير لطلاب العلم والباحثين الطريق السوي، والفضل كله يعود لوالده الذي نمّى عنده حب المجالسة والسماع إلى العلماء منذ طفولته، حيث كان يقضي الابن معظم وقته في ريعان شبابه في المسجد والمدرسة للسماع إلى أحاديث ومناقشات العلماء.

محمد الطرطوشي

هو **محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري القرشي الأندلسي**، يكنى **بأبي بكر**، ويلقب **بابن أبي رندقة والطرطوشي**، ولد ونشأ وترعرع وتلقى تعليمه في مدينة طرطوشة الأندلسية، وهي مدينة عامرة في شرق الأندلس وتقع في سفح جبل، وعرفت بخشب الصنوبر وبمركزها التجاري وجمالها وقربها من البحر الأبيض المتوسط. عاش بين (٤٥١ - ٥٢٠هـ) وزار كلاً من مدينة سرقسطة ومدينة إشبيلية. وفي عام (٤٧٦ هجرية) أدى مناسك الحج ومر بكل من بغداد والبصرة والشام والقدس، واستوطن الشام مدة من الزمن، فكان طلاب العلم يأتون من جميع أنحاء الدولة الإسلامية للتتلمذ على يديه هناك، ولكنه ما لبث أن انتقل إلى مصر واستقر في مدينة الإسكندرية الجميلة التي كانت تعج بالعلماء، وبقي فيها حتى توفي سنة (٥٢٠ هجرية). واشتهر بين زملائه بسعة ثقافته، حيث تفنن بكل من علم التاريخ والأدب والعلوم الشرعية (الفقه) والحساب. كما كان رحمه الله يمتاز بالزهد والورع وقول الحق والرضا بالقليل. وعرف أيضاً بحبه للأقاصيص العربية والنوادر العلمية الممتازة.

يقول **أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان** في كتابه آنف الذكر: «كان أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي إماماً عالماً عاملاً زاهداً ورعاً ديناً متواضعاً متقشفاً متقللاً من الدنيا راضياً منها باليسير، وكان يقول: إذا عرض لك أمران أمر دنيا وأمر أخرى، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى، وكان كثيراً ما ينشد:

إن لله عباداً فطنا ... طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا

فكّروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحيٍّ وطنا

جعلوها لجّة واتّخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا»

ولأبي بكر محمد الطرطوشي مواقف جريئة تدل على شجاعته ومكانته العلمية التي احتلها بين زملائه، وهذا يظهر واضحاً وجلياً من نصيحته التي قدمها للأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، والتي دونها الشيخ **أحمد بن محمد المقري التلمساني** في كتابه «نفح الطيب عن غصن الأندلس الرطيب» ـ المجلد الثاني ـ: «ودخل أبو بكر الطرطوشي مرة على الأفضل ابن أمير الجيوش وهو ملك مصر فوعظه، وقال له: إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله عز وجل سائلك عن النقير والقطمير والفتيل، واعلم أن الله عز وجل آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال عز من قال: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ [ص٣٩] فما عد ذلك نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدارجاً من الله عز وجل. فقال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ [النمل ٤٠] فافتح الباب، وسهل الحجاب وانصر المظلوم».

عرض أبو بكر الطرطوشي في كتابه «سراج الملوك» الواجبات والفضائل التي يجب أن يتحلى بها الملوك وولاة الأمر في العالم حينئذ، كما بلور فيه بأسلوب رائع ومنهج دقيق سير الأنبياء عليهم السلام وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء، وأهداه للمأمون البطائحي الوزير الفاطمي الذي أكرمه إكراماً يليق بمكانته العلمية المرموقة. ويذكر الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني في كتابه آنف الذكر: أن أبا بكر محمد الطرطوشي كتب على كتابه «سراج الملوك» الذي أهداه لولي الأمر بمصر:

الناس يهدون على قدرهم ... لكنني أهدي على قدري

obeikandi.com

يهدون ما يفنى وأهدي الذي   يبقى على الأيام والدهر

لقد التزم أبو بكر محمد الطرطوشي بالمنهج التاريخي الذي أسسه المؤرخون المسلمون والذي يعتمد على العدالة، لذا أهدى كتابه «سراج الملوك» للمأمون البطائحي؛ لأنه يرى في ذلك خدمة لأمته. ويذكر **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر: أن أبا بكر الطرطوشي علل هذا الإهداء بقوله: «إن العلم عصمة الملوك والرؤساء ومعتقل السلاطين والوزراء؛ لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم، ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويكرموا حملته ويستبطنوا أهله».

وللأسف الشديد أن مؤلفات أبي بكر محمد الطرطوشي ضاع معظمها، فلم يبق منها إلا كل من كتاب الطريقة في الخلاف والجدل، وكتاب الحوادث والبدع، وكتاب الدعاء، وكتاب مختصر تفسير الثعالبي، وكتاب بر الوالدين، وشرح رسالة ابن أبي زيد. ولكن شهرته في العالم أجمع تعود إلى كتابه القيم «سراج الملوك» الذي قال عنه علي أدهم في كتابه الذي سبق ذكره: أما كتاب «سراج الملوك» لأبي بكر محمد الطرطوشي فهو كتاب حافل بالأخبار الشائعة، والنوادر الطريفة، والقصص الممتعة، والنظرات السديدة والملاحظات القيمة والحكم الجامعة، وهو ثمرة تجربته المستفيضة وعلمه الغزير، واطلاعه الواسع، وتضلعه من التاريخ والفقه والشريعة والآداب الإسلامية. وقد قسم الكتاب على أربعة وستين فصلاً، فالباب الأول مثلاً: في مواعظ الملوك، والباب الثاني: في مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين. وعقد فصلاً لمنافع السلطان ومضاره، وفصلاً آخر لمعرفة الخصال التي هي قواعد السلطان. واختص الوزراء بأحد الأبواب، وتكلم عما يصلح الرعية من الخصال، وعن علاقة السلطان بالجند وبيت المال، وما إلى ذلك من الموضوعات التي تتصل بسياسة الملك وتدبير أمور الرعية.

تميز أبو بكر محمد الطرطوشي بمقدرته المنقطعة النظير على تقصي

obeikandl.com

والتماس العلل والأسباب للأحداث التاريخية التي كان يكتب عنها، ويظهر ذلك واضحاً وجلياً في كتابه «سراج الملوك» الذي طبع في بولاق سنة (١٢٩٨هـ) وأعيد طبعه بدون تحقيق عدة مرات، ولكن طبعة المكتبة العربية بالقاهرة التي تمت عام (١٣٤٤هـ) كانت أكثر انتشاراً من الطبعات الأخرى. والحق أن لكتاب «سراج الملوك» لأبي بكر الطرطوشي شأناً عظيماً في عالم الفكر والارتقاء التاريخي، حيث يحتوي على معلومات نادرة وأصيلة، ليس فقط في مجال علم التاريخ، ولكن أيضاً في المجالات الأخرى.

كان أبو بكر محمد الطرطوشي يجمع العلم من أطرافه المتناثرة ويبذل في سبيل ذلك كل غال، فكانت حياته مليئة بالتعلم متميزة بالاجتهاد والصدق والأمانة. وهكذا احتل مكانة عالية جداً بين المفكرين المسلمين الذين قامت الحضارة الإسلامية على أكتافهم. والمتواتر أنه كان شاعراً ملهماً ومرهف الحس، ويظهر هذا من الأبيات التي نقلها عنه انجل جنثالث بالنثيا في كتابه آنف الذكر وهي:

أقلب طرفي في السماء ترددا ... لعلي أرى النجم الذي أنت تنظر
وأستعرض الركبان من كل وجهة ... لعلي بمن قد شم عرفك أظفر
وأمشي ومالي في الطريق مآرب ... عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر
وألمح من اللقاء من غير حاجة ... عسى لمحة من حسن وجهك تسفر

وخلاصة القول: كان لفقهاء الدين الإسلامي دور عظيم في دراسة الأحداث التاريخية ليس فقط في بلاد الأندلس، ولكن في جميع أرجاء الدولة الإسلامية آنذاك؛ لأن الهدف من دراسة الظواهر التاريخية خدمة الإنسان ومساعدته لتحقيق ذاته. وعليه بلغ علم التاريخ درجة عالية جداً من التقدم على يد علماء الأندلس. وقد أثبت أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي أن علم التاريخ تراث إنساني هائل شاركت فيه شتى الأمم، حيث أخذ بعضها من بعض واعتمد

obeikandi.com

بعضها على بعض، ولكن المعروف أن الأمة العربية والإسلامية هي التي عملت بكل جد واجتهاد على إبراز معالمه ومنهجه الحقيقيين.

ولقد كان **أبو بكر محمد الطرطوشي** حسن المعرفة جيد القريحة، لذا حاول بكل جدية أن يطور طريقة علمية بها تتقابل السياسة والأخلاق، كما جمع أقوالاً كثيرة لعلماء العرب والمسلمين الأوائل والحكماء الفرس والروم، كان لها أكبر الأثر على تقدم علم التاريخ، وعليه تمكن أبو بكر محمد الطرطوشي من وضع الحقائق التاريخية في قالب مفهوم، لذا لقيت كتاباته في مجال علم التاريخ إقبالاً عظيماً من الدارسين والباحثين.

ذاع صيت أبي بكر محمد الطرطوشي بين معاصريه لقوة ذاكرته وجودة فهمه وتفكيره المستقل، ومثابرته على البحث والاستقصاء، مما جعله صاحب علم غزير ومعرفة جيدة وثقة بالنفس وعلو همة، وفوق هذا كله كان حراً في تفكيره وعطائه، وصريحاً في إبداء رأيه، وعزوفاً عن الدنيا، وزاهداً بها، ومتقشفاً، وقانعاً باليسير، لذا حصل على إعجاب كبار المفكرين في العالم الإسلامي، وظفر بتقديرهم العالي، من هنا نفذ بإنتاجه العلمي المتنوع إلى الجواهر واللباب.

كان أبو بكر محمد الطرطوشي صاحب أسلوب عربي أصيل جمع فيه بين السهولة والجزالة والوفاء والإجادة في العرض والتنسيق ومراعاة الدقة في تسجيل الأحداث بأنواعها المختلفة، وهذا نتيجة اطلاعه الواسع على الأدب وأشعار العرب. أما كتاباته التاريخية فكانت عبارة عن قنديل. تضيء كل الجوانب المظلمة لعلم التاريخ، وبهذا نستطيع القول الآن: إن أبا بكر محمد الطرطوشي مهد الطريق لمن جاء بعده من كبار المؤرخين.

الفتح بن خاقان الإشبيلي

هو **الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي**، يكنى **بأبي النصر**، ويعرف **بابن خاقان**. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أنه نشأ وترعرع في مدينة إشبيلية. مات قتيلاً في مراكش عام (٥٢٥ هجرية). نبغ أبو النصر ابن خاقان في مجال النقد الأدبي، ولكن يؤخذ عليه تفصحه الشديد واستخدامه الألفاظ الصعبة النادرة الاستعمال. وعرف بين زملائه بذاكرته اليقظة وقريحته الشعرية المتأججة، فهو بلا شك أديب وشاعر ومؤرخ، يحب الأسفار للعلم وللحوار مع جهابذة الفكر في العواصم الإسلامية.

وينقل **أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان** في كتابه آنف الذكر كلام الحافظ أبي الخطاب ابن دحية عن أبي النصر ابن خاقان في كتابه المشهور «المطرب من أشعار أهل المغرب»: «إني لقيت جماعة من أصحابه وحدثوني عنه بتصانيفه وعجائبه، وكان مخلوع العذار في دنياه. لكن كلامه في تواليفه كالسحر الحلال والماء الزلال، قتل ذبحاً في مسكنه بفندق لبيب (أحد فنادق مراكش الخنوية) من حضرة مراكش صدر سنة تسع وعشرين وخمس مئة، رحمه الله تعالى، وأن الذي أشار بقتله أمير المسلمين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين»، والمتواتر أن أمير المسلمين هذا هو أخ لأبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف له الفتح بن خاقان كتابه «قلائد العقيان»، وتحدث عن فضله في مقدمة الكتاب، وعليه نال الفتح بن خاقان مكافأته. وهناك بعض المؤرخين يرى أن الخلاف والتنافس الذي كان بين الأخوين كان الفتح بن خاقان من ضحاياه.

جمع بكل جدارة الفتح بن خاقان مجموعة كبيرة من الأدباء والشعراء والعلماء المغاربة، وتكلم عن سيرة كل واحد منهم بطريقة علمية تخضع للمنهج العلمي النزيه، ولم يكتف بهذا بل كتب أيضاً عن موضوعات مختلفة،

obeikandi.com

بها استطاع أن يبلور ثقافته الواسعة لقرائه وذكر **إسماعيل باشا البغدادي** في كتابه آنف الذكر بعض مصنفاته ومنها:

١ ـ بداية المحاسن وغاية المحاسن في مجموع مراسلاته.
٢ ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان.
٣ ـ كنز الفوائد.
٤ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس.
٥ ـ أخبار شعراء المغرب.

نال الفتح بن خاقان احترام وتقدير المعتمد بن المعتضد بن عباد (٤٣٢ ـ ٤٨٩هـ) حاكم إشبيلية الذي كان من المغرمين في الشعر، ومن أقرب الناس إلى كل من الشعراء والأدباء والمؤرخين، لذا تمكن الفتح بن خاقان أن يحتل مكانة مرموقة بين معاصريه. وقد نوه الفتح بن خاقان عن حظوة حاكم إشبيلية حينئذ بأسلوب رائع سلس، نقله **إنجل جنثالث بلنثيا** في كتابه «تاريخ الفكر الأندلسي» (نقله من الإسبانية إلى اللغة العربية حسين مؤنس): «ملك قمع العدا، وجمع البأس والندا، وطلع على الدنيا بدر هدى، لم يتعطل يوماً كفه ولا بنانه، آونة يراعه وآونة سنانه، وكانت أيامه مواسم، وثغور بره بواسم، ولياليه كلها درر، وللزمان أحجال وغرر، لم يغفلها من سمات عوارف، ولم يضحلها من ظل إيناسٍ وارف، ولا عطلها من مآثرة بقي أثرها بادياً، ولقي معتفيه منها إلى الفضل هادياً، وكانت حضرته مطمحاً للهمم، ومسرحاً لآمال الأمم، وموقفاً لكل كمي، ومقذفاً لذي أنف حمي، لم تخل من وفد، ولم يصح جوهاً من انسجام رفد، فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكماة، ومشاهير الحماة، أعداد يغص بهم الفضاء، وأنجاد يزهى بهم النفوذ والمضاء، وطلع في سمائه كل نجم متقد، وكل ذي فهم منتقد، فأصبحت حضرته ميداناً لرهان الأذهان. وغاية لرمي هدف البيان، ومضماراً لإحراز خصل في كل معنى وفضل».

لقد كان للفتح بن خاقان دور عظيم في الشعر العربي، فقد عرف بحسه المرهف، حيث ترك وراءه رصيداً غنياً من الشعر، صار يتناقله المؤرخون لماله من تأثير عظيم على العقلية العربية، كما أعجب أحمد بن محمد المقري التلمساني بشعره الغزير فأورد في كتابه آنف الذكر أبياتاً له في المدح:

إلى أين ترقى قد علوت على البدر ... وقد نلت غايات السيادة والقدر

وجدت إلى أن ليس يذكر حاتم ... وأغنيت أهل الجدب عن سبل القطر

وكم رام أهل اللوم باللوم وقفة ... وبحرك مد لا يؤول إلى جزر

ولو لم يكن فيك السماح جبلة ... لأثر ذاك اللوم فيك على الدهر

وخلاصة القول: كان علماء العرب والمسلمين في الأندلس متعطشين إلى تدوين أخبار الغزوات والحوادث الهامة من شخص متخصص. لذا قام مجموعة من المؤرخين الموهوبين بتسجيل ذلك بطريقة نزيهة، وكان من بينهم الفتح بن خاقان الذي عرف بجديته وصدقه في القول. من هنا أبرز في كتابيه «قلائد العقيان» و «مطمح الأنفس» حقائق تاريخية نادرة، استفاد منها التابعون له. والجدير بالذكر أن الفتح بن خاقان نال شهرة عظيمة بين قادة الفكر في الحضارة العربية والإسلامية من خلال كتابيه المذكورين آنفاً.

وكان الفتح بن خاقان مؤرخاً مطبوعاً وأديباً موهوباً، حاول الابتعاد عن الإسهاب والتكلف في عرض أفكاره الأدبية والتاريخية، علماً أنه معروف عنه حبه لاستخدام بعض الألفاظ والمصطلحات اللغوية نادرة الاستعمال، وهذا يدل على غزارة محصوله اللغوي وثقافته العالية في علم التاريخ الخاص في أيام العرب المشرقة، كما ذاع صيته بين معاصريه لتصوره البديع في معظم كتاباته التاريخية التي تتبع فيها أخبار الماضي.

وأخيراً نستطيع القول: إن الفتح بن خاقان أسدى خدمات جليلة للأجيال اللاحقة له في جميع مصنفاته التي تتسم بالدقة والوضوح والأمانة

العلمية، فلم ينتحل لنفسه شيئاً قاله غـيره، بـل تقيـد بـالمنهج العلمـي، حيـث نسب كل شيء نقله إلى صاحبه وأرجعه إلى مصدره. والجدير بالذكر هنا أنه تجنب السرد وركز على الإضافة والتحليل والتطويـر في علـم التـاريخ معتمـداً بذلك على تجاربه وخبرته وعلاقاته القويـة بكبـار المؤرخـين في العـالم. وعليـه يقف الفتح بن خاقان عملاقاً بين المؤرخين الذين صنعوا تاريخ الأندلس.

obeikandl.com

علي بن بسام الشنتريني

هو **علي بن بسام الأندلسي**، يكنى **بأبي الحسن**، ويلقب **بالشنتريني** نسبة لمسقط رأسه مدينة شنترين التي تقع الآن في بلاد البرتغال. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن الثابت أنه توفي سنة (٥٤٢ هجرية). نما وترعرع في مدينة شنترين التي خرج منها عنوة وقهرة بواسطة أعداء الله ـ النصارى الماكرين ـ الذين استولوا على المدينة بالقوة ومن ثم إلى مدينة قرطبة آخر معقل للمسلمين هناك، التي كانت تعج بعلمائها المرموقين. والجدير بالذكر أن مدينة شنترين كانت من أول المدن التي احتلها النصارى الغاصبون؛ لأنها تقع على الحدود التي كان يصعب تماماً المحافظة على أمنها واستقرارها. وللمعلومة فإن الفترة التي وقعت فيها مدينة شنترين بيد النصارى كانت فترة تمزق الدولة الإسلامية في الأندلس.

يعتبر علي بن بسام من كبار المفكرين في الأندلس، متقناً بارعاً في معظم فروع المعرفة، ولكنه كان من فرسان كل من علم التاريخ والأدب وله فيها اليد الطولى، وله مصنفات عديدة لم يبق الدهر إلا كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة».

ألف أبو الحسن علي بن بسام كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» سنة (٥٠٢ هجرية) والحزن يمزق أحشاءه، لذا خرج هذا الكتاب القيم معبراً عن إحساس عالم حرم من بلده الغالي. نال ابن بسام شهرة عظيمة من كتابه هذا؛ لأنه صار من المراجع الهامة جداً للباحثين في شؤون بلاد الأندلس وأهله؛ لأن مادته تشتمل على قدر عظيم من المعلومات الجيدة الهامة عن تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس. ويمتاز هذا الكتاب أنه كتب بأسلوب شاعري جميل، والمشهود لأبي الحسن علي بن بسام أنه يمتلك القدرة على التصور الواضح للعالم، وذلك بسبب اطلاعه الواسع على كل من علم التاريخ

والأدب. ويذكر **خير الدين الزركلي** في قاموسه «تراجم الأعلام» ـ الجزء الخامس ـ : أن ابن بسام أديب، ومن الكتاب الوزراء، وعرف بكتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» الذي يقع في ثمانية مجلدات تشتمل على ١٤٥ ترجمة مسهبة لأعيان الأدب والسياسة ممن عاصرهم أو تقدموه قليلاً.

وخلاصة القول: تفرض الأمانة العلمية على الباحث في مجال علم التاريخ لبلاد الأندلس أن يعترف أن علماء العرب والمسلمين في الأندلس استفادوا في دراستهم لعلم التاريخ من المقاييس التاريخية التي كانت معروفة لدى الأندلسيين قبل دخولهم في الدين الإسلامي، وذلك من حيث تنسيق المعلومات وتبويبها. ولكنهم في نفس الوقت اعتمدوا اعتماداً كبيراً على علماء العرب والمسلمين في المشرق في عرض أفكارهم وآرائهم التاريخية وكبح الافتراضات العشوائية، وعليه تفنن مؤرخو العرب والمسلمين في الأندلس في سبر الأغوار والبحث عن المعاني الدقيقة، حيث غزا علم التاريخ جو الحياة الإسلامية في الأندلس من أدناها إلى أقصاها، لذا تفجرت الطاقات الكامنة والمواهب الخلاقة في فترة قصيرة من الزمن. ومن هنا نبغ أبو الحسن علي بن بسام في كل من علم التاريخ والأدب وغيرهما.

كان للمؤرخين في المشرق العربي مكانة مرموقة ونكهة خاصة عند الأندلسيين حينئذ، لذا رأى أبو الحسن علي بن بسام أن ينوه عن ذلك في كتاباته التاريخية والأدبية، ولكنه حاول وبكل جدية إبراز علماء بلاده الأندلس، وهذا يظهر واضحاً مما قاله في كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»: «إن أهل هذا الأفق (الأندلسيين) أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، لا يعمر بها جنان ولا خُلد، ولا يصرف فيها لسان ولايد. فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما

obeikandl.com

هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهله، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديماً صنعوا العلم وأهله، ويارب محسن مات إحسانه قبله، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان؟».

وكان أبو الحسن علي بن بسام يتحرى صحة المعلومات التاريخية والأدبية التي كان يستخدمها في كتاباته الأصلية، فقد كان دائماً يحاول أن يأخذ الأخبار من مصادرها الأولية؛ لأنه يؤمن إيماناً قوياً في المنهج التاريخي النزيه. والحق أنه كان مؤرخاً عظيماً تميز بصراحته وبتواضعه واعتداله، وعرف بين زملائه بصدقه وشدة تحريه للحقيقة، واستقلاله في الرأي في وصف الأشخاص الذين كان يكتب عنهم، علماً أن المتواتر عنه بين المؤرخين في المعمورة أن من الدوافع الرئيسة التي دفعته إلى تأليف كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» النزعة القومية التي كانت متأصلة في نفسه، كما اشتهر بمواقفه الوطنية الجريئة حيال مسقط رأسه بلاد الأندلس.

بذل أبو الحسن علي بن بسام جهداً كبيراً في جمع أخبار الملوك والأمراء والرؤساء والعلماء البارزين الذين كتب عنهم، وذلك ليقدم دراسة متكاملة عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والعلمية لبلاد الأندلس. وللأسف الشديد أن معظم المؤرخين في العالم لم يذكروا أبا الحسن علي بن بسام مع مجموعة المؤرخين الذين أرخوا لهم، على الرغم من أنهم نقلوا الكثير من معارفهم التاريخية والأدبية الخاصة في بلاد الأندلس عن طريق كتابه النادر «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» الذي خلد اسم أبي الحسن علي ابن بسام، وهكذا بقي صاحب الترجمة مجهولاً لأبناء جلدته.

الحافظ ابن عساكر

هو **علي بن الحسن بن عبد الله بن هبة الله بن عساكر الدمشقي**، كنيته **أبو القاسم**، ويدعى أيضاً **بثقة الدين**، ولقبه الذي اشتهر به **ابن عساكر**، وإن كان يسمى في بعض الأحيان بالدمشقي. والجدير بالذكر أن اسم ابن عساكر اختص به الحافظ نفسه فقط؛ لأنه لم يثبت أن أحد أفراد عائلته كان يحمل هذا اللقب. نما وترعرع أبو القاسم علي بن عساكر في بيئة علمية محافظة، وعرفت عائلته بالعلم، حيث تفنن أفرادها بكل من الحديث والفقه. لا نعرف بالضبط متى ولد، ولكن التحريات توحي أنه ولد بمدينة دمشق سنة (٤٩٩هـ) وقد بدأ بالسماع إلى كبار العلماء في سن مبكر جداً في المساجد التي كانت المراكز الرئيسة لنشر العلم والثقافة. حفظ القرآن الكريم وتلقى السيرة النبوية في باكورة حياته، وبدون شك أن كلاً من القرآن الكريم والسيرة النبوية يعتبران المصدر الأول لدراسة علم التاريخ الذي تفوق فيه الحافظ ابن عساكر.

توفي والد الحافظ ابن عساكر، والابن في سن الحادية والعشرين، مما جعله يعزم بعد فراق أبيه على الرحلات العديدة لطلب العلم من مصادره المعروفة آنذاك مثل بغداد ومكة المكرمة والمدينة المنورة والكوفة وأصبهان ومرو ونيسابور وهراة وسرخس وأبيورد وطوس والري وزنجان وغيرها من البلدان الإسلامية. ونتيجة لزياراته العديدة لجهابذة الفكر في هذه المدن الإسلامية تميز في كل من الحديث والفقه والتاريخ. ولقد طار صيته بين أكابر العلماء والمفكرين بعلم التاريخ، والمتواتر أنه بقي يتنقل بين المراكز الإسلامية لمدة ثلاثة عشر عاماً، وأخيراً استقر بمدينة دمشق وكان عمره يومئذ لا يتجاوز الرابعة والثلاثين سنة. وهناك انصرف تماماً إلى التأليف والتدريس إلى أن توفي بمدينة دمشق سنة (٥٧١ هجرية). والحقيقة الواضحة أن حياة الحافظ ابن عساكر كانت حافلة بالحماس وطلب العلم والتأليف والتدريس، لذا لا

obeikandl.com

عجب أن يحصل على قصب السبق لكل من علم التاريخ والحديث والفقه على زملائه المعاصرين له.

ويصف **تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي** ثقة الدين أبا القاسم علي بن عساكر في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى» ـ الجزء السابع ـ بقوله: «هو الشيخ الإمام ناصر السنة وخادمها، وقامع جند الشيطان بعساكر اجتهاده وهادمها، إمام أهل الحديث في زمانه، وختام الجهابذة الحفاظ، ولا ينكر أحد منه مكانة مكانه، محط رحال الطالبين، وموئل ذوي الهمم من الراغبين، الواحد الذي أجمعت الأمة عليه، والواصل إلى ما لم تطمح الآمال إليه والبحر الذي لا ساحل له، والحبر الذي حمل أعباء السنة كاهله، قطع الليل والنهار دائبين في دأبه، وجمع نفسه على أشتات العلوم، لا يتخذ غير العلم والعمل صاحبين وهما منتهى أربه، حفظ لا تغيب عنه شاردة، وضبط استوت لديه الطريفة والتالدة، وإتقان ساوى به من سبقه إن لم يكن فاقه، وسعة علم أثرى بها وترك الناس كلهم بين يديه ذوي فاقة».

وتمتاز مؤلفات الحافظ ابن عساكر المتنوعة أنها حفظت للباحثين المادة التاريخية التي أتى على مصادرها الضياع. وقد نوّه المؤرخون الكبار في العالم عن بعضها ومنها على سبيل المثال لا الحصر، تاريخ مدينة دمشق وأخبارها وأخبار من حلها، وكتاب تبين الامتنان في الأمر بالاختتان، وكتاب التالي لحديث مالك الغالي، وكتاب المعجم لمن سمع منه أو أجاز له، وكتاب مناقب الشباب، وكتاب تاريخ المزة، وكتاب المسلسلات، وكتاب الأحاديث الخماسيات، وكتاب معظم الصحابة، وكتاب تقوية المنة على إنشاء دار السنة، وكتاب معجم النسوان، وكتاب تهذيب الملتمس من عوالي مالك بن أنس، وكتاب الجواهر واللآلي في الأبدال العوال، وكتاب فضل عاشوراء والمحرم، وكتاب الاعتزاز بالهجرة، وكتاب معجم أسماء القرى والأمصار،

وكتاب القول في حملة الأسانيد، وكتاب الاقتداء بالصادق في حفـر الخنـدق، وكتـاب الإنـذار بحـدوث الـزلازل، وكتـاب فضـل الجهـاد، وكتـاب معجـم الشيوخ والنبلاء وغيرها الكثير.

وخلاصـة القـول: لقـد قدمـت سـلطة السـلاجقة خدمـة عظيمـة للديـن الإسلامي، ووصلت ذروتها في أيام السلطان السلجوقي ملكشاه المتوفى سنة (٤٨٥هجرية)، ولكن بعد موته حصل انقسام وتناحر على السلطة أدى ذلك إلى إقامة ممالك ضعيفة متنافسة خلقـت جـواً مظلمـاً مملـوءاً بـالفوضى وعـدم الاستقرار، لذا أصبح هذا الوضع المتدهور مدخلاً واسعاً لأعداء الإسلام. وقد عاصر الحافظ ابن عساكر تمزق سلطة السلاجقة، مما دفعه إلى العمل في ميدان علم التاريخ؛ لكي يوضح لمعاصريه مكانـة الحضـارة العربيـة والإسـلامية الـتي احتلتها بـين الأمـم ليقتـدوا بذلـك ويـتركوا المنازعـات والخلافـات الهامشـية الـتي كانت من أسباب انقراض الدول والحضارات، كمـا كـان يحـث دائمـاً علـى التجمع والوحدة تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، بهذا المنهج الرائـع صار الحافظ ابن عساكر من كبار مؤرخي الأمة العربية والإسلامية.

ولقد أحاط أبو القاسم علي بن عساكر بعلوم عصره جيداً، حيـث كـان قارئاً متأنياً وكاتباً متأملاً، وكان يرى في البحث والمتابعة لذة هي أسمى أنواع اللذات، وعليه أجاد إجادة عظيمة في عرض الحقائق التاريخية بأسلوب تحليلـي استقرائي مشوق ومؤثر وبليغ، والمعروف عنه بين معاصريـه أنـه كـان شـغوفاً ومغرماً بكل من العلوم الشرعية وعلم التاريخ وجمع الكتب، لذا لا عجب إذا برع في كل من علم التاريخ والفقه وتفسير القـرآن الكريـم، كمـا ذاع صيتـه بين كبار العلماء بحلقاته العلمية الـتي كـانت تعج بـالطلاب المتميزين الذيـن يقصدونه من أقصى البلاد.

كان أبو القاسم علي بن عساكر قوي الحافظة والملاحظة وسريع البديهة، ومتصرفاً في قراءة الكتب وجمعها والتعليق عليها وشرح الغامض منها، وكـان

يلجأ إلى الجرح والتعديل بين الفينة والفينة؛ لكي يصل في مسعاه إلى مبتغاه، والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أن ثقة الدين أبا القاسم علي ابن عساكر قد ساهم مساهمة رائعة في إثراء المكتبة العربية والإسلامية، حيث قدم عدداً كبيراً من الموسوعات العلمية التي لا يستغني عنها أي باحث، والمشهود له أنه كان يتقصى الأخبار، ويدقق فيها ويروي النبأ التاريخي وينقده، ويبرز رأيه الشخصي فيه القائم على الحيثيات العلمية البعيدة كل البُعد عن الهوى والتميز.

opeikandl.com

القاضي العسقلاني

هو **عبد الرحيم بن علي بن محمد بن الحسن البيساني العسقلاني**، ويكنى بكل من **أبي علي ومحي الدين**، ويلقب أيضاً بكل من **البيساني والعسقلاني**، ولكنه اشتهر باسم **القاضي الفاضل**. نما وترعرع في بيت علم ووقار، فوالده كان قاضياً بارزاً ببيسان (بفلسطين)، ولذا أعطي لقب البيساني. ولد الابن عبد الرحيم العسقلاني بعسقلان (بفلسطين) سنة (٥٢٩ هجرية)، فأخذ اسم العسقلاني. وانتقلت عائلته الكريمة إلى مصر، فتلقى تعليمه على أيدي كبار العلماء بالإسكندرية، فتميز على أقرانه بعلم التاريخ والكتابة، وعليه ذاع صيته بين زملائه بحدة الخاطر وصناعة الإنشاء وبعد الغوص في المعاني وغرائب التقديرات للأمور التي تدور حوله، فكان قلمه يساوي سيف البطل الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، فلما عرف الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي بتفوقه في علم التاريخ على معاصريه، عينه وزيراً له، وأسند إليه أيضاً ديوان الإنشاء الذي لا يعمل فيه إلا أئمة الكتابة المشهورين بسعة ثقافتهم التاريخية والأدبية والشرعية.

كان أبو علي عبد الرحيم العسقلاني قريباً جداً من الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وهكذا قام بخدمة الملك الأول للدولة الأيوبية بكل إخلاص وتفان. وبقي في مصر وتوفي في مدينة القاهرة سنة (٥٩٦ هجرية). والجدير ذكره أنه تمكن من جمع الرسائل والمذكرات التي مرت عليه خلال ولايته لديوان الإنشاء، والتي صارت من أهم المراجع للدارسين والباحثين ليس فقط في تاريخ الدولتين الفاطمية والأيوبية، ولكن في علم التاريخ بوجه عام.

والحقيقة أن المؤرخين في العالم استفادوا فائدة عظيمة من الأعمال التاريخية التي حررها القاضي الفاضل عبد الرحيم العسقلاني، ويظهر ذلك واضحاً من المقتبسات التي استخدموها في مصنفاتهم العديدة، وهذا ليس بغريب لأنه كان في مركز الاطلاع على جميع أخبار العالم في عهد الدولة الأيوبية.

يقول **أبو عبد الله محمد بن صفي الدين** الملقب عماد الدين الأصبهاني في كتابه «خريدة القصر وجريدة أهل العصر» - تراجم أدباء القرن السادس الهجري - ما نصه: «رب القلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، والفضل الذي ما نسمع في الأوائل بمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، ويطلع الأنوار، ويبدع الأزهار، وهو ضابط الملك بآرائه، رابط السلك بآلائه، إن شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة مالو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة».

لقد اعتكف أبو علي عبد الرحيم العسقلاني على كل من تنظيم رسائله المعروفة باسم «المنشآت» والتي تتكون من حوالي مئة مجلد، ومذكراته النادرة التي تحمل عنوان: (المتجددات أو تاريخ الماجريات أو دستور القاضي الفاضل). وقد حاول في جميع إسهاماته العلمية الحرص على الابتعاد عن الحشو الذي لا يعرف أصله، أو الغريب من القول الذي لا يقبله العقل السوي، لذا كانت كل أعماله جزلة متعددة الغايات فيها كل من الحكم والأخبار والأحداث التاريخية ما يخدم الدارسين والباحثين.

وخلاصة القول: عاصر أبو علي عبد الرحيم البيساني العسقلاني تدهور الدولة الفاطمية وإشراق الدولة الأيوبية على أكتاف الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، في وقت كان وزيره الأول النابغة القاضي الفاضل عبد الرحيم العسقلاني. والمتواتر أن الوزير عبد الرحيم العسقلاني كان يحث السلطة الحاكمة الأيوبية على إقامة المعاهد والمدارس والمستشفيات في البلاد؛ لكي يكسبوا ثقة واحترام الجماهير من الناس، وقد نجح في هذا نجاحاً باهراً. كما ساهم مساهمة المخطط العبقري في جميع انتصارات الدولة الأيوبية على الصليبيين وخاصة انتصار العملاق الملك صلاح الدين الأيوبي على النصارى المعتدين في معركة حطين سنة (٥٨٤ هجرية) التي كانت حاسمة.

ولقد كان أبو علي عبد الرحيم العسقلاني فطناً ذكياً وجامعاً كبيراً لسائر العلوم، ولديه مقدرة عجيبة على استخدام الأفكار الجيدة والحقائق التاريخية من النصوص التي كانت في حوزته حينئذ.

وينقل **خير الدين الزركلي** في كتابه «الأعلام» ـ الجزء الرابع ـ بعض ما قيل في حقه: «كانت الدولة بأسرها تأتي في خدمته، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي يقول: (لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل!). وكان سريع الخاطر في الإنشاء، كثير الرسائل، قيل: لو جمعت رسائله وتعليقاته لم تقصر عن مئة مجلد».

لقد حاز أبو علي عبد الرحيم العسقلاني رضاء كبار المؤرخين والأدباء أمثال العماد الأصبهاني الذي عاصره ويعرف الكثير عنه، والذي أثنى عليه ثناء حسناً في كتابه آنف الذكر. والمعروف أن أبا علي عبد الرحيم العسقلاني لا يهتم بنفسه بقدر ما كان يهتم برصد المعلومات التاريخية للدارسين والباحثين، لذا كانت جميع أعماله من المصادر الضرورية لمن يعمل في مجال علم التاريخ بوجه عام، ولكنه تميز في حصره للأحداث التاريخية المتعلقة بالدولة الأيوبية في عهده، فهو بكل المعايير يعتبر من أعلام علم التاريخ لإدراكه ــ بعقله الثاقب وحكمته الفريدة ــ ما يعانيه الباحث في تحليل الأحداث التاريخية. وعليه تُعد كل من رسائله ومذكراته من المصادر الأساسية لدراسة تاريخ كل من الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية، لذا كان تأثيره عظيماً جداً لمن أرخ بعده لهاتين الدولتين (الفاطمية والأيوبية).

أبو الفرج ابن الجوزي

هو **عبد الرحمن بن علي بن محمد التيمي البكري البغدادي**، كنيته **أبو الفرج** وفي بعض الأحيان يسمى **جمال الدين**، اختلف بسبب إعطائه لقب الجوزي، فبعض المؤرخين يرى أن الجوزي منسوب إلى قرضة من قرض البصرة يقال لها: جوزة؛ لأن أسرته كانت تشتغل بالتجارة فاستعملت هذه القرضة كثيراً، وهناك آخرون يعتقدون أنه أخذ لقب الجوزي من جده الذي كان في بيته الجوزة الوحيدة بمدينة واسط القريبة من قلب بغداد. أما تسميته البكري فلأن نسبه ينتهي بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ولد أبو الفرج ابن الجوزي بمدينة بغداد سنة (٥١٠ هجرية) وتوفي فيها أيضاً عن عمر يناهز ٨٧ سنة (أي سنة ٥٩٧ هجرية)، لذا عرف بالبغدادي، والمتواتر أن والده توفي وله ثلاث سنوات، وكان من كبار تجار النحاس.

عاش أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي يتيماً عند عمته التي اهتمت بتعليمه اهتماماً بالغاً؛ لأنها أحست أن عنده ذكاء خارقاً للعادة، حيث نبغ ليس فقط في علم التاريخ، ولكن في سائر العلوم، فهو بلا شك متنوع الثقافة. ولكنه ذاع صيته في مجال الوعظ وهو في ريعان شبابه، بل وهو صبي، والحقيقة أن اهتمامه بالوعظ عائد لاعتقاده أنه الطريق السهل للاتصال بالناس وتوجيههم، لذا كان يحضر مجالسه الخاصة والعامة كبار القوم وطلاب العلم على جميع المستويات، والمتفق عليه عند المؤرخين أنه علامة زمانه في كل من علم التاريخ والحديث والفقه والأدب والتفسير، لذا أطلق عليه (عالم العراق وواعظ الآفاق).

نما وترعرع أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في بيئة علمية متميزة، حيث أسهمت عائلته إسهاماً عظيماً في بناء الحضارة العربية والإسلامية، اشتهر بين زملائه بولعه الشديد بكتاب الله (القرآن الكريم) فكان يختمه مرة

obeikandi.com

في كل أسبوع. الآن يمكن القول: إن ابن الجوزي عاش حياة مليئة بطلب العلم والتأمل فيه، كما أن له أشعاراً جميلة جداً تدل على مكانته في هذا المجال، فقد كان ينشد دائماً طلابه هذه الأبيات:

يا ساكن الدنيا تأهب   وانتظر يوم الفراق
وأعد زاداً للرحيل   فسوف يحدى بالرفاق
وابك الذنوب بأدمع   تنهل من سحب المآق
يا من أضاع زمانه   أرضيت ما يفنى بباق

وينقل **شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر من أخلاق وصفات أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ما نصه: «كان أبو الفرج ابن الجوزي رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهاً، ويسهب، ويعجب، ويطرب، ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ، والقيم بفنونه مع الشكل الحسن والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، وكان بحراً في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفاً بحسن الحديث، ومعرفة فنونه، فقيهاً، عليماً بالإجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفنن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار، وإكباب على الجمع والتصنيف، مع التصون والتجمل وحسن الشارة، ورشاقة العبارة، ولطف الشمائل، والأوصاف الحميدة، والحرمة الوافرة عند الخاص والعام ... كان ذا حظ عظيم وصيتٍ بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء، لا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة، حتى قيل في بعض مجالسه: أن حزر الجمع بمئة ألف».

لقد بذل وضحى أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في حياته في الاشتراك في بناء صرح الحضارة العربية والإسلامية، حيث قدم معلومات نادرة عن كل من بني إسرائيل حتى أيام المسيح عليه الصلاة والسلام وملوك الفرس وغيرهم من

obeikandi.com

ملوك العجم، كما ألقى أضواء لامعة ورائعة على الحياة العلمية والاجتماعية في العالم الإسلامي، وذلك كله بتجرد للحق والرغبة الأكيدة لديه في تعليم الجماهير أمور دينهم ودنياهم، ومن هنا أصبحت مؤلفاته من المراجع الضرورية جداً لطلاب العلم والباحثين في معظم فروع المعرفة.

استطاع أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي بمؤلفاته العديدة المتنوعة أن يرصد بطريقة رائعة الحياة الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي. وبمنهجه المحبب للنفوس، لم يترك صغيرة ولا كبيرة تتعلق بأوضاع الناس العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلا كتب عنها، لذا ترك مؤلفات زاخرة بالمعارف المختلفة، وعليه بقي صدى ذكره على ألسنة كبار المؤرخين عبر التاريخ.

يذكر **عبد الحميد العلوجي** في كتابه الذي بعنوان: «مؤلفات ابن الجوزي» الذي طبع سنة (١٣٨٥ هجرية) أن مؤلفات أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي جميعها تدور حول كل من القرآن وعلومه (٢٧ كتاباً)، والحديث ورجاله وعلومه (٤٢ كتاباً)، والمذاهب والأصول والفقه (٥٤ كتاباً)، والوعظ والأخلاق والرياضيات (١٤٣ كتاباً)، والطب (١٠ كتب)، والشعر واللغة (١٦ كتاباً)، والتاريخ والسير والجغرافية (٩٢ كتاباً)، كما أضافت ناجية عبد الله إبراهيم في كتابها: «قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي» الذي صدر عام (١٤٠٧ هـ) (٥٦ كتاباً) على القائمة التي عرضها عبد الحميد العلوجي في كتابه المذكور أعلاه. إذن يكون مجموع مؤلفات ابن الجوزي (٤٤٠ كتاباً).

ومن مؤلفات أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي التي تناقلها المؤرخون هي: المنتظم في أخبار الملوك والأمم (المعروف بتاريخ ابن الجوزي)، ومناقب أبي بكر رضي الله عنه، ومناقب عمر رضي الله عنه، ومناقب عثمان رضي الله عنه، ومناقب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومناقب عمر بن عبد العزيز، ومناقب أحمد بن حنبل، وتلقيح فهم أهل الآثار في مختصر السير

obeikandi.com

والأخبار، والأذكياء وأخبارهم، وروح الأرواح، وشرح طوق الحمامة، والمختار من الأشعار، وأخبار الأخبار، وشذور العقود في تاريخ العهود، وأخبار البرامكة، وأخبار النساء، وفنون الأفنان في عجائب القرآن، والحمقى والمغفلون، وأخبار النقباء، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، والوفا في فضائل المصطفى، وأسباب الهداية لأرباب البداية، ومثير عزم الساكن إلى أشرف الأماكن (في تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة)، وفضائل القدس، والمحتسب في النسب، وعيون الحكايات في سير سيد البريات، وفضائل العرب، وتقويم اللسان، والذهب المسبوك في سير الملوك، والاعتبار في الوعظ، وبستان الواعظين ورياض السامعين، ودفع شبهة التشبيه على المجسمة، والأديب في تفسير الغريب، وزاد المسير في علم التفسير، والجرح والتعديل، وأخبار الظرفاء والمتماجنين، ومناقب أصحاب الحديث، ومناهج الوصول إلى علم الأصول، والحث على طلب العلم، والنور في عدد الأيام والشهور، والطب الروحاني، والنطق المعلوم من أهل الصمت المعلوم، ومنتخب الألباب في الوعظ والأدب..إلخ.

كان عند أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي رغبة شديدة لطلب العلم منذ نعومة أظفاره، ويدل ذلك على سعيه الدائب وانصرافه عن متاع الدنيا في سبيله، حيث لم يلتزم بوظيفة حكومية، بل تفرغ معظم أيام حياته للتدريس والوعظ والإرشاد والتأليف، وعليه فرض موقفه التاريخي بين زملائه في فترة من الزمن كان الوضع السياسي في بغداد متدهوراً، فذاع صيته في جميع أرجاء الأمة العربية والإسلامية، ومن هنا قام أعداؤه بإقناع الخليفة بنفيه، فرحل إلى مدينة واسط التي بقي فيها خمس سنوات في حالة يرثى لها، إلى أن كبر ابنه الأصغر يوسف الذي تخصص في مجال الوعظ والإرشاد، فأقنع أم الخليفة آنذاك بالإفراج عن والده، وتم إطلاق سراحه سنة (٥٩٥ هجرية) (أي قبل وفاته بعامين).

ويثبت **شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي** في كتابه آنف الذكر حدث النفي بما نصه: «نال أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي محنة في أواخر عمره، ووشوا به إلى الخليفة الناصر عنه بأمر اختلف في حقيقته، فجاء من شتمه، وأهانه، وأخذه قبضاً باليد، وختم على داره، وشتت عياله، ثم أقعده في سفينة إلى مدينة واسط، فجلس بها في بيت حرج، وبقي هو يغسل ثوبه ويطبخ الشيء، فبقي على ذلك خمس سنين ما دخل فيها حمام.. وكان السبب في خلاص الشيخ أن ولده يوسف نشأ واشتغل، وعمل هذه المدة في الوعظ وهو صبي، وتوصل حتى شفعت أم الخليفة، وأطلقت الشيخ، وأتى إليه ابنه يوسف، فخرج».

وخلاصة القول: في الفترة التي عاشها أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي فقد خلفاء بني العباس في بغداد هيبتهم ونفوذهم السياسي في العالم الإسلامي، وصارت مدينة السلام (بغداد) مركزاً دينياً فقط، وأصبحت السلطة السياسية بيد السلاطين الأتراك والسلاجقة، وعلى الرغم من الوضع السياسي المتردي والهزيل بمدينة بغداد إلا أنها احتفظت بمكانتها العلمية، حيث كانت الملاذ والمرجع الفريد لجهابذة الفكر في العالم الإسلامي. والجدير بالذكر هنا أن هذه الحقبة من الزمن كانت مليئة بالتعلم متميزة بالاجتهاد والإبداع، لذا احتل أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي مكاناً مرموقاً بين علماء العرب والمسلمين قاطبة كمؤرخ لأحداث عصره، حيث احتوت كتبه في ميدان علم التاريخ على أحداث فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية وحالات طبيعية كثيرة.

ولقد بدأ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي حياته واعظاً وانتهى مؤرخاً مرموقاً. كما عرف منذ الصغر بكل من الفصاحة وقوة البيان والفطنة والفراسة، وكان أستاذ المناظرة العلمية في بغداد التي كانت تعقد في المساجد والجوامع. واشتهر بين معاصريه بالمطالعة والبحث، حيث جمع العلم من أطرافه وبذل في سبيل ذلك راحته ووقته الثمينين.

وصل علم التاريخ إلى درجة عالية من التقدم بفضل أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، لذا ليس غريباً أبداً أن يكون إنتاجه في هذا المجال منهلاً غزيراً يأخذ عنه الكثير من المؤرخين في المعمورة، والواضح أنه تميز عن غيره بكل من أفكاره العلمية الأصيلة وأسلوبه السهل الممتنع، وقدرته العجيبة على استخلاص الفائدة المرجوة من المصادر التي كان يرجع إليها وملاحظته القوية والسريعة بعلوم عصره. كما تفوق على زملائه باستنتاجاته للأحكام الشرعية وتسامحه وإخلاصه للحقيقة. وأخيراً أتمنى أن تكون هذه السيرة الموجزة لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي دافعاً لشباب الأمة العربية والإسلامية أن يدرسوا أعماله العلمية الرائعة التي سوف تقودهم إلى حيث المجد والسؤدد إن شاء الله.

obeikandl.com

عبد الواحد المراكشي

هو **عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي**، يكنى **بأبي محمد**، ويلقب **بالحافظ محيي الدين**، ولد بمدينة مراكش المغربية سنة ٥٨١ هجرية وذلك في بداية حكم أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب بن تاشفين الثالث من حكام الموحدين. ولم يبق طويلاً في مدينة مراكش، بل انتقل منها إلى مدينة فاس وهو في التاسعة من العمر ليتلقى تعليمه هناك على أيدي كبار المفكرين في بلاد المغرب، حيث كانت فاس هي حاضرة المغرب العربي حينئذ، وبعد أن أكمل تعليمه بمدينة فاس عاد إلى مسقط رأسه يدرس أبناءها، ولم يلبث طويلاً فيها حتى انتقل في سنة (٦٠٣ هجرية) إلى مدينة إشبيلية الجميلة التي استوطنها ردحاً من الزمن ثم قرر في سنة (٦١٣ هجرية) أن يترك كلاً من الأندلس والمغرب ويتجه إلى المشرق لكي يلتقي بجهابذة الفكر في مصر. وفي سنة (٦٢٠ هجرية) أدى مناسك الحج، ومن ثم تجول في معظم عواصم بلاد المشرق العربي. وبعد أن أكمل تأليف كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» سنة (٦٢١ هجرية) انقطعت أخباره، فلم يعرف أين ومتى توفي. والمتواتر عنه أنه كان يحب مجالسة العلماء الكبار والاستماع إليهم ومناقشتهم في بعض الأمور العلمية، وخاصة التي تتعلق في اهتماماته، وذلك لاستقصاء المعلومات عن الأحداث التاريخية وخاصة التي وقعت في بلاد المغرب العربي.

اشتهر أبو محمد عبد الواحد المراكشي بتواضعه ودماثة أخلاقه وحُسن معاملته للصغير والكبير. وكما برز أيضاً بين زملائه ببلاغته في الحديث وروعة أسلوبه في الكتابة، وفوق هذا كله عمل جهداً في بحوثه في ميدان علم التاريخ لكي تزداد معلوماته وتتسع آفاق معرفته، فألم بأطراف معرفة الأحداث التاريخية لبلاد المغرب العربي. وهذا يظهر واضحاً للقارىء في كتابه القيم: «المعجب في أخبار أهل المغرب» الذي انتهى من تأليفه (سنة ٦٢١

هجرية) والذي أصبح من المصادر الهامة جداً للدارسين والباحثين في مجال علم التاريخ وخاصة في الأمور التي تتعلق ببلاد المغرب العربي.

وينقل **علي أدهم** في كتابه آنف الذكر ما قاله كل من محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي في مقدمة (كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي): «فإن عبد الواحد المراكشي مؤرخ محقق جدير بالثقة والاعتماد على أحكامه، واحترام آرائه ونظراته، وتقدير نقداته وملاحظاته، يضاف إلى ذلك أنه مؤرخ رضي الأخلاق، جم التواضع، خفيف الظل، قريب من القلب، محبب إلى النفس، في أسلوبه بساطة ويسر وسهولة، وفي تحقيقه صراحة خلابة، ونزاهة جذابة، وكل هذه الصفات مجتمعة متوافرة تجعل قراءة كتابه أشبه بقراءة قصة شائقة مستمدة من واقع الحياة، قائمة على حقائق التاريخ. والشيخ عبد الواحد مع صراحته وقدرته على أن يصدع برأيه ويدلي بحجته، بعيد عن الادعاء والتفيهق، تشعر وأنت تسايره بأنك تستمع إلى رجل حسن الصحبة دمث الأخلاق، طيب النفس، لا يفرض عليك نفسه، ولا يحاول أن يرغمك على الإعجاب به، والإشادة بمواهبه وملكاته، والخضوع لآرائه وأحكامه بل هو على نقيض ذلك، ولعله يسرف بعض الإسراف في حرمان نفسه من حقها والنزول بها دون مستواها، وإذا كان ما يؤخذ على بعض المؤلفين استطالتهم، وفرط اعتزازهم بما يكتبون ويؤلفون فإن صاحبنا المراكشي قد برىء من هذا العيب، وسلم كل السلامة من هذا النقص، وضرب للمؤلفين مثلاً شروداً في الاعتدال والاتزان، والتواضع وطيب الخلال».

وخلاصة القول: بقيت بلاد المغرب العربي تنقصه المؤلفات التاريخية الجيدة مدة من الزمن، وذلك بسبب أن المؤرخين في المغرب العربي كانوا مهتمين في تصنيف المعاجم التي ضاع معظمها، لذا صار كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لأبي محمد عبد الواحد المراكشي المرجع الهام لتاريخ

دولة الموحدين التي نشأت في المغرب، وحكمت أيضاً الأندلس مدة طويلة من الزمن. وتواتر عن المؤرخين أن هذا الكتاب موضع الثقة وله قيمة تاريخية كبيرة، ويؤكدون ما ذكره عبد الواحد المراكشي عن كتابه: «لم أثبت في هذا الكتاب إلا ما حققته نقلاً عن كتاب أو سماعاً من ثقة عدل أو ما شاهدته بنفسي، هذا بعد أن تحريت الصدق، وتوخيت الإنصاف في ذلك كله، وجهدت ألا أنقص أحداً ذرة مما له ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه، وبالله أستعين وإياه أسأل وإليه أضرع في إلهام الصواب، والسداد في القول والعمل فهو حسبي ونعم الوكيل».

ويذكر **انجل جنثالث بالنثيا** في كتابه آنف الذكر أن العلامة دوزي قام بنشر الطبعة الأولى لكتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لأبي محمد عبد الواحد المراكشي سنة (١٢٧٣ هجرية) وأعاد طباعته في سنة (١٢٩٨ هجرية). كما ترجمه فانيان إلى اللغة الفرنسية ونشر الترجمة في الجزائر عام (١٣١١ هجرية). ثم خرج في ثوبه الجديد بعد أن حققه وعلق عليه كل من محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي في مصر سنة (١٣٧٠ هجرية)، لذا صار هذا الكتاب الثمين والحمد لله في متناول الباحثين في العالم العربي والإسلامي.

ولقد حاول أبو محمد عبد الواحد المراكشي أن يفهم الأحداث التاريخية عن بلاد المغرب، ويستوعبها استيعاباً صادقاً ودقيقاً، وأن يجعل لهذه الأحداث التاريخية مكانة خاصة في دراساته وتحرياته. بهذا المنهج الواضح استطاع أن يستجيش همم المؤرخين أن يدرسوا كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» الوحيد والفريد من نوعه، وعليه أرجو أن يخرج لهذا الكتاب القيم دراسة علمية متأنية لتزيح الستار عن آثاره الجليلة وتفيه بعض حقه؛ لأنه زاخر بالمعارف عن بلاد المغرب ومحكم التنسيق، تتجلى فيه إبداعات أبي محمد عبد الواحد المراكشي العقلية ومقدرته التاريخية، فالمراكشي هو الذي أرّخ لدولة المغرب بأكملها وسجل أخبار الأمة العربية والإسلامية بكل جرأة.

ياقوت الحموي

هو **ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي**، يكنى بأبي عبد الله، ويلقب **بشهاب الدين**. ولا نعرف بالضبط المدينة التي ولد فيها ولكن الثابت أنه ولد في بلاد الروم سنة (٥٧٥ هجرية)، واختطف صغيراً من بلاد الروم وأحضر أسيراً مع غيره من الأسرى إلى بغداد، فحرم عطف والديه، وعانى من ذلك الكثير في حياته، ولكن لُحسن حظه اشتراه التاجر عسكر بن أبي نصر بن إبراهيم الحموي، ورباه وعلمه، وسماه ياقوت بن عبد الله الحموي، وكما هو معروف أن ياقوت اسم حجر كريم يطلق عادة على الرقيق، وحيث إن والده مجهول أعطي اسم عبد الله، أما لقب الحموي فقد حاز عليه لأن التاجر الذي اشتراه لقبه الحموي. والجدير ذكره أن التاجر عسكر الحموي كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه يتقن الأعمال التجارية جيداً، لذا رأى أن يشتري ياقوت ليكون عوناً له في أعماله التجارية الخارجية، كما كان يحتاج أيضاً إلى كاتب لبيب ليضبط تجارته، وليقيد حساباته وليمسك دفاتره.

حسَّ عسكر الحموي أن عند مملوكه ياقوت موهبة وذكاء خارقين، لذا هم بجدية أن يعلمه عند أحد كتاتيب بغداد فقط القراءة والكتابة؛ لكي يستفيد منه في تجارته الواسعة، فلم تأخذ على ياقوت تعلم القراءة والكتابة وقتاً طويلاً، حتى أصبح يقرأ ويكتب عليه. عينه ليتولى التجارة الخارجية، حيث أرسله ليتاجر مع تجار جزيرة كيش الواقعة في الخليج العربي وعمان والشام فنجح نجاحاً باهراً. ولكن الود والتقدير لم يستمر طويلاً بين ياقوت وسيده، بل حصلت جفوة خطيرة إلى درجة أن التاجر عسكر الحموي فضل أن يعتقه لوجه الله تعالى؛ لأنه كان واثقاً أنه سيعيش حياته، وذلك سنة (٥٩٦ هجرية) (أي كان عمر ياقوت ٢١ سنة).

وبعض المؤرخين المشهورين يعللون سبب غضب التاجر عسكر الحموي

obeikandi.com

على ياقوت الحموي طباعه الحادة وعقده النفسية التي جاءته بسبب نشأته القاسية والمرة. على كل حال حاول ياقوت أن يمارس الأعمال التجارية، ولكن ليس عنده المال الذي يستطيع بواسطته أن يتاجر مع الآخرين لذا لجأ إلى نسخ الكتب للناس بالأجرة لكي يعيش بكرامة، وهذه الحرفة أفادته كثيراً، حيث جعلته يقرأ الكثير من المؤلفات القيمة، حيث أصبح حجة في كل من النحو والأدب والتاريخ، ولا شك أن اتجاهه إلى العمل في مجال نسخ الكتب أفاده كثيراً، حيث حصل على معارف متنوعة، فصار واسع الثقافة، وكسب عن طريقها أسلوبه السهل الممتنع البعيد كل البُعد عن التعقيد.

بقي التاجر عسكر الحموي يفكر في ياقوت بن عبد الله الحموي ووضعه؛ لأنه كان يكن له ولقدراته العقلية كل تقدير، لذا عرض عليه أن يعمل معه كشريك في أعماله التجارية، فقبل ياقوت بعد الإغراء، لذا أعطى عسكر الحموي ياقوت الحموي مالاً لكي يسافر إلى بعض البلدان في تجارة ووفق كثيراً في هذا المشروع؛ لأن مطالعة الكتب عرفته أشياء عظيمة، ولكنه عندما عاد من رحلته التجارية الطويلة الناجحة وجد شريكه التاجر النبيل عسكر الحموي قد انتقل إلى رحمة الله، فأعطى أرملته وأولاده حصتهم من المال، وأبقى نصيبه حسب الاتفاق الذي كان مبرماً بين التاجر عسكر الحموي وياقوت.

بعد وفاة عسكر الحموي قرر ياقوت الحموي أن يستمر في ممارساته للأعمال التجارية الخاصة به، ولكنه جعل الجزء الأكبر منها لتجارة الكتب التي كان يعتبرها جزءاً لا يتجزأ من حياته، فصار يطوف المدن الإسلامية حاملاً معه الكتب؛ لكي يبيعها على رجال العلم وليبدأ علاقاته العلمية مع كبار المفكرين في العواصم الإسلامية. والحقيقة الواضحة أن عمله في تجارة الكتب دفعه إلى المطالعة والدراسة والبحث والاستقصاء، وعليه أصبح عالماً يشار إليه بالبنان لثقافته العالية وعلمه الغزير وشعره الجيد. كما أنه مؤرخ ثقة ومن كبار الجغرافيين ومن علماء اللغة والأدب.

اهتم أبو عبد الله ياقوت الحموي في تجارة الكتب، فأخذت الكثير من وقته الثمين؛ لأنها كانت شغله الشاغل، إلى درجة أنه في النهاية انصرف عن التجارة العادية، وركز على جمع الكتب لقراءتها وبيعها، وعن طريقها طاف الآفاق، والتقى بكبار العلماء في العواصم الإسلامية. ولاشك أن التعامل في الكتب القيمة أتاحت لياقوت الحموي الاجتماع بجهابذة الفكر في العالم العربي والإسلامي، وأكسبته فرصة رائعة ليطلع على المعارف العظيمة التي أنتجتها القريحة العربية والإسلامية في كل من علم التاريخ والجغرافية والأدب والنحو والشعر.

وفي سنة (٦١٣ هجرية) ذهب ياقوت الحموي إلى مدينة دمشق عاصمة بلاد الشام والتي تعج آنذاك بالمكتبات والعلماء الكبار، وفعلاً حال وصوله إليها، قصد السوق الذي تكثر فيه المكتبات؛ لكي يشتري بعض الكتب القيمة، وهناك حصلت له مناظرة مع بعض طلاب العلم والمثقفين، فأغضبهم وأغضب جميع الموجودين، لذا خرج من دمشق سراً إلى حلب ثم إلى الموصل خائفاً يترقب نهايته، ولم يستقر في مدينة الموصل طويلاً، بل انتقل إلى إربل ومنها إلى خراسان، وأخيراً استقر في مرو لأنها كانت عامرة بالمكتبات والمدارس والعلماء المشهورين، فقام بالتأليف والمطالعة والنسخ بمدينة مرو، وتعتبر هذه الفترة من حياته أخصب فترة ولكنه لم يستمر بها، بل غادرها إلى نسا ثم خوارزم وبقي هناك فترة من الزمن، ولكنه لم يتمتع في إقامته؛ لأن خوارزم كانت مهددة بالانهيار بسبب الحرب القائمة على قدم وساق بين الخوارزميين والمغول ـ عليهم اللعنة ـ.

ويقول **شهاب الدين ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر: «ولولا ماعرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى الممات، لما في أهلها من الرق ولين الجانب وحُسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة بها، فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة..

وكثيراً ما كنت أترنم عند كوني بمرو بقول بعض الأعراب:

أقمرية الوادي التي خان إلفها من الدهر أحداث أتت وخطوب

تعالي أطارحك البكاء فإننا كلانا بمرو الشاهجان غريب»

بدأت تظهر في الشرق الأقصى دولة المغول التي سلطانها جنكيز خان، وفي سنة (٦١٦ هجرية) هجمت الجيوش المغولية على الدولة الخوارزمية المترامية الأطراف، وهزمت جيوش علاء الدين شاه خوارزم واستباحوا الأهالي وعذبوهم أقبح تعذيب وهدموا المدارس والمكتبات والبيوت وأحرقوا الكتب ونهبوا الثروات، وعليه خرج أبو عبد الله ياقوت الحموي بجلده من خوارزم هارباً تاركاً كل ما يملك من كتب وغيرها وراءه متجهاً إلى مدينة الموصل. والجدير بالذكر أن ياقوت الحموي عانى الأمرين في طريقه. فرأى حاجات من الأهوال يصعب شرحها. ويرى بعض المؤرخين أن خروج ياقوت الحموي من خوارزم سالماً معجزة، على كل حال وصل مدينة الموصل منهكاً، ولم يجلس فيها طويلاً، بل قرر أن يتوجه إلى سنجار التي ارتحل منها إلى مدينة حلب ومنها انتقل إلى مصر لمقابلة جهابذة الفكر هناك، ولكنه لم يمكث طويلاً، بل عاد إلى مدينة حلب التي استقر بها يقرأ ويؤلف حتى توفي (سنة ٦٢٦ هجرية).

والحقيقة أنه عندما وصل مدينة الموصل قادماً من رحلته الشاقة المحفوفة بالأخطار بقي هناك محتاراً قد تقطعت به الأسباب، مما جعله يكتب رسالة طويلة ومفصلة عن رحلته المشؤومة لوزير صاحب حلب المؤرخ جمال الدين أبي الحسن علي القفطي، يرجو منه أن يتكرم ويدعوه لزيارة مدينة حلب، لكي يتفرغ للقراءة والتأليف، وها أنا ذا أعرض مقاطع قصيرة منها كما وردت في كتابه «معجم الأدباء» ـ المجلد الأول ـ: «بسم الله الرحمن الرحيم أدام الله على العلم وأهليه، والإسلام وبنيه، ما سوغهم وحباهم، ومنحهم وأعطاهم، من سبوغ ظل المولى الوزير أعز الله أنصاره، وضاعف مجده

واقتداره، ونصر ألويته وأعلامه... وقد شهد الله تعالى للمملوك أنه في سفره وحضره، وعلنه وسره، وخبره ومخبره، شعاره تعطير مجالس الفضلاء، ومحافل العلماء، بفوائد حضرته، والفضائل المستفادة من فضيلته، افتخاراً بذلك بين الأنام وتطريزاً لما يأتي به أثناء الكلام.

إذا أنا شرفت الورى بقصائدي على طمع شرفت شعري بذكره

... وقد كان المملوك لما فارق الجناب الشريف، وانفصل عن مقر العز اللباب، والفضل المنيف، أراد استعتاب الدهر الكالح، واستدرار خلف الزمن الغشوم الجامح، اغتراراً بأن في الحركة بركة، والاغتراب داعية الاكتساب، والمقام على الإقتار ذل وانتقام، وجليس البيت في المحافل سكيت.

وقفت وقوف الشك ثم استمر لي يقيني بأن الموت خير من الفقر

وباكية للبين قلت لها اصبري فللموت خير من حياة على عسر

سأكسب مالاً أو أموت ببلدة يقل بها فيض الدموع على قبري»

... والمملوك مع ذلك يدافع الأيام ويزجيها، ويعلل المعيشة ويرجيها، متقنعاً بالقناعة والعفاف، مشتملاً بالنزاهة والكفاف، غير راض بذلك الشمل، ولكن، مُكره أخاك لا بطل.

إن كان لابد من أهل ومن وطن فحيث آمن من ألقى ويأمني»

قدم الوزير أبو الحسن علي القفطي الدعوة الرسمية للمؤرخ الكبير أبي عبد الله ياقوت الحموي لينتقل إلى مدينة حلب الشهباء من مدينة سنجار، ففرح ياقوت الحموي بذلك فرحاً شديداً. وفعلاً ارتحل إلى حلب، وأقام بخارجها، وبدأ يغربل المعارف المختلفة التي جمعها من المدن الإسلامية التي حل فيها، ثم شرع في تأليف كتابه «معجم البلدان» الذي أنجزه سنة (٦٢١ هجرية) والذي أهداه للوزير جمال الدين القفطي اعترافاً له بالجميل الذي أسداه إليه.

obeikandl.com

استطاع أبو عبد الله ياقوت الحموي ـ بمدينة حلب ـ أن يكرس جهده للقراءة والبحث والاستقصاء والكتابة، ويعقد الاجتماعات العلمية مع جهابذة الفكر في بلاد الشام، وذلك كله بسبب أن الوزير جمال الدين القفطي هيأ له الفرصة لكي يتفرغ للتأليف؛ لأنه يعرف تمام المعرفة أن عند ياقوت معارف كثيرة متناثرة حصل عليها من المدن الإسلامية العديدة التي زارها.. وليس هناك طريق واضح لحفظ هذه المعارف الثمينة التي ضاعت أصولها، إلا أن يتصدى لها أبو عبد الله ياقوت الحموي ليدوّنها في مصنفاته، لذا انتهى من تأليف كتابه «معجم البلدان» الذي لا يُعد معجماً جغرافياً فقط، بل المرجع لكل من علم التاريخ والأدب العربي، وهذه الموسوعة التي قال عنها المستشرق الفرنسي (**كارادوفو Carrade Vaux**): «إن معجم البلدان لياقوت الحموي الرومي من المؤلفات التي يحق للإسلام أن يفخر بها كل الفخر».

بدأ أبو عبد الله ياقوت الحموي كتابه «معجم البلدان» بمقدمة طويلة وخمسة أبواب فيها وصف الأرض وما فيها من الجبال والبحار، وتحدث عن الأقاليم السبعة والألفاظ الصعبة التي يتكرر ذكرها، وأقوال الفقهاء المتعلقة بالزكاة والجباية، ومعلومات تاريخية عامة تخص البلدان الإسلامية وغير الإسلامية، ثم أبرز المعلومات الجغرافية المرتبة على أحرف الهجاء حيث يذكر المكان موضحاً طريقة لفظه واشتقاقه اللغوي، وعندما يتعرض لذكر الأماكن المشهورة يقدم لها وصفاً دقيقاً ومفصلاً.

يقول **نقولا زيادة** في كتابه آنف الذكر: «يروي ياقوت أنه أثناء إقامته في مرو عرضت في مجلس صاحبها يوماً قضية تتعلق باسم مكان هل هو حباشة (بضم الحاء) أم حباشة (بفتح الحاء). فكانت هذه الحادثة دافعاً له على وضع المعجم.. يبدأ ياقوت معجمه بخمسة فصول، يتناول فيها صورة الأرض ومعنى الإقليم وإصلاحات جغرافية لازمة معرفتها مثل البريد والفرسخ، وحكم الأرضين من حيث الفتح والخراج والشرع في ذلك، وجملاً من أخبار

البلدان، ثم يبدأ ترتيب معجم البلدان على حروف الهجاء. والمعجم بالذات معين لا ينضب للمعرفة الجغرافية البلدانية والاقتصادية والبشرية ومثل للعمل المنظم، ولم يقتصر المؤلف على العالم الإسلامي، بل تناول مناطق أخرى مجاورة له، إلا أنه بالنسبة للعالم الإسلامي يعطينا صورة واضحة له، قبل أن يهدم التتار بعض أجزائه».

أما كتاب: «معجم الأدباء» الذي سماه مؤلفه ياقوت الحموي: (كتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وهذا الكتاب بالحقيقة عبارة عن موسوعة تاريخية متكاملة، تحتوي على معلومات نادرة وقيمة عن علماء العرب والمسلمين الأوائل ليس فقط في الأدب والتاريخ، ولكن في معظم فروع المعرفة.. فقد أثبت أبو عبد الله ياقوت الحموي بطريقة نزيهة جداً تاريخ الولادة أو الوفاة لكل من ترجم له، وكذلك تمكن من إبراز عدد من مؤلفاتهم ونوعها والمشهور من أخبارهم، وبعض المختار من شعرهم والمستجاد من نثرهم، ورتب معجمه هذا على حروف الهجاء من الألف إلى الياء.. ولاشك أن هذه الموسوعة تجعل القارىء يعترف بأن أبا عبد الله ياقوت الحموي كان من المثقفين الموسوعيين المتمكنين من الإلمام بعدة فروع أساسية من فروع المعرفة.

يقول **أبو عبد الله ياقوت الحموي** في مقدمة كتابه «معجم الأدباء» ــ المجلد الأول ــ: «جمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي من أخبار النحويين، واللغويين والنسابين، والقراء المشهورين، والإخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين، والكتاب المشهورين، وأصحاب الرسائل المدونة، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة، وكل من صنف في الأدب تصنيفاً، أو جمع تأليفاً مع إيثار الاختصار والإعجاز في نهاية الإيجاز، ولم آل جهداً في إثبات الوفيات، وتبيين المواليد والأوقات وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم، والإخبار بأنسابهم، وشيء من أشعارهم.. وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء

المعول في هذا الشأن عليهم، والمرجوع في صحة النقل إليهم.. وإنما تصديت لجمع هذا الكتاب لفرط الشغف والغرام، والوجد بما حوى والهيام، لا لسلطان أجتديه، ولا لصدر أرتجيه، غير أني أرغب إلى الناظر فيه أن يترحم عليّ، ويعطف جيد دعائه إليّ فذلك ما كلفة فيه عليه، ولا ضرر يرجع به إليه، فربما انتفعت بدعوته، وفزت بما قد أمن هو من معرته (المعرة: المساءة والإثم).. واعلم أنني لو أعطيت حمر النعم وسودها، ومقانب الملوك وبنودها، لما سرني أن ينسب هذا الكتاب إلى سواي وأن يفوز بقصب سبقه إلاي لما قاسيت في تحصيله من المشقة، وطويت في تكميله من طول الشقة (الشقة: السفر البعيد، والمسافة التي يشقها المسافر)».

ولأبي عبد الله ياقوت الحموي مؤلفات أخرى تناقلها المؤرخون الذين تناولوا سيرته لأهميتها في مؤلفاتهم، والتي ضاع معظمها ومنها: كتاب المشترك وضعاً والمختلف صقعاً، وكتاب المقتضب من جمهرة النسب، وكتاب أخبار المتنبي، وكتاب أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء، وكتاب المبدأ والمآل في التاريخ، وكتاب الدول، وكتاب مجموع كلام أبي علي الفارسي، وكتاب أوزان الأسماء والأفعال الحاصرة لكلام العرب، وله أيضاً رد على ابن جني في كلامه على الهمزة والألف في سر الصناعة.

وصدق **عبد الفتاح محمد الحلو** عندما قال في كتابه «أعلام التراث الإسلامي»: «وتعجب لهذا الرجل الذي لم يذق طعم الاستقرار في حياته، حيث خطف طفلاً من بلاده، ثم ارتحل فتى في سبيل التجارة كما سافر من بلد إلى بلد بقية عمره مطارداً لمناظرة اشترك فيها أو خوفاً من الموت على يد التتار، تعجب له كيف حصل هذا العلم وكيف تلقى هذه المعارف، ثم كيف أتيح له بعد ذلك أن يترك هذه المؤلفات الضخمة التي تدل على أدب باهر، وبصر عظيم باللغة العربية والمعارف الإسلامية».

خلاصة القول: الكثير من المؤرخين المسلمين بدؤوا حياتهم في مزاولة

الأعمال التجارية، لذا فإن معظمهم كانوا يمتلكون خبرة جيدة في هـذا المجـال الحيوي. والمعروف آنذاك أن رجال الأعمال لهم تأثير عظيـم علـى السياسـيين الذين يمكنهم تمويل المكتبات والمدارس، فلم يشـذ يـاقوت الحمـوي عـن هـذه الظاهرة التي زاولها مزاولة حقيقيـة في ريعـان شـبابه لمـا كـان مملوكـاً. ولكنـه عندما حصل على حريته ترك التجارة واتجه إلى نسخ الكتب بـالأجرة، وهـذا خلق لديه حب الدراسة والبحث والاستقصاء، معتمداً بذلك على نفسه؛ لأنه لم يتتلمذ على كبار العلماء في العالم الإسـلامي، بـل درس وتعلـم في مدرسـة الحياة، حيث إن سيده عسكر الحموي لم يسمح لـه بتعلـم أكـثر مـن القـراءة والكتابة على كتاتيب بغداد.

ولقد سبق أبو عبـد الله يـاقوت الحمـوي العـالم الفلكـي الإيطـالي غليلـو غـاليلي (٩٧٠ ـ ١٠٥٢ هجريـة) بمعرفـة كرويـة الأرض حيـث هـو القـائل: الأرض مدورة وهي في جوف الفلـك مثـل صفـار البيـض. كمـا ذاع صيتـه بـين زملائه بثقافته الواسعة التي جناها من تعامله مع الكتب المتنوعة. لذا يُعتـبر بحـق في طليعة جامعي المعلومات ومنسقي الأخبار والروايات، عنـده صفـة بـرز بهـا علـى معاصريه وهي أنه يشك فيما يسمع، والشك بالحقيقة طريق الوصول إلى اليقين.

لاشك أن الفضل يرجع أولاً وأخيراً للوزير جمال الدين القفطي الذي أتـاح لأبي عبد الله ياقوت الحموي الفرصـة الذهبيـة أن يجتمـع بالعلمـاء الكبـار في بـلاد الشــام، وأن ينـاقش معهــم المعــارف التاريخيــة والجغرافيــة والأدبيــة والاقتصادية التي جمعها، لذا أنتج موسوعات علمية لا يستغني عنها الباحث في كل من علم التـاريخ وعلـم الجغرافيـة والأدب العربـي، حيـث كـان يسـتقصي الأخبار والروايات التاريخية، ويُدققها ويُعلق عليها تعليقاً علمياً نزيهاً، ويعطـي رأيه الشخصي فيها.

عز الدين ابن الأثير الجزري

هو **علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني**، ويعرف بين المؤرخين في المعمورة **بابن الأثير الجزري**، وسمي الجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر، وهي البلدة التي يحيط بها نهر دجلة من ثلاث جهات والتي تقع فوق الموصل، وكنيته **أبو الحسن**، وفي بعض الأحيان يدعى بعز الدين، أما لقبه **فابن الأثير**. وتلقى تعليمه الأولي بالجزيرة العمرية التي ولد فيها سنة (٥٥٥ هجرية)، ولكنه لم يستمر فيها بل انتقل **عز الدين** مع والده وأخويه إلى الموصل التي كانت تعج بجهابذة الفكر. واستوطن مدينة الموصل وتتلمذ على كبار العلماء هناك وتوفي فيها عام (٦٣٠ هجرية)، وعرف بين معاصريه بالموصلي لأنه قضى معظم أيام حياته فيها. وهو أخ لكل من المحدث اللغوي مجد الدين أبي السعادات المبارك صاحب كتابي: النهاية، وجامع الأصول، والوزير الأديب ضياء الدين أبي الفتح نصرا لله الذي له كتاب المثل السائر، لذا يتضح للقارىء أنه نما وترعرع أبو الحسن علي بن الأثير في بيت علم وثراء وجاه.

لقد زار أبو الحسن علي بن الأثير الجزري أعداداً كبيرة من البلدان الإسلامية مثلاً ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ: بغداد وحلب ودمشق والقدس، وهذه المدن العريقة كانت مراكز للمعرفة، بهذا قابل عمالقة الفكر في العالم الإسلامي وتتلمذ عليهم، فاتسعت مداركه ونبغ في كل من علم التاريخ والحديث والأدب. وفي آخر أيام حياته انقطع للعمل والتأليف، وتدريس طلاب العلم النابهين، حيث صار بيته منتدى علمياً في مدينة الموصل للمؤرخين والأدباء والفضلاء. والجدير بالذكر أنه اشتهر بتحريه للحقيقة مهما كلفه هذا. وقد تمكن بجدارة من جمع خلاصة كتب التاريخ التي كانت موجودة حينئذ في مؤلفاته المختلفة. لذا أصبحت مصنفاته مراجع هامة جداً للباحثين والدارسين، وهذا ليس بغريب فقد شهد له بالذكاء والحفظ والعلم.

يقول **أحمد مصطفى** الشهير بطاش كبرى زاده في كتابه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» في موضوعات العلوم ـ الجزء الأول ـ: «سار عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير إلى الموصل مع أخويه مجد الدين أبي السعادات المبارك، وضياء الدين أبي الفتح نصر الله، ووالده محمد، وسكن الموصل، وسمع بها، وقدم بغداد وسمع من فضلائها، ثم رحل إلى الشام والقدس، وسمع هناك من جماعة، ثم عاد إلى الموصل، ولزم بيته منقطعاً إلى التوفر على النظر في العلم، وكان بيته مجمع فضلاء الموصل والواردين عليها. وكان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظاً للتواريخ المتقدمة وخبيراً بأنساب العرب ووقائعهم وأخبارهم وأيامهم».

على الرغم من أن عز الدين ابن الأثير كان مغرماً بعلم الحديث إلا أنه كان يرى في البحث وتقصي الحقائق في علم التاريخ متعة ولذة. لذا عرض بعض الظواهر التاريخية بطريقة علمية. وانتقد بكل صراحة بعض الأخبار التاريخية التي لا تستند إلى وثائق تاريخية، ومؤلفاته القيمة تمتاز بعباراتها السهلة المرسلة وبتوثيق أفكارها المختلفة، لذا تعتبر بحق من أوثق وأصدق المصادر التاريخية، ومنها: كتاب الكامل في التاريخ، وكتاب الباهر في الدولة الأتابكية، وكتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة، وكتاب اللباب في تهذيب الأنساب، وكتاب أدب السياسة، وكتاب الجامع الكبير في علم البيان، وكتاب الموصل لم يتممه، وكتاب تحفة العجائب وطرافة الغرائب، وكتاب الجهاد. والحقيقة أنه ضرب بسهم وافر في كل أبحاثه التاريخية والأدبية والفقهية.

كان لأبي الحسن علي بن الأثير منهج واضح في ميدان علم التاريخ أبرزه في موسوعته التاريخية التي بعنوان: «الكامل في التاريخ» حيث يقول في ـ المجلد الأول ـ من هذا الكتاب القيم ما نصه: «أما بعد، فإني لم أزل محباً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مؤثراً للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيها، مائلاً إلى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها،فلما

تأملتها متباينة في تحصل الغرض، يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل إلى العرض، فمن بين مطول قد استقصى الطرق والروايات، ومختصر قد أخل بكثير مما هو آت، ومع ذلك فقد ترك كلهم العظيم من الحوادث، والمشهور من الكائنات، وسود كثير منهم الأوراق بصغائر الأمور التي الإعراض عنها أولى، وترك تسطيرها أحرى.. فلما رأيت الأمر كذلك شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان، متتابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا، ولا أقول: إني أتيت على جميع الحوادث المتعلقة بالتاريخ، فإن من هو بالموصل لابد أن يشذ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب، ولكن أقول: إنني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحة ذلك».

خلاصة القول: كان وضع الأمة الإسلامية في الحقبة التي عاش فيها أبو الحسن علي بن الأثير سيئاً جداً، حيث كانت الصراعات المشينة في المشرق والمغرب على أشدها، علاوة على ذلك قامت جيوش جنكيز خان باجتياح البلدان الإسلامية مستهدفة بذلك قيام إمبراطورية مغولية عالمية. وبهذا عملوا أعمالاً قبيحة لا يقبلها الإنسان السوي، بل تقشعر لها الأبدان وتشمئز منها الأنفس. فقد نهبوا البيوت وقتلوا الناس الأبرياء بعشرات الآلاف. وعليه كرّس أبو الحسن علي بن الأثير جهوده الجبارة في إبراز وتحليل هذه التصرفات الهمجية لكي يتعظ منها التابعون. ولأنه شهد بنفسه مشاهد خطيرة جداً من الأحداث. أصر حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ الأتابكي عليه أن يخرج موسوعته التاريخية الشهيرة المعروفة باسم «الكامل في التاريخ» التي تحتوي على معلومات نادرة ومختصرة عن كل من بني إسرائيل والفرس والنصارى والعرب في الجاهلية، وأحداث التاريخ الإسلامي إلا ما يتصل بعصره، فقد قدم روايات تاريخية مفصلة وقيمة، أصبحت في متناول المؤرخ اللبيب.

ولقد حاول أبو الحسن علي بن الأثير الجزري أن يكون منصفاً بارعاً في جميع رواياته التاريخية، لذا كان يصفه المؤرخون في المعمورة بالاتزان في بحوثه التاريخية. والجدير ذكره أن منهجه في مجال علم التاريخ تميز بأنه تخلص بطريقة علمية من حشد الأسانيد التي كان يستخدمها معاصروه والتي كانت تعيق متابعة القارىء للحدث التاريخي، مع العلم أنه حافظ على توثيق جميع معارفه، بهذا تمكن بجدارة من تقديم تصور شامل للعلم.

عرف علي بن الأثير بتواضعه وكرم أخلاقه وغزارة مادته ورسوخ علمه وحماسه المنقطع النظير لمحاربة الغزاة الدخلاء من الصليبيين والتتر والمغول الذين دخلوا البلدان الإسلامية وأفسدوها، لذا كانت كتاباته لا يرضى عنها عملاء المستعمرين. وعليه فإن مؤلفاته تشتمل على معلومات نادرة عن الأيوبيين والزاكيين والصليبيين والتتر والمغول، بهذا صارت هي المصادر الفريدة التي يمكن أن يعول عليها الباحثون في ميدان علم التاريخ.

جمال الدين القفطي

هو **علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي**، وكنيته **أبو الحسن**، ويدعى في بعض الأحيان **بجمال الدين**، ويلقب **بالقاضي الأكرم**؛ لأنه كان من أشهر قضاة الأيوبيين، حيث كان قاضياً في عهد الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب، كما أنه أيضاً كان وزيراً مرموقاً للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين بن أيوب، وذلك سنة (٦٣٣ هجرية). ولد جمال الدين القفطي بعد سنة واحدة من إعلان صلاح الدين الأيوبي نفسه سلطاناً على مصر (أي عام ٥٦٨ هجرية) بمدينة قفط من الصعيد الأعلى بمديرية قنا بمصر، وهذا سبب تسميته بالقفطي.

نما أبو الحسن القفطي وترعرع بمدينة القاهرة التي كانت تعج بكبار المفكرين الذين تتلمذ على بعضهم، ولما برع في كل من التاريخ والأدب والنحو والفقه والحديث والمنطق والرياضيات والفلك والهندسة، انتقل إلى القدس بعدما فتحها صلاح الدين الأيوبي (أي بعد الانتصار الحاسم في حطين سنة ٥٨٣ هجرية) وكان في ريعان شبابه، فمكث فيها مدة من الزمن يتلقى العلم ويعلمه، ولكنه ما لبث أن تحرك نحو مدينة حلب الشهباء فاستوطنها من عام (٥٦٨ هجرية) إلى أن توفي سنة (٦٤٦ هجرية)، حيث زاول فيها القضاء والوزارة، وصار من علمائها المتميزين، حيث كان حريصاً جداً على اقتناء الكتب القيمة مهما كان الثمن، كما أنه لم يتزوج أبداً، لذا ركّز على بناء مكتبته الشهيرة التي جمع فيها الكتب من الآفاق ومن مؤلفاته العديدة، وقد أوصى بها للناصر صاحب حلب، وهكذا ترك وراءه ثروة عظيمة من الكتب قضى عليها الصليبيون.

يقول **محمد بن شاكر الكتبي** في كتابه آنف الذكر: «القاضي الأكرم الوزير جمال الدين أبو الحسن ابن القفطي، أحد الكتاب المشهورين، وكان

أبوه القاضي الأشرف كاتباً أيضاً. ولد بقفط من الصعيد الأعلى بالديار المصرية وأقام بحلب، وكان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل، وكان صدراً محتشماً كامل السؤدد، جمع من الكتب ما لا يوصف وقصد بها من الآفاق، وكان لا يحب من الدنيا سواها، ولم يكن له دار ولا زوجة، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب وكانت تساوي خمسين ألف دينار، وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب».

لقد استفاد جمال الدين القفطي فائدة كبيرة من صلاته القوية بحكام الدولة الأيوبية، حيث حصل على معلوماته الأولية من مصادرها الأصلية وقد استخدمها في تأليف كتبه القيمة. والجدير بالذكر أن الكثير من المؤرخين نوهوا عن عدد ونوعية كتبه بطريقة تدل على أن أبا الحسن القفطي كان يتبوأ مكانة عالية بين زملائه، ومن بين هؤلاء المؤرخين ياقوت الحموي الذي ذكر في كتابه آنف الذكر قائمة طويلة منها وهي: كتاب الضاد والظاء، وكتاب الدر الثمين، وكتاب من ألوت الأيام عليه فرفعته ثم التوت عليه فوضعته، وكتاب أخبار المصنفين وما صنفوه، وكتاب أخبار النحويين، وكتاب تاريخ مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين، وكتاب المغرب ومن تولاها من بني تومرت، وكتاب تاريخ اليمن، وكتاب المحلى في استيعاب وجوه كلا، وكتاب الإصلاح لما وقع من الخلل في كتاب الصحاح للجوهري، وكتاب الكلام على الموطأ، وكتاب الكلام على الصحيح للبخاري، وكتاب تاريخ محمود بن سبكتكين وبنيه إلى حين انفصال الأمر عنهم، وكتاب أخبار السلجوقية، وكتاب الإيناس في أخبار آل مرداس، وكتاب الرد على النصارى وذكر مجامعهم، وكتاب مشيخة زيد بن الحسن الكندي، وكتاب نهزة الخاطر ونزهة الناظر في أحسن ما نقل من على ظهور الكتب، وكتاب إنباه الرواة على أنباء النحاة.

وخلاصة القول: أدرك أبو الحسن علي القفطي الحقبة التي كانت الدولة الأيوبية في عز مجدها أيام الملك صلاح الدين الأيوبي، ولكن العائلة الأيوبية انقسمت واختلفت فيما بينها، وصار صراع شديد بين الملوك الأيوبيين، مما جعلهم يستعينون بالجنود المماليك المجلوبة من مختلف البلاد المجاورة، وهذا أعطى المماليك السلطة والنفوذ والحكم والإدارة والقوة الحربية، واستمرت الحالة في تدهور إلى أن تآكلت الدولة الأيوبية بعد وفاة جمال الدين القفطي بأربع سنوات، وهكذا قامت دولة المماليك سنة (٦٥٠ هجرية). ولاشك أن جمال الدين القفطي استفاد فائدة عظيمة من معايشته لهذه الأحداث التاريخية، حيث دونها في كتبه، لذا أصبحت مؤلفاته من المصادر الهامة التي لا يستغني عنها الباحث ليس فقط في فترة حكم الأيوبيين، ولكن في علم التاريخ بوجه عام.

وكان أبو الحسن علي القفطي ذا مقام كبير عند قادة الدولة الأيوبية، حيث أحاطوه بضروب من الرعاية والعناية، وولوه مناصب قيادية في دولتهم، وهذا ساعده في جمع مادته التاريخية التي استخدمها في مؤلفاته العديدة، وعليه كان له أكبر الأثر في تقدم علم التاريخ بين المؤرخين العرب والمسلمين. والحقيقة أن الوزير الأكرم جمال الدين القفطي عمل أعمالاً جليلة يحمد عليها في خدمة أمته، وذلك عن طريق إِسهاماته العلمية المتنوعة، فعلى سبيل المثال لا الحصر نال شهرة عظيمة بين زملائه والتابعين بكتابه القيم «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» الذي يحتوي على تراجم العلماء وأخبار مصنفي الكتب والحكماء، وللأسف الشديد أن هذا الكتاب لم يحقق ويطبع حتى يومنا هذا، بل لا يزال على أحد رفوف مكتبة (بني جامع) في الآستانة ينتظر أحد أبناء الأمة العربية والإسلامية أن يقوم بهذا الجهد الحميد.

قام محمد بن علي بن محمد الزوزني باختصار كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لجمال الدين القفطي وأعطاه اسم «تاريخ الحكماء» (وهو معروف بالأوساط العلمية أنه مختصر الزوزني المسمى «بالمنتخبات الملتقطات من كتاب

إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لجمال الدين القفطي). وللمعلومة فإن لهذا الكتاب شأناً كبيراً في عالم الفكر والارتقاء التاريخي، حيث هو الأساس الذي شيدت عليه الكتابة الدقيقة المحققة عبر العصور في دراساتهم عن تراجم العلماء. وأخيراً لا يخفى على القارىء أن أبا الحسن القفطي يعد من عباقرة العالم العربي والإسلامي الذين وضعوا أسساً هامة في مجال علم التاريخ.

obeikandl.com

عمر بن العديم

هو **عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي**، كنيته **أبو القاسم**، وفي بعض الأحيان يدعى **كمال الدين**، لقبه **ابن العديم**، وقد اختلف في سبب هذه التسمية، لكن ياقوت الحموي ينقل في كتابه آنف الذكر عن ابن العديم أنه عندما سأله: لم سميتم ببني العديم؟ قال: «هو اسم محدث لم يكن آبائي القدماء يعرفون بهذا، ولا أحسب إلا أن جد جدي القاضي أبا الفضل هبة الله بن أحمد بن زهير بن جرادة ـ مع ثروة واسعة، ونعمة شاملة ـ كان يكثر في شعره من ذكر العدم، وشكوى الزمان، فسمي بذلك، فإن لم يكن هذا سببه فلا أدري ما سببه؟».

ولد عمر بن العديم بمدينة حلب الشهباء سنة (٥٨٦ هجرية)، وتلقى تعليمه الأولي فيها على أيدي كبار المفكرين، ختم القرآن حفظاً وله تسع سنين، ولكنه لم يكتف بذلك، بل كان يتنقل مع والده في رحلات كثيرة بين دمشق والقدس والعراق ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وهو في ريعان شبابه لطلب العلم حتى نبغ في كل من علم التاريخ والأدب والشعر والفقه والحديث، كما اشتهر بين زملائه ببلاغته وبيانه وأسلوبه الرائع، فهو مؤرخ عظيم من أهل حلب امتاز عن غيره بعمق وسعة ثقافته في ميدان علم التاريخ، حيث إن معظم مؤلفاته تحوم وتدور حول الموضوعات التي لها علاقة قوية بالأحداث التاريخية.

نشأ أبو القاسم عمر بن العديم في بيئة علم وثراء في وقت كان الناس في أمس الحاجة إلى لقمة العيش، كما أنه كان منذ نعومة أظافره وهو يجالس كلاً من رجال الدولة والعلماء المرموقين، لذا كان معلماً ناجحاً حتى صار طلاب العلم يأتون ليتتلمذوا على يده من كل حدب وصوب. زار مصر التي كانت تعج بجهابذة الفكر حينئذ، وبقي هناك مدة من الزمن بين علمائها،

obeikandl.com

ولكنه ما لبث أن عاد إلى مسقط رأسه مدينة حلب، فرأى ما عمله المغول من خراب لهذه المدينة الآمنة، فحزن حزناً شديداً، وعاد إلى مصر مرة ثانية، ولكنه لم يبق طويلاً، بل توفي بعد سنتين، وذلك عام (٦٦٠ هجرية).

يقول **ياقوت الحموي** في كتابه آنف الذكر: «إن الله عز وجل عني بخلقة عمر بن أحمد بن أبي جرادة (المعروف بابن العديم)، فأحسن خلقه وخُلُقه وعقله وذهنه وذكاءه، وجعل همته في العلوم ومعالي الأمور، فقرأ الأدب وأتقنه، ثم درس الفقه فأحسنه، ونظم القريض فجوده، وأنشأ النثر فزينه، وقرأ حديث الرسول ﷺ وعرف علله ورجاله، وتأويله وفروعه وأصوله، وهو مع ذلك قلق البنان جواد بما تحوي اليدان، وهو كاسمه كمال في كل فضيلة، لم يعتن بشيء إلا وكان فيه بارزاً، ولا تعاطى أمراً إلا وجاء فيه مبرزاً، مشهور ذلك عنه لا يخالف فيه صديق ولا يستطيع دفاعه عدو».

يعتبر عمر بن العديم عالماً متمكناً في مجال علم التاريخ، حيث كانت أعماله أعمالاً مستقلة، فلم يقلد فيها المؤرخين السابقين له، هذا يظهر من مؤلفاته العديدة التي ذكر بعضها محمد بن شاكر الكتبي في كتابه آنف الذكر ومنها: كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب (اختصره في كتاب آخر سماه زبدة الحلب في تاريخ حلب)، وكتاب سوق الفاضل، وكتاب التذكرة، وكتاب الدراري في الذراري، ورسالة في وصف الطبيب، وكتاب ضوء الصباح في الحث على السماح، وكتاب الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة، وكتاب دفع الظلم والتحري عن أبي العلاء المعري، وكتاب الخط وآدابه ووصف طروسه وأقلامه، وكتاب تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد.

وخلاصة القول: ركّز عمر بن أحمد العديم في دراساته وبحوثه على الأحداث التاريخية؛ لأنه يعتقد أنه ليس بالإمكان فهم الحاضر دون الرجوع إلى دراسة الماضي بحيثياته المختلفة، الإيجابية منها والسلبية، كما شجعه أيضاً على هذا الاتجاه اهتمام الخلفاء والأمراء والحكام حينئذ بعلم التاريخ؛ لأنه

يحتوي على معلومات ثمينة جداً كانوا يأخذون منها العبرة والموعظة. وعليه أثرى كمال الدين عمر بن العديم المكتبة الإسلامية بإسهاماته الرائعة في هذا المجال الحيوي وغيره.

ولقد مر كمال الدين عمر بن العديم بظروف قاسية جداً، حيث إن الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي في عهده كانت غير مستقرة، بل مضطربة، فقد اجتاحت جيوش المغول بغداد عام (٦٥٦ هجرية) وقضت تماماً على الخلافة العباسية هناك، ثم زحفوا على بلاد الشام الآمن وعملوا أعمالاً همجية خطيرة، فانزعج كمال الدين بن العديم من هذا التصرف الذي ينم عن جهل وعداوة، ولكن الشعرة التي قصمت ظهر البعير التخريب الذي حصل من جيوش المغول الطاغية لمدينة حلب مسقط رأسه، مما جعله لا يستطيع البقاء فيها فاتجه إلى مصر ليسكنها، ولكنه لم يبق طويلاً هناك، حيث توفي بعد عامين والحزن والآسى يمزقان أحشاءه.

كان أبو القاسم بن العديم يتصف بصفات نادرة، فكان محدثاً بارعاً بليغاً ومؤرخاً أميناً حافظاً ومحللاً منطقياً، وقد امتدحه ياقوت الحموي في كتابه المذكور سابقاً قائلاً: «عمر بن العديم أتى من بيت أبي جرادة، بيت مشهور من أهل حلب، أدباء شعراء فقهاء، عباد زهاد قضاة، يتوارثون الفضل كابراً عن كابر وتالياً عن غابر». والمتواتر أن أبا القاسم ابن العديم قضى جل وقته في المطالعة والكتابة في علم التاريخ حتى صار إماماً لعلماء التاريخ، يشهد له الكافة ويقتدي به طلاب العلم، فقد خلف مؤلفات عديدة تدل على علو كعبه، وأصالة فكره، وهكذا يقف ابن العديم عملاقاً بين مؤرخي المسلمين الذين خدموا الحضارة العربية والإسلامية.

عبد الرحمن أبو شامة

هو **عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي** وفي بعض الأحيان يسمى **الدمشقي**، كنيته **أبو محمد**، ولقبه **شهاب الدين**، ولكنه عرف بأبي شامة لأن فوق حاجبه الأيسر شامة كبيرة. ولد بمدينة دمشق سنة (٥٩٩ هجرية)، ونما وترعرع في بيئة متواضعة، فعائلته التي أصلها من القدس لم يذكر لأفرادها تفوق علمي أو سياسي، وهذا لم يؤثر أبداً على شعور عبد الرحمن أبي شامة، بل على العكس تماماً اهتم في دراسة العلوم المختلفة، وحفظ القرآن وهو في سن العاشرة من العمر، ونال شهرة عظيمة في ريعان شبابه كمفسر وفقيه وأصولي ونحوي ومنطقي بليغ، ولكنه في آخر أيام حياته اتجه إلى دراسة علم التاريخ، فنبغ فيه وكتب فيه كتابات في غاية الأهمية.

أدى شهاب الدين أبو شامة مناسك الحج بصحبة والده سنة (٦٢١ هجرية)، وهناك التقى بكبار أساتذة الحديث والفقه ونهل من غزير علومهم، وبعد ثلاث سنوات زار القدس للدراسة والبحث والصلاة في المسجد الأقصى، ولم يكتف بهذا بل قام برحلة علمية لمصر سنة (٦٢٨ هجرية)، والثابت أن جميع رحلاته لطلب العلم وليست للنزهة. والجدير ذكره أن عبد الرحمن أبا شامة انصرف تماماً عن المناصب الحكومية، وتفرغ للدراسة والبحث والتدريس، لذا تتلمذ على يده أعداد هائلة من طلاب العلم الذين أتوا إلى مدينة دمشق من كل حدب وصوب؛ لكي ينهلوا من ثقافته المتنوعة، فأخذوا من كل علم بنصيب. اشتهر شهاب الدين أبو شامة بين معاصريه بالنزاهة والصدق وسلاسة الأسلوب، لذلك عُين مدرساً في المدرسة الركنية سنة (٦٦٠ هجرية) ولم يستمر فيها طويلاً، بل نقل إلى المدرسة الأشرفية كمدرس، وأسند إليه مشيخة دار الحديث الأشرفية، وبقي يزاول وظيفته إلى أن قتل سنة (٦٦٥ هجرية).

obeikandi.com

يرى شهاب الدين أبو شامة أن مهنة التدريس أشرف مهنة على وجه البسيطة، لذا فرغ نفسه لهذه المهمة، وكان أستاذاً متواضعاً زاهداً في الدنيا وحطامها متمكناً من مادته. لم يحاول أبداً أن يجعل بينه وبين سواد الناس أي حاجز، فبيته كان مفتوحاً لطلاب العلم وغيرهم. والمتواتر أن اثنين جبليين دخلا بيته ومعهما فتوى فضرباه ضرباً شديداً، فمرض نتيجة لهذا الضرب ومات بعد فترة وجيزة، ويقول **تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السُّبكي** في كتابه آنف الذكر حول هذا الحادث الأليم: «ودخل على شهاب الدين أبي شامة اثنان إلى بيته في صورة المستفتين فضرباه ضرباً مبرحاً، فاعتل به إلى أن مات، في سنة خمس وستين وست مئة، وكتب هو في (تاريخه) المحنة التي اتفقت له، وذكر تفويض أمره إلى الله تعالى، وعدم مؤاخذة من فعل ذلك، وأنشد لنفسه:

قل لمن قال أما تشتكي ... ماقد جرى فهو عظيم جليل

يقيض الله تعالى لنا ... من يأخذ الحق ويشفي الغليل

إذا توكلنا عليه كفى ... فحسبنا الله ونعم الوكيل»

كتب شهاب الدين أبو شامة في شتى فروع المعرفة، وتفوق فيها إلى درجة جعلت حكام زمانه يحترمونه احتراماً يليق بمكانته العلمية المرموقة. وعليه ركّز في آخر أيام حياته على علم التاريخ لأهميته ولصلته القوية في جميع العلوم. وقد ورد في مصادر كثيرة بعض مؤلفاته في ميدان علم التاريخ. ولاشك أن أبرز مؤلفاته في هذا المجال كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» (الصلاحية والنورية) الذي قال عنه **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر ما نصه: «استطاع عبد الرحمن أبو شامة في مهارة بارعة جداً أن يؤلف كتاباً متوازياً كاملاً شاملاً في تاريخ الفترة الممتدة بين مطلع العهد النوري (حوالي ٥٤٠ هجرية) إلى وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩ هجرية)، وذلك عن طريق

جمع مقتطفات حسنة الاختيار محبوكة الرصف بعضها وراء بعض، اقتطفها من مختلف المصادر المعاصرة بمنتهى الذكاء والدقة. وهكذا جاء الكتاب مجموعة من حوالي ألف قطعة مقتبسة أو بالضبط (٩٦١) أخذت عن (٢٢) مرجعاً.. وبعض المصادر التي اعتمدها أبو شامة ضائعة، وهذا ما أعطى كتابه قيمة هامة، كما أنه أكثر من الاعتماد على الوثائق، فلديه منها ما يزيد على (٢٠٦) وثيقة، يأتي بها في مواضعها لتوثيق تاريخه، وهذا ما أعطى كتابه قيمة أخرى.. وكان ينقد ويناقش ويضيف، ويوضح في إيجاز ودقة واستشهاد بما شاهد أو عرف أو سمع.. أو باللجوء إلى المنطق، وهذا بدوره مما ميز الكتاب وزاد في قيمته كمرجع موثوق».

وخلاصة القول: في الفترة التي عاش فيها عبد الرحمن أبو شامة كانت هناك نشاطات فكرية وثقافية في العالم الإسلامي، على الرغم من تدهور الوضع السياسي الذي كان يدب في الدولتين الزنكية والأيوبية، مما دفع القوى الخارجية مثل الصليبيين والبيزنطيين أن ينتهزوا الفرصة لينهشوا فيهم ويؤذوهم في عقر دارهم، لذا اندفع كبار المفكرين في العالم الإسلامي إلى البحث والتنقيب في تراث السلف الصالح باحثين عن طريق يمكنهم الاستفادة من خبرة الأجداد الأوائل؛ لكي يحلوا المشاكل السياسية والاجتماعية والتعليمية. وعليه ركّز عبد الرحمن أبو شامة في دراسة كل ما يتعلق بالعلم والعلماء، وأخذ على عاتقه إبراز دور علماء المسلمين، ليس فقط في العلوم التاريخية ولكن في سائر العلوم، ولعل قادة العالم الإسلامي يتأسون بالمسلمين الأوائل، ويتركون الانقسامات والحروب وراء ظهورهم، ويهتمون بإحياء التراث الإسلامي بفروعه المختلفة، بهذا استطاع المؤرخ عبد الرحمن أبو شامة من جمع الكثير من المعارف النادرة التي دونّها في مؤلفاته الكثيرة التي صارت من المصادر الهامة جداً للباحثين عبر التاريخ.

وتكاد تكون جميع مؤلفات شهاب الدين أبو شامة على مستوى كتابه

«الروضتين في أخبار الدولتين»، ومنها: الذيل على الروضتين (والمعروف باسم تراجم رجال القرنين السادس والسابع)، والمرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، وشرح الحديث المقتفى في مبعث المصطفى، وضوء القمر الساري إلى معرفة الباري، والباعث إلى إنكار البدع والحوادث، والممتع المقتضب في سيرة خير العجم والعرب، والمرقوم في جملة العوم، وجامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس شرفهن الله تعالى، ومختصر تاريخ بغداد، ومقدمة في النحو، وإبراز المعاني في حرز الأماني في القراءات، والمحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول وغيرها.

جميع مؤلفات شهاب الدين أبي شامة المختلفة تحتوي على استشهادات وانتقادات قيمة وبناءة، لا يستغني عنها الباحث اللبيب، كما أنه استخدم الشعر كنوع من الشواهد القوية بطريقة محكمة، والثابت أن شهاب الدين أبا شامة كان مثابراً ومتفانياً في عمله، وذلك لكي يتمكن من إتقانه وفهم أسراره. الآن نستطيع القول: إن شهاب الدين أبا شامة من كبار علماء المسلمين الذين تركوا مآثر جليلة في سائر العلوم وخاصة في مجال علم التاريخ.

ابن خلكان الإربلي

هو **أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان**، كنيته **أبو العباس**، وأحياناً يدعى **شهاب الدين**، ولقبه **الإربلي** نسبة إلى مدينة إربل التي تقع بالشاطىء الشرقي من نهر دجلة بالقرب من مدينة الموصل الشهيرة بعلمائها ومكتباتها، وقد ولد فيها (سنة ٦٠٨ هـ) وبقي فيها كل سنوات طفولته، فتلقى تعليمه الأولي بكل من مدارس وزوايا وحلقات مدينة إربل الخضراء. ولقد نما وترعرع شهاب الدين بن خلكان في بيئة علمية مرموقة، حيث اشتهر معظم أفراد عائلته بالعلم والأدب والحديث. والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين يسمونه البرمكي؛ وذلك لأنه ينتمي إلى أسرة عريقة من بيت كبير من البرامكة. عندما بلغ ثماني عشرة سنة من عمره بدأ بالزيارات العلمية إلى بعض مراكز العلم في العالم الإسلامي مثل حلب والقدس ودمشق والقاهرة. وقد استوطن مصر وتزوج فيها، وبقي هناك يتلقى العلم على يد كبار علمائها، فأُسند إليه نيابة القضاء فيها لحكمته وفراسته وعلمه الغزير. وفي عام (٦٥٩ هـ) دخل الملك الظاهر بيبرس مصر منتصراً بعد معركة جالوت، فعين شهاب الدين بن خلكان قاضياً للقضاة في بلاد الشام، إضافة إلى ذلك كان يدرس طلابه في كل من مدرسة العادية والناصرية والإقبالية، وتوفي بمدينة دمشق عن عمر يناهز ٧٣ سنة (أي عام ٦٨١هـ).

لقد ذاع صيت شهاب الدين بن خلكان بين زملائه بكل من العدالة والإنصاف والبعد كل البعد عن الطائفية والصدق والأمانة والفراسة وقوة الشخصية والشجاعة على قول الحق والصبر والمثابرة، وهذه الصفات العظيمة أهلته لأن يكون بجدارة قاضي القضاة في مدينة دمشق التي كانت تعج بجهابذة العلم. يقول **أبو الفلاح عبد الحي بن العماد** في كتابه «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» ـ الجزء الخامس ـ: «جمع أبو العباس ابن خلكان

كلاً من حُسن الصورة، وفصاحة المنطق، وغزارة الفضل، وثبات الجأش، ونزاهة النفس، ووافر الحرمة من سرورات الناس، كريماً جواداً ممدحاً، ومن محاسنه أنه كان لا يجسر أحد أن يذكر عنده أحداً بغيبة». وأضاف **محمد شاكر الكتبي** في كتابه آنف الذكر قائلاً: «كان شهاب الدين بن خلكان فاضلاً بارعاً متقناً عارفاً بالمذهب، حسن الفتاوى، بصيراً بالعربية، وعلامة في الأدب والشعر، وأيام الناس، كثير الاطلاع حلو المذاكرة، وافر الحرمة، وصنف كتاب «وفيات الأعيان» وقد اشتهر كثيراً، وله مجاميع أدبية».

وضع المؤرخون المسلمون العديد من المعاجم التي تتناول تراجم طبقات معينة من الرجال، ولكن أبا العباس ابن خلكان اختلف عنهم فألف كتاباً رائعاً بعنوان: «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» جمع فيه تراجم عامة، وهذا الاختلاف يظهر واضحاً فيما ذكره في فاتحة كتابه المذكور أعلاه حيث يقول: «هذا مختصر في التاريخ، دعاني إلى جمعه أني كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم وموالدهم، ومن جمع منهم كل عصر، فوقع لي منه شيء حملني على الاستزادة وكثرة التتبع، فعمدت إلى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن، وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين له ما لم أجده في كتاب، ولم أزل على ذلك حتى حصل عندي منه مسودات كثيرة في سنين عديدة، وغلق على خاطري بعضه فصبرت إذا احتجت إلى معاودة شيء منه لا أصل إليه إلا بعد التعب في استخراجه، لكونه غير مرتب، فاضطررت إلى ترتيبه، فرأيته على حروف المعجم أيسر منه على السنين، فعدلت إليه، والتزمت فيه تقديم من كان أول اسمه الهمزة، ثم من كان ثاني حرف من اسمه الهمزة أو ما هو أقرب إليها على غيره. ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء، بل كان من له شهرة بين الناس، ويقع السؤال عنه ذكرته، وأتيت منه أحواله بما وقفت عليه مع الإيجاز كيلا يطول الكتاب،

وأثبت وفاته ومولده إن قدرت عليه، ورفعت نسبه على ما ظفرت به، وقيدت من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيفه، وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكه به متأمله، ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيمله، والدواعي إنما تنبعث لتصفح الكتاب إذا كان مفنناً».

وخلاصة القول: أسندت دولة بني سلجوق حكم كل من بلاد الشام ومصر إلى مماليكهم الذين استرقوهم وهم صغار.. وقد اهتموا بتربيتهم وتعليمهم اهتماماً بالغاً. كما درَّبوهم أيضاً على كل من قيادة الجيش والشؤون السياسية والإدارية والاقتصادية، لذا تمكن المماليك من السيطرة تماماً على دولة بني سلجوق، حيث أصبح لهم نفوذ قوي في جميع أمور الدولة آنذاك، وعليه عني أبو العباس ابن خلكان عناية متناهية في الكتابة عن دولة المماليك ومشاهير كل من السلطنتين المتعاقبتين الأيوبية والمملوكية؛ لأنه عاصرهما، وبهذا تعتبر أعماله من المراجع الضرورية للباحثين في مجال تاريخ الدولتين الأيوبية والمملوكية.

ولقد تميزت شخصية شمس الدين بن خلكان بالقوة والشجاعة على قول كلمة الحق وعلو الهمة، والمثابرة على العمل والصدق والأمانة وتحري الحقيقة، والثابت أنه يعتبر في مقدمة مؤرخي التراجم، وأوائل المؤلفين في القرن السابع الهجري، ويظهر ذلك واضحاً في موسوعته المتكاملة والشاملة «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» التي تحتوي على ثروة عظيمة من المعلومات عن رجال العلم والتاريخ والأدب، حصل عليها من كتب التاريخ والأخبار وأفواه الأئمة المعتمدين، كما عرض ابن خلكان مادته العلمية في لغة سليمة وبسيطة مبتعداً عن التعصب والتحيز والهوى.

ولم يقتصر قاضي القضاة ابن خلكان في موسوعته آنفة الذكر على تراجم طائفة أو مجموعة من الأعلام مثل الملوك والسلاطين والأمراء ورجال

الدولة، بل ركّز فيها على كل من لـه إسـهامات علميـة وشـهرة بـين النـاس. والجدير بالذكر أن رحلاتـه الكثـيرة، وتنقلاتـه بـين كبـار المفكريـن في العـالم الإسلامي، واطلاعه الواسع على كتب الـتراجم والتـاريخ، كـل هـذا سـاعده على تفوقه الملحوظ بين زملائه، ليس فقـط في علـم التـاريخ ولكـن في سـائر العلوم الأخرى مثل الفقه والأدب وفن كتابة السير والـتراجم. إذن لا عجـب أن يُقال عن أبي العباس ابن خلكان: «إنه المؤرخ الحجة والأديب اللامع».

obeikandl.com

علم الدين البرزالي

هو **القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي** وفي بعض الأحيان يسمى **الدمشقي**، ويكنى **بأبي محمد** ويُلقب **بالإشبيلي** لأن أصله من إشبيلية، أما تسميته الدمشقي فلأنه ولد بمدينة دمشق سنة (٦٦٥ هجرية)، ونشأ وترعرع فيها، وتلقى تعليمه على أيدي كبار المفكرين هناك، وقد تفوق على زملائه طلاب العلم في كل من التاريخ، فأنتج إنتاجاً رائعاً في هذا المجال الحيوي.

كان علم الدين القاسم البرزالي مؤرخاً لامعاً وعاشقاً لعمله المفيد والنافع بحق وحقيق، كما أنه على جانب كبير من الورع والتقوى، لذا احتل بجدارة مكانة علمية مرموقة بين زملائه. والجدير ذكره هنا أنه لم يكتف بالمعارف التي تلقاها على علماء المسلمين المشهورين في دمشق، ونتيجة لذلك كان يتنقل كثيراً بين دمشق وكل من حلب وبعلبك ومرو ومكة، وذلك للالتقاء بجهابذة العلم في هذه المدن التي كانت تعج بهم، والمعروف أن أبا محمد البرزالي كان من كبار المفتين في دمشق، وذلك لما عرف عنه من الدقة والصراحة والقدرة على استخلاص الأحكام الشرعية من القرآن والسُّنة النبوية، وكما تولى مشيخة النورية ومشيخة دار الحديث بدمشق، وأوقف كتبه وعقاراً كبيراً على الصدقات، وتوفي بخليص (بين مكة المكرمة والمدينة المنورة) سنة (٧٣٩ هجرية)، بهذا فقدت الأمة الإسلامية مؤرخاً كان من أبرز مؤرخي عصره.

ويقول **محمد بن شاكر الكتبي** في كتابه آنف الذكر: «وللشيخ الإمام الحافظ المحدث المؤرخ، علم الدين أبو محمد البرزالي تاريخ، بدأ فيه من عام مولده الذي توفي فيه الإمام أبو شامة، فجعله صلة لتاريخ أبي شامة في خمس مجلدات، وله مجاميع وتعليقات كثيرة، وعمل في فن الرواية عملاً قل من يبلغ إليه، وبلغ عدد مشايخه بالسماع أكثر من ألفين، وبالإجازة أكثر من ألف، رتبهم وترجمهم في مسودات متقنة، وكان رأساً في صدق اللهجة والأمانة،

صاحب سنة واتباع ولزوم الفرائض، خيراً متواضعاً حسن البشر عديم الشر، فصيح القراءة مع عدم اللحن، قرأ ما لا يوصف كثره وروى، وكان عالماً بالأسماء والألفاظ، وكان فيه حلم وصبر وتودد، ولا يتكثر بفضائله ولا ينتقص بفاضل، بل يوفيه فوق حقه، يلاطف الناس، وله ود في القلوب وحب في الصدور، وكان حلو المحاضرة قوي الذاكرة عارفاً بالرجال، لا سيما أهل زمانه وشيوخهم، لم يخلف بعده مثله».

كان لأبي محمد القاسم البرزالي أثر بالغ في تقدم علم التاريخ، لذا حزن لوفاته علماء المسلمين حزناً شديداً وهذا يظهر واضحاً من بعض أبيات الشعر التي أنشدها القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله في رثائه له، ونقلها **تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السُّبكي** في كتابه آنف الذكر ومنها:

قد كان في قاسم من غيره عوض	فاليوم لا قاسم فينا ولا قسم
من لو أتى مكة مالت أباطحها	به سروراً وجادت أفقها الديم
أقسمت منذ زمان ما رأى أحد	لقاسم شبهاً في الأرض لو قسموا
هذا الذي يشكر المختار هجرته	والبيت يعرفه والحل والحرم
ما كان ينكره رمي الحطيم به	لو آخر العمر حتى جاء يستلم
له إليه وفادات تقر بها	جبال مكة والبطحاء والأكم
محدث الشام صدقاً بل مؤرخه	جرى بهذا وذا فيما مضى القلم
يا طالب العلم في الفنين مجتهداً	في ذا وهذا ينادى المفرد العلم

ومنها:

وحقق النقد حتى بان بهرجه	وصحح النقل حتى مابه سقم
وعرف الناس كيف الطرق أجمعها	إلى النبي فما حاروا ولا وهموا

وعلم الخلق في التاريخ ما جهلوا وبعض ما جهلوا أضعاف ما علموا
يريك تاريخه مهما أردت به كأن تاريخه الآفاق والأمم

كان أبو محمد القاسم البرزالي مستقلاً في آرائه واتجاهاته التاريخية، فهو بعد أن اطلع على إسهامات المؤرخين الأوائل وفحصها ودرسها، تكون عنده منهج رائع ساعده على أن يشارك في تطوير علم التاريخ مشاركة فاعلة، ويتضح ذلك من مؤلفاته ومنها: تاريخ البرزالي «خمس مجلدات»، ومعجم الشيوخ الذي يحتوي على ألفي شيخ في أربعة وعشرين مجلداً، وذيل تواريخ دمشق للحافظ أبي الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي «٤٩٩ ـ ٥٧١ هجرية».

وخلاصة القول: لقد كان لدولة المماليك البحرية (٦٤٨ ــ ٧٩٢ هجرية) أثر عظيم على الأقطار الإسلامية، لذا تحمس أبو محمد القاسم البرزالي على جمع المعلومات التاريخية عنها، ودراستها وتحليلها تحليلاً علمياً دقيقاً ونزيهاً بعيداً كل البعد عن التحيز، ونتيجة لذلك خلف إنتاجاً علمياً بالغ الأهمية، ليس فقط عن شيوخ وعلماء دولة المماليك البحرية، ولكن عن جهابذة الفكر في الحضارة الإسلامية، وعليه كان المؤرخون حينئذ يتمتعون في قراءة مؤلفاته الرائعة.

وكان أبو محمد القاسم البرزالي باحثاً نشطاً ومؤرخاً من الطراز الأول، لذا فقد سئم من آراء وتحليلات بعض المؤرخين الذين كانوا يعيشون حوله في مدينة دمشق، مما جعله يزور عدداً كبيراً من المراكز الإسلامية باحثاً عن الحقيقة العلمية، ولكنه في أواخر أيامه استقر بمدينة دمشق، وفرغ نفسه للكتابة في مجال علم التاريخ. لقد كان يعتمد كلياً على المراجع الأولية في جميع مؤلفاته، لذا أكسبه منهجه هذا في الكتابة شعبية وسمعة حسنة عند الدارسين والباحثين عبر التاريخ.

شمس الدين الذهبي

هو **محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي**، يكنى بأبي عبد الله، وفي بعض الأحيان **بشمس الدين**، ويلقب **بالدمشقي**. نشأ وترعرع في بيئة دينية وعلمية، فنما عنده حب العلم واحترام وإجلال العلماء، وعليه ركز في دراسته على علمي الفقه والتاريخ، وتفوق في كل منهما تفوقاً ملحوظاً. ولد سنة (٦٧٣ هجرية) بمدينة دمشق التي كانت من أكبر مراكز الحياة الفكرية، حيث كان العلماء الكبار يأتون إليها من كل حدب وصوب للاجتماع بجهابذة الفكر هناك، وتوفي أيضاً بمدينة دمشق عن عمر يناهز الخامسة والسبعين سنة. وأصله تركماني، وأخذ اسم الذهبي عن والده الذي كان صائغاً للمجوهرات الذهبية، فقد بصره سنة (٧٤١ هجرية) أي قبل وفاته بسبع سنوات، اشتهر بمقدرته الفريدة على التحقيق، ولذا عرف باسم العلامة المحقق، كما حصل على لقب المحدث وهو في الثامنة عشرة من عمره، حيث بقي يبحث ويستقصي في مجال علم الحديث حتى رسخت قدماه فيه وذاع صيته بين زملائه. ولقد زار معظم الأقطار الإسلامية لكي يلتقي بكبار المفكرين هناك. فنبغ في كل من العلوم الدينية والتاريخ والنحو والأدب والشعر، ولكنه عني عناية خاصة في تراجم العلماء الكبار حتى أصبحت أساس الكثير من مؤلفاته التاريخية. والجدير بالذكر أنه تمكن من أداء مناسك الحج بيسر سنة (٦٩٨ هجرية)، وأخذ عن كبار علماء الحجاز الكثير من علومه الشرعية، لذا صار في هذا المجال موسوعة تمشي على قدمين. والحقيقة التي يجب أن لا تخفى على القارىء أن أبا عبد الله الذهبي عاش في فترة من الزمن كانت الحياة الفكرية والدينية في أدنى مستوى، ولكن هذا لم يؤثر على إنتاجه العلمي، بل على العكس تماماً؛ لأنه اعتبر هذا التخلف تحدياً له، مما جعله يعمل ليلاً ونهاراً لإبراز معالم الحضارة العربية والإسلامية.

يقول **صلاح الدين الصفدي** في كتابه آنف الذكر: «الشيخ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، حافظ لا يجارى، ولافظ لا يبارى،أتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأزال الإبهام في تواريخهم والإلباس، ذهن يتوقد ذكاؤه، ويصح إلى الذهب نسبته وانتماؤه، جمع الكثير، ونفع الجم الغفير، وأكثر من التصنيف، ووفر بالاختصار مؤنة التطويل في التأليف، وقف الشيخ **كمال الدين بن الزملكاني** ـ رحمه الله ـ على تاريخه الكبير (تاريخ الإسلام) جزءاً بعد جزء إلى أن أنهاه مطالعة وقال: «هذا الكتاب علم، اجتمعت به وأخذت عنه، وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه، و لم أجد عنده جمود المحدثين، ولا كودنة النقلة بل هو فقه النظر، له دراية بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف، وأرباب المقالات، وأعجبني منه ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثاً يورده، حتى يبين ما فيه من ضعف متن أو ظلام إسناد أو طعن في رواته، وهذا لم أر غيره يرعى هذه الفائدة فيما يورده».

اهتم أبو عبد الله الذهبي في بادىء حياته العلمية في القراءات حتى صار ينعت بإمام القراءات، ثم اتجه إلى اختصار أمهات الكتب في شتى المعارف، وبعد مدة شعر بالنضج، فشرع بتصنيف الكتب العديدة التي تربو على مئتين وخمسة عشر مصنفاً، وقد نوه عنها في مقدمة كتابه آنف الذكر. وعليه نذكر هنا بعض الكتب التي تتعلق في علم التاريخ وهي: أخبار قضاة دمشق، والإرشاد إلى وفيات الأعيان، والمنتقى من تاريخ الإسلام، والإعلام بوفيات الأعلام، والأمصار ذوات الآثار، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، التاريخ الممتع، وتذكرة الحفاظ وتراجم رجال روى عنهم محمد بن إسحاق، وتسمية رجال صحيح مسلم الذين انفرد بهم عن البخاري، ودول الإسلام، وسير أعلام النبلاء وطبقات الشيوخ، والعباب في التاريخ والعبر في خبر من عبر، ومعجم الشيوخ الكبير، ومعجم الشيوخ الأوسط، ومعجم الشيوخ الصغير، والمعجم المختص بمحدثي العصر، والمعين في طبقات المحدثين، وميزان الاعتدال في نقد الرجال وغيرها.

وخلاصة القول: حرص مؤرخو العرب والمسلمين أن يجعلوا مادتهم التاريخية التي يتناقلها جيل بعد جيل تعتمد على العلوم الشرعية. لذا نجد أن معظم المؤرخين في صدر الإسلام، كانوا يركزون في دراستهم وبحوثهم على السيرة النبوية والمغازي، وتراجم رجال العلم والفقه والحديث. من هنا يتضح تماماً للقارىء الأسباب التي دفعت مؤرخي العرب والمسلمين لأن يهتموا بتاريخ الرُسل والأنبياء، وعليه استطاع أبوعبد الله الذهبي أن يجمع وبجدارة فائقة بين كل من الفقه والحديث والتاريخ، حيث أصبح محدثاً بارعاً ومؤرخاً ناقداً، على الرغم من تخلف الحياة العلمية في عصره.

ويقول **بشار عواد معروف** في تقديمه لكتاب «سير أعلام النُبلاء» ـ الجزء الأول ـ لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: «وعلى الرغم من أن شمس الدين عاش في بيئة غلب عليها الجمود والنقل والتلخيص، فإنه قد تخلص من كثير من ذلك بفضل سعة دراساته وفطنته، وكان مفهوم التاريخ عند الذهبي يتصل اتصالاً وثيقاً بالحديث النبوي الشريف وعلومه، وقد ظهر ذلك في عنايته التامة بكتب التراجم التي قامت عليها شهرته الواسعة باعتباره مؤرخاً. وقد جعلت منه معرفته الرجالية الواسعة ناقداً ماهراً، ظهر ذلك في مؤلفاته المعنية بالنقد، وفي التفاتاته البارعة في أصول النقد، ورده الكثير من الروايات، وتخطئته لكبار النقاد، وقدرته الفائقة على البحث والاستدلال».

ولقد تفنن أبو عبد الله الذهبي بكل من تخريج الأحاديث الصحيحة وتطوير منهج تاريخي هام جداً، حيث تمكن من جعل علم التاريخ يتصل اتصالاً واضحاً وجلياً في مؤلفاته الكثيرة التي لا تخلو منها أيّة مكتبة، ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن أيضاً في العالم ككل، لأهميتها كمراجع ومصادر للباحثين في ميدان علم التاريخ، حيث إن المؤرخين في المعمورة لا يزالون يعولون على مؤلفاته الثمينة في أعمالهم التاريخية.

إِذن لا عجب أن يقال: «إن شمس الدين الذهبي أفنى حياته في البحث

والاستقصاء والاستدلال في كل من علم التاريخ والفقه وأحاديث رسول الله ﷺ، حيث استطاع وبجدارة متناهية أن يفهم جيداً عصور تاريخ الإسلام من أول ظهوره حتى زمانه الذي عرف بالجمود والتخلف، ولكن بفضل ثقافة الذهبي الواسعة لم يتأثر مستواه العلمي، بل كان من المبدعين غير المقلدين.

الفائدة الرئيسة من إسهامات أبي عبد الله الذهبي تكمن في كون مؤلفاته أصبحت من أهم المصادر التاريخية، حيث جمع فيها معظم الأحداث التاريخية، ذاكراً الروايات المختلفة للحادثة الواحدة، وتاركاً الباحث يقرر. الحقيقة أن لصاحب الترجمة عقلية عجيبة جداً، لديه مقدرة فريدة على النقد العلمي الصريح، لذا عرف باسم شيخ الجرح والتعديل، وهكذا يقف عملاقاً بين المؤرخين.

obeikandl.com

ابن كثير الدمشقي

هو **إسماعيل بن عمر بن كثير**، يكنى **بأبي الفداء** وفي بعض الأحيان **بعماد الدين**، ويلقب **بالدمشقي**. ولد سنة (٧٠١ هجرية) في قرية صغيرة من أعمال بصرى الشام، ولذا يسميه بعض المؤرخين البصروي نسبة إلى مسقط رأسه، عاش أبو الفداء يتيماً؛ لأن والده الشاعر المشهور توفي سنة (٧٠٣ هجرية) وقد خلف الأب لابنه السمعة الحسنة، انتقلت عائلته إلى دمشق مركز الحركة الفكرية في بلاد الشام سنة (٧٠٧ هجرية)، فتلقى إسماعيل بن كثير تعليمه فيها على كبار علماء المسلمين. وتواتر عن شيوخه أن عنده ذاكرة قوية جداً، لذا حفظ القرآن الكريم وهو في سن العاشرة من العمر، كما تفوق على زملائه في كل من علم الحساب والحديث والفقه والتاريخ، وعليه اشتهر في جميع أرجاء الأمة العربية والإسلامية، مما دفعه إلى التنقل بين عواصم العالم الإسلامي؛ لكي يلتقي بجهابذة الفكر هناك،ولكنه في الأخير استقر في دمشق وانتهى من تأليف كتابه: «البداية والنهاية» المطول الذي يتكون من عشرة مجلدات، وفيه اعتمد ابن كثير على النصوص التي أخذها من الكتاب والسُّنة، وفي مدينة دمشق توفي المؤرخ الكبير ابن كثير سنة (٧٧٤ هجرية)، والمعروف بين المثقفين أن عماد الدين ابن كثير كان يجمع بين التاريخ والفقه، والقليل يعرف أن عنده مقدرة على نظم الشعر؛ لأن إنتاجه في هذا المجال الحيوي ضاع. ولقد حاول طاش كبرى زاده في كتابه آنف الذكر أن يبين موهبته الشعرية فذكر البيتين الآتيين:

تمر بنا الأيام تترى وإنما ... تساق إلى الآجال والعين تنظر

فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى ... ولا زائل هذا المشيب المكدر

ويذكر **الداوودي** في كتابه «طبقات المفسرين»: أن أبا الفداء الحافظ ابن

openkanal.com

كثير الدمشقي كان أحفظ الناس لمتون الحديث وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان زملاؤه وأساتذته يقرون له بذلك، وكان يستحضر شيئاً كثيراً من الفقه والتاريخ، قليل النسيان لأن عنده ذاكرة رائدة، وكان فقيهاً جيد الفهم. كما أجمع المؤرخون على أنه صحيح الذهن، ولديه معرفة رائعة في حقل اللغة العربية ونظم الشعر، ولكنه تميز في مجال علم التاريخ، ويظهر ذلك واضحاً من كتابه البداية والنهاية. أما **أبو المحاسن الحسيني**، فيقول عنه في كتابه «ذيل تذكرة الحفاظ»: «أفتى ودرس وناظر وأبدع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل».

لقد تناقل المؤرخون مؤلفات عماد الدين ابن كثير القيمة التي لا يستغني عنها أي باحث في ميدان علم التاريخ ومنها: تفسير القرآن الكريم في عشرة مجلدات، ومختصر علم الحديث، والبداية والنهاية في عشرة مجلدات، والتكملة في أسماء الثقات والضعفاء، والفصول في سيرة الرسول ﷺ، وطبقات الشافعية والاجتهاد في طلب الجهاد ورجال الحديث، وجامع المسانيد الذي جمع فيه أحاديث الكتب الستة والمسانيد الأربعة، والجامع الحثيث إلى معرفة علوم الحديث.

وخلاصة القول: كان القرن السابع الهجري منعطفاً خطيراً جداً لكل من الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية في العالم الإسلامي؛ لأن التتار باتفاق مع الصليبيين بطشوا في المسلمين بقيادة هولاكو ثم أولاده فأحفاده، حتى صارت العواصم العربية والإسلامية مكاناً لذبح وتعذيب كبار العلماء والمفكرين، تخلصوا من آخر خلفاء بني العباس، فعمت الفوضى ـ التي خلفها التتار بمساعدة الصليبيين ـ الأمة العربية والإسلامية، وأصبحت سمة العصر الخوف والفزع، لقد عاش أبو الفداء الحافظ ابن كثير معظم هذه الاضطرابات الشيطانية التي قادت العالم الإسلامي إلى الانحطاط في مختلف أوجه الحياة.

اتجه أبو الفداء الحافظ ابن كثير في بادىء حياته إلى دراسة علم التاريخ وذلك

obeikandl.com

رغبة منه في الوقوف على الأحوال الماضية، وأخذ العبرة من الأحداث التاريخية، لذا صار يسهر الليل يحيي النهار في البحث والاستقصاء في ميدان علم التاريخ، فوصل من خلال دراسته المتأنية والمتطورة إلى نتيجة في غاية الأهمية: أن التتار يشبهوا تماماً الصليبيين في إيذاء المسلمين وترويعهم؛ وذلك لأنهم قتلوا أبناءهم وعلماءهم ونهبوا أموالهم وخرّبوا مكتباتهم وبيوتهم وأحرقوا كتبهم القيمة. بهذا الأسلوب القذر تمكنت أوربا من الاستيلاء على بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، والسيطرة الكاملة على سكانه أمداً طويلاً من الدهر، فانتشرت الخرافات والأساطير والخزعبلات بين الأهالي آنذاك.

وعاش عماد الدين ابن كثير في دولة المماليك في بلاد الشام، ولكنه عاصر الهجمات البربرية التي قام بها كل من التتار والصليبيين ضد المسلمين الأبرياء، لذا استطاع أن يعرض تصوراته التاريخية الصحيحة بكل نجاح؛ لأنه كان يمتلك القدرة على التمييز بين الخبر الصحيح والسقيم والإسرائيليات البالية التي كان يتناقلها المؤرخون الأوائل، ولاشك أن ابن كثير تفنن في عرض الأحداث التاريخية التي عاصرها، مثل اجتياح التتار لبلدان الشرق الأوسط بالتعاون مع الفرنج والقضاء تماماً على الخلافة العباسية، كما أبدع في تفسير القرآن الكريم، لذا نستطيع القول: إنه ليس فقط مؤرخاً مبدعاً ولكن أيضاً مفسراً بارعاً.

ذاع صيت أبي الفداء ابن كثير بين معاصريه بقدرته المنقطعة النظير على الاستحضار وعدم النسيان والفهم والجرح والتعديل، لذا لا عجب إذا سمي المحدث المفتي البارع والمؤرخ المحقق، والجدير بالذكر أن ابن كثير أجاد إجادة رائعة في دراساته وبحوثه في حقل علم التاريخ بوجه عام والسيرة النبوية على الخصوص، فلله دره.

obeikandi.com

لسان الدين ابن الخطيب

هو **محمد بن عبد ا لله بن سعيد السلماني اللوشي الغرناطي** المعروف **بابن الخطيب**، ويكنى بكل من **أبي عبد ا لله ولسان الدين وذي الوزارتين وذي العمرين**، ويلقب أيضاً بكل من **الغرناطي واللوشي وابن الخطيب**، والجدير ذكره أنه اشتهر بذي الوزارتين والمقصود بذلك السيف والقلم، ويقال أيضاً: ذو العمرين، لعمله الدؤوب بالتأليف في الليل وبتدبير شؤون الدولة في النهار. ولد في بلوشة سنة (٧١٣ هجرية)، ولكنه نما وترعرع وتلقى تعليمه بغرناطة التي كانت تعج بكبار العلماء، ويعود نسبه إلى لوشة قريبة جداً من غرناطة، حيث كان أجداده الأوائل مشهورين بأعمالهم المرموقة في إدارة شؤونها السياسية والعلمية، ولقد تفوق لسان الدين ابن الخطيب على زملائه حينذاك بكل من علم التاريخ والعلوم الشرعية والطب والشعر والأدب، لذا استوزره حاكم غرناطة أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل ثم ابنه السلطان الغني با لله محمد من بعده.

لسوء حظ أبي عبد ا لله ابن الخطيب كثرت أعداؤه نتيجة نبوغه وتميزه النادر في سائر فروع المعرفة، مما مكّن هؤلاء أن يؤثروا على السلطان الغني با لله محمد، فأحس لسان ابن الخطيب بعدم ارتياح السلطان له، مما جعله يتصل بسلطان المغرب عبد العزيز بن علي المريني، ويبدي له رغبته الملحة في ترك غرناطة والقدوم إلى بلده، فرحّب به، لذا هرب إلى جبل طارق خفية، ثم سبتة فتلمسان التي كان يسكنها السلطان عبد العزيز المريني حينئذ، وعند وصوله أكرمه السلطان عبد العزيز المريني إكراماً عظيماً لمكانته العلمية التي احتلها بين معاصريه، وأرسل إلى سلطان غرناطة الغني با لله محمد يطلب منه إرسال أهل وأبناء لسان الدين ابن الخطيب إلى المغرب، فوصلوا معززين، وعليه استقر ابن الخطيب بفاس كمستشار لسلطانها، وتفرغ للقراءة والكتابة.

وعندما توفي السلطان عبد العزيز المريني خلفه ابنه السعيد بـا لله الـذي لم يبق في الحكم طويلاً، بل خلع واستبدل بالسلطان المستنصر أحمد بـن إبراهيـم الذي كان في أمس الحاجة لمساعدة الغني بـا لله محمـد سلطان غرناطـة الـذي اشترط بدوره عليه تسليمه لسان الديـن ابـن الخطيـب، لـذا اضطـر المسـتنصر أحمد بن إبراهيم سلطان المغرب أن يسـجن ابـن الخطيـب ويخبر بذلـك الغـني با لله محمد سلطان غرناطة، فأرسل الأخير وزيره (ابن زمرك) إلى فاس وطلب تقديم ابن الخطيب للمحاكمة بتهمة الزندقة لاعتناقه منهج الفلاسفة، فحكـم عليه بالإعدام، وفعلاً قتل في السجن سنة (٧٧٦ هجرية).

تنقل لسان الدين ابن الخطيب في مراكز قيادية متنوعة لما فطر عليـه مـن صفات حميدة وعقل وذكـاء وحكمـة، إلا أن أعـداءه اسـتطاعوا أن يدخلـوه السجن ويقضوا عليه، فأراد أن يعبر عن شعوره في الحبس، فنظم قصيدة نقـل **محمد كرد علي** في كتابه «كنوز الأجداد» بعضاً من أبياتها وهي:

بعدنـــا وإن جاورتنـــا البيـــوت ... وجئنـا بوعـظ ونحـــن صمـــوت
وأنفاســـنا ســـكنت دفعـــة ... كجهـر الصـلاة تـــلاه القنـــوت
وكنــا عظامــاً فصرنــا عظامــاً ... وكنـا نقـوت فهـا نحــن قـــوت
وكنـــا شمـــوس سمـــاء العـــلا ... غربـن فنـاحت عليهـــا البيـــوت
فكـم جدلـت ذ الحســام الظبـــا ... وذو البخـت كـم جدلته البخـوت
وكــم ســيق للقــبر في خرقـــة ... فتـى ملئـت مـن كسـاء التخـوت
فقـل للعـدا ذهـــب ابــن الخطيـــب ... وفـات ومـــن ذا الــذي لا يفـوت
فمــن كــان يفـــرح منكـــم لـــه ... فقـل يفـرح اليـوم مـن لا يمـوت

ويعتبر لسان الدين ابن الخطيب واحـد زمانـه في معرفـة العلوم بأسرها، فكان واسع الثقافة ومتبحراً في العلوم الأساسـية والتطبيقيـة، لـذا أنتـج إنتاجـاً

هائلاً في مجالات مختلفة. ذلك يظهر واضحاً في مؤلفاته التي وصلت ستين كتاباً والتي تدل على شمول عام لميادين المعرفة، ولكن ضاع معظمها، ومنها ما تناقله المؤرخون مثل تاريخ غرناطة، وإعلام من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، والحلل المرموقة في ذكر الأخبار المراكشية، والكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، ومعيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، واللمحة البدرية في الدولة الناصرية، ورقم الحلل في نظم الدول، وأخبار الأندلس، والتاج المحلى في مساجلة القدح المعلى، وخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، والمفاضلة بين مالقة وسلا، والإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر، وطرفة العصر في دولة بني نصر، وريحانة ونجفة المنتاب (مجموعة رسائل)، وديوان شعر، والدكان بعد انتقال السكان، وتاريخ إسبانيا، ورسالة في الطاعون وأسبابه وعلاجه والوقاية منه وغيرها.

وخلاصة القول: شعر علماء المسلمين في الأندلس في القرن التاسع الهجري المسمى: عصر مملكة غرناطة، أن المواطنين المسلمين في الأندلس بدأ يتخللهم كل من الضعف والخوف واليأس أمام الزحف الصليبي، لذا لجؤوا إلى الدراسة والبحث في ميدان علم التاريخ، لاعتقادهم القوي أن علم التاريخ هو العلم المحرك للهمم لاحتوائه على معلومات عظيمة عن دور الأجداد القيادي الرائع. وعليه اهتم لسان الدين ابن الخطيب في التعمق في البحث والاستقصاء في مجال علم التاريخ حتى ظهرت قدرته وبراعته فيه، وذلك لقناعته التامة أن علم التاريخ من الموضوعات الأساسية التي لابد من دراستها إذا أريد معرفة التاريخ الإسلامي معرفة سليمة، ولأنه يدرك أيضاً أن بلاد الأندلس تحت حكم المسلمين كانت تنعم بحضارة زاهرة نافست بجدارة الحضارة الإسلامية العظيمة في الشرق، وهذا ناشيء من اتحادهم وصدق نواياهم حينئذ.

ولقد كان لسان الدين ابن الخطيب شديد الولع في البحث والاستقصاء عن الحقيقة سواء كانت تاريخية أو علمية، لذا نال احترام وتقدير العلماء

obeikandl.com

الكبار وقتئذ، فعول الكثيرون من الباحثين على مؤلفاتـه المتنوعـة الـتي كـانت ثروة ثمينة للمكتبة الإسلامية، لاحتوائها على معظم نواحي الفكر والمعرفة التي اكتسبها من مشاهداته وتجاربه وقراءاته المتنوعة.

والحقيقة التي يجب أن يعرفهـا القـارىء أن لسـان الديـن ابـن الخطيـب كـان دارساً ممحصاً منذ نعومة أظفاره، ومتميزاً في الأمانة في النقل والرواية، لـذا وقـف عملاقاً بين علماء العرب والمسلمين الذين خدموا الحضارة الإنسانية، ولكن الذي يؤسف له أنه عذب في آخر حياته بالسجن ثم بالقتل، وهذا الحدث صعب يندى له الجبين، أخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في كتابة هذه السيرة الموجزة عن حيـاة لسان الدين ابن الخطيب الذي لم يعطه المؤرخون حقه.

obeikandl.com

عمر بن الملقن

هو **عمر بن علي بن أحمد بن الملقن**، كنيته **أبوحفص** ويسمى أيضاً **سراج الدين**، أما لقبه **فابن الملقن**، ويعرف في بعض الأحيان **بالواداشي الأندلسي**؛ لأن عائلته انتقلت من مدينة (وادي آش) التي تقع بالقرب من مدينة غرناطة. وهناك بعض المؤرخين يلقبونه بالتكروري؛ لأن أصله من قبيلة التكرور السودانية التي تقطن أقصى جنوب المغرب العربي. كان والده نور الدين نحوياً متمكناً من مادته، انتقل إلى القاهرة واستقر بها، وصار يدرس أبناء المسلمين اللغة العربية، فذاع صيته وأصبح طلاب العلم يأتون من كل حدب وصوب للتتلمذ عليه. ولقد حرم الابن عمر بن الملقن من تلقي العلم على يد أبيه؛ لأن الأب توفي وعمر الابن سراج الدين الملقن تقريباً سنة واحدة، ولحسن حظه أن والدته تزوجت بالشيخ شرف الدين عيسى المغربي الذي كان يلقن القرآن الكريم بالمسجد الطولوني نسبة لمؤسس الدولة الطولونية في مصر أحمد بن طولون، لذا حفظ الشاب عمر بن الملقن القرآن الكريم على يد زوج أمه وهو في ريعان شبابه، وهكذا تربى وترعرع يتيماً في كنف الشيخ شرف الدين عيسى المغربي، ولذا أطلق عليه لقب (ابن الملقن). والجدير بالذكر أنه ولد بمدينة القاهرة سنة (٧٢٣ هجرية) وتوفي بها عام (٨٠٤ هجرية).

زار عمر بن الملقن كلاً من مكة المكرمة والقدس ودمشق؛ لكي يتلقى العلم على أيدي كبار العلماء في مراكزها العلمية المشهورة، وبالفعل تم ذلك، فنبغ بعلم التاريخ وسائر العلوم الأخرى، لذا اشتهر بين زملائه، ليس فقط في علم التاريخ ولكن أيضاً في كل من الفقه والحديث النبوي والأدب. وعليه شغل سراج الدين عمر بن الملقن مناصب حساسة مثل القضاء والتدريس. كما يبدو أنه عرف بكل من أخلاقه العالية وورعه وزهده، لذا كان مدرساً ألمعياً يشار إليه بالبنان بالمدرسة السابقية المرموقة. والمؤسف حقاً أنه لحق به في آخر أيام حياته محنة كبيرة تمثلت في احتراق منزله ومكتبته التي تحتوي على كتبه الثمينة، فحزن حزناً عظيماً سايره حتى انتقل إلى رحمة الله تبارك وتعالى.

كان عمر بن الملقن ماهراً بتفسير القرآن الكريم، مبرزاً في الحديث والتاريخ والفقه والأدب، فكانت له مؤلفات عديدة تقدر بثلاث مئة مصنف ضاع أو احترق معظمها، ولم يبق سوى القليل في مكتبات العالم ينهش فيها الدود وتبني عليها العناكب بيوتها، ومنها على سبيل المثال: إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، والتذكرة في علم الحديث، والإعلام في عمدة الأحكام، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح، وخلاصة البدر المنير، وإيضاح الارتياب في معرفة ما يشتبه ويتصحف من الأسماء والأنساب، وطبقات الأولياء، والمقنع في علم الحديث، وخلاصة الفتاوي في تسهيل أسرار الحاوي، والإشارة إلى ما وقع في المنهاج من الأسماء والأماكن، وغاية السول في خصائص الرسول ﷺ ، وطبقات المحدثين من زمن الصحابة إلى زمنه، وطبقات القراء، وأخبار قضاة مصر، والعقد المذهب في طبقات حملة المذهب، وتاريخ ملوك مصر الترك، ونزهة النظار في قضاة الأمصار، ونزهة العارفين من تواريخ المتقدمين، وتاريخ ابن الملقن وغيرها.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «جهود ومعارف وإنتاج أبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن أحمد بن محمد الأنصاري الواداشي الأندلسي في التاريخ، إنما أتت من باب خدمة الحديث وفي إطاره. وبالرغم من أنه اشتغل في كل فن حتى قرأ في كل مذهب كتاباً، وبرع في الفقه وفي الخط وفي الأصول والإفتاء، فقد كانت له مشاركة واضحة في علم الرجال، وإذا كانت قافلة طويلة جداً من المجلدات في جمع كتب الحديث المعروضة وتلخيصها وشرحها، وتؤلف حسب قوله ثلاث مئة مؤلَّف، وبعضها في مجلدات تبلغ العشرين، فقد كان منها في التاريخ والرجال عدد جيد معظمه مخطوط أو ضاع».

وخلاصة القول: وصلت الدولة المملوكية إلى مرتبة عالية من الثقافة العلمية، وذلك في الفترة ما بين ٧٨٤ ـ ٩٢٢ هجرية، لذا أنجبت مؤرخين

متفوقين بنوا مدرسة تاريخية متأنية تميزت بمنهجها التاريخي القائم على أن التاريخ جزء حيوي من التطور الثقافي، وأنه بصورة عامة الطريق السوي لمعرفة وفهم تقدم الأمة، وعليه اتجه عمر بن الملقن إلى الدراسة والبحث في علم التاريخ، ونتيجة لذلك صار مولعاً في البحث والتحري للأحداث التاريخية. ولقد عُرف بمقدرته العجيبة على إدراك الجزئيات إدراكاً رائعاً، وفي عهده صار علم التاريخ شاملاً للحياة الأخلاقية والأدبية والعلمية والسياسية والشرعية، فدخل في التاريخ العنصر الإنساني.

وكان عمر بن الملقن محدثاً ومؤرخاً رائداً وبارعاً، نال في عصره سمعة كبيرة، وبقي اسمه يدوي في جميع مكتبات العالم، ولقد اقتبس مؤرخو الإسلام عنه الكثير من معارفهم التاريخية الخاصة بالمماليك، معترفين في إنجازاته الهائلة ليس فقط في علم التاريخ، ولكن أيضاً في سائر العلوم الأخرى. كما أنهم أكدوا على أهمية منهجه وفلسفته في الكتابة، فلقد تبنى طريقة لكتابة التراجم تعتمد على العناصر الآتية: الاسم، والكنية، واللقب، واسم الشهرة، والقبيلة في بعض الأحيان، والوطن، وتاريخ كل من الولادة والوفاة، والنشأة والتكوين، والمنزلة والمكانة العلمية، والألقاب العلمية، والوظائف التي قام بها المترجم له. والجدير بالذكر أن هذه الطريقة صارت معتمدة بين المؤرخين في المعمورة عبر التاريخ، كما بقيت آثاره في علم التاريخ مدة طويلة من الزمن مرجعاً للدارسين والباحثين.

يجب أن يعرف القارىء أن أسلوب أبي حفص عمر بن الملقن تميز بالسلاسة والسهولة، حيث ابتعد كل البعد عن التعقيد والغموض والتحيز. كما أبرز بكل جدارة ووضوح ملاحظاته العلمية التي كان لها دور عظيم جداً في تقدم علم التاريخ. إذن مما تقدم لا عجب إذا أجمع المؤرخون في العالم الإسلامي على أن سراج الدين عمر بن الملقن كان حاضر البديهة قوي الحجة، عالماً ذكياً فصيحاً حافظاً للغة العربية وعلوم الدين والتاريخ ومن فحول عصره.

obeikandl.com

ابن خلدون

هو **عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي**، ويكنى **بأبي زيد**، وذلك لأن اسم ابنه الأكبر زيد (وهذه عادة من عادات العرب الأصيلة)، ويلقب **بابن خلدون** نسبة إلى جده التاسع (الذي يتصل نسبه بالصحابي وائل ابن حجر) خالد بن عثمان الحضرمي الذي قدم إلى الأندلس من اليمن واستوطن (قدمونة)، ولكن ذريته غادرتها إلى إشبيلية التي استقرت بها أمداً طويلاً، ومن ثم انتقلت هذه العائلة الكريمة إلى سبتة، وعندما تدهورت الحياة السياسية في الأندلس نزحت إلى تونس، حيث ولد النابغة عبد الرحمن بن خلدون سنة (٧٣٢ هجرية)، ففرح به والده محمد بن خلدون الذي يعتبر بحق من كبار فقهاء عصره. لقد تلقى أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون تعليمه الأولي على والده الحنون، ولكنه لم يكتف بهذا بل تتلمذ على أيدي كبار المفكرين في تونس، فتفوق تفوقاً ملحوظاً في كل من العلوم الشرعية (من حديث وتفسير وفقه) والعلوم اللسانية (من نحو وصرف وبلاغة وأدب) والفلسفة والتاريخ والرياضيات والفلك وعلم الاجتماع وغيرها من المعارف والثقافات.

يقول **محمد عبد الرحمن مرحبا** في كتابه «المرجع في تاريخ العلوم عند العرب»: «كان ابن خلدون لسناً فصيحاً، حسن الترسل متوقد الذهن، خصب التفكير دقيق الملاحظة فيما يقرأ ويرى، كبير النفس زاخر النشاط، متمكناً في العلوم التي انتهى إليها ارتقاء الثقافة ونشاط الترجمة والنقل في العالم العربي على عهده، يقلب الأخبار على وجهها ويكشف عن زيفها، ويتتبع الظواهر الإنسانية المختلفة ويستنتج منها ما يستنتج من أحكام. حفظ القرآن في صغره وجوده بالقراءات، وتلقى على أبيه ثم على كبار مشايخ تونس وفاس طائفة كبيرة من العلوم النقلية واللغوية والعقلية، فدرس التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه وعلم الكلام واللغة في مختلف فروعها، كما

obeikandi.com

درس المنطق والفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية، وعلى الرغم من شؤون السياسة التي استأثرت بعد ذلك بقسط كبير من نشاطه في مرحلة شبابه، فإنه لم ينقطع عن متابعة الدراسة، واستيعاب التراث الثقافي القديم ومتابعة الحركة الفكرية في عصره، والاطلاع على ما يظهر في العالم حوله من بحوث وآراء.. وكان إلى جانب تمكنه في البحوث العلمية محدثاً بارعاً، رائع المحاضرة، يخلب ألباب سامعيه بمنطقه وذلاقة لسانه وبلاغة عباراته، كيف لا وهو من أعلام الأدب العربي وأمراء البيان».

حاز أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي على احترام وتقدير زملائه لمكانته العلمية التي احتلها، لذا أعطوه ألقاباً كثيرة منها: الوزير، والرئيس، والفقيه، وعلامة الأمة، وولي الدين. وربما يسأل القارىء لماذا أضيف إلى اسم جده الأعلى خالد الواو والنون، وصار يدعى خلدون؟ الجواب: أن هذه الطريقة كانت متبعة في الأندلس للدلالة على التعظيم والوقار. والحقيقة أن عدداً كبيراً من المؤرخين في المعمورة قدموا دراسات مستفيضة عن منهج ابن خلدون حول النواحي الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والجغرافية والسياسية والحضارية والدينية؛ لأنه تمكن وبجدارة عظيمة أن يستخلص من الجزئيات كليات ونظريات علمية طبقها على الأحداث التاريخية، ويظهر ذلك واضحاً من قوله في كتابه «مقدمة ابن خلدون»: «التاريخ في ظاهره لا يزيد على الأخبار عن الأيام والدول.. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق.. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق».

لقد نوه كبار المؤرخين الغربيين بكل صراحة عن مكانة أبي زيد عبد الرحمن ابن خلدون العلمية، فذكر **أرنولد توينبي** في كتابه «دراسة التاريخ» أنه تفوق على السابقين له تفوقاً ملحوظاً، ولم يصل أحد من معاصريه إلى ما وصل إليه، فهو الذي صاغ أصول التاريخ التي تعتبر لا ريب أعظم عمل من نوعه ابتكره أي

عقل في أي عصر وفي أي بلد. وأضاف **جورج سارتون** في كتابه «مقدمة في تاريخ العلوم» أن أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون يقف بجلاء كأكبر مؤرخ في العالم، فله السبق على مكيافلي وبودان وفيكو وكونت وكورنو،لذا لا عجب أن يعد في مقدمة رواد علم التاريخ في المعمورة. أما روبرت فلنت، فقد وصف **عبدالرحمن بن خلدون** في كتابه «تاريخ فلسفة التاريخ»: بأنه لم يأت في العالم له مثيل في مجال علم التاريخ، فهو كباحث نظري في هذا الحقل ليس له نظير في أي عصر أو في أي قطر، فلم يكن أفلاطون أو أرسطو أو سان أوغسطين أنداداً له، بل لا يستحق غيرهم الذكر بجانبه، والحقيقة أن المؤرخين الأوائل جمعوا له المادة التاريخية ولكنه هو وحده الذي استخدمها.

نما وترعرع أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون في بيت علم ورياسة، نبوغه ليس فقط في علمي التاريخ والاجتماع، ولكن في سائر العلوم الأخرى التي جعلته يعتز بكل من جاهه وذكائه وحكمته وفطنته وأصالته في البحث. وكان كل من تطلعاته وحماسه وتحفزه دفعته أن يعمل في الوظائف الحكومية في ريعان شبابه، فقد أسند إليه العمل في ديوان الرسائل في تونس وهو في العشرين من عمره، وهكذا استمر يتنقل في الوظائف الحكومية في بلاد المغرب إلى عام (٧٧٦ هجرية)، وبعدها تفرغ للتأليف في كل من قلعة ابن سلامة وتونس إلى سنة (٧٨٤ هجرية)، وفي نفس السنة ذهب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وفي طريقه نزل في مصر، فبقي هناك يدرس طلاب العلم ويمارس وظيفة القضاء إلى أن توفي سنة (٨٠٨ هجرية).

يقول **نقولا زيادة** في كتابه آنف الذكر: «وحياة ابن خلدون تقع في فترة اضطراب سياسي حربي كبير في أقطار المغرب، وقد أسهم في الكثير من الشؤون العامة. فقد هرب من تونس بعد إنكسار عسكر الوزير الذي كان في خدمته وسعى إلى لقاء أبي عنان المريني الذي ضمه إلى حاشيته. ولكن الفترة التي قضاها في بلاد فاس شغل فيها ابن خلدون نفسه بالسياسة لا عملاً ورأياً فحسب بل

مؤامرات أيضاً، فانتهى به الأمر إلى قضاء سنتين في السجن. وخرج بعدها من فاس إلى غرناطة ليجرب حظه هناك مع صديقه سلطان غرناطة ووزيره لسان الدين الخطيب. ولكن ابن خلدون لم يلبث أن تعرض للسعايات والوشاية، فرحل من غرناطة إلى بجاية ولكنه لم يستقر هناك، فانتقل إلى بسكرة في الجزائر حيث قضى نحو سبع سنين متنقلاً بين المعسكرات المختلفة، وبعدها عاد إلى فاس ثم ذهب إلى تلمسان، ومن هناك انتقل إلى قلعة ابن سلامة في مقاطعة وهران حيث قضى أربعة أعوام. وهناك بدأ العمل بتاريخه الكبير الذي بدأه بالمقدمة، ولكنه أدرك أنه كان في حاجة إلى مكتبة عامرة ومصادر للتاريخ وافرة، فذهب إلى تونس حيث قضى أربع سنوات في الكتابة والتأليف، حتى فرغ من كتابه كاملاً، ورفع نسخة منه إلى أبي العباس سلطان تونس. وخشي ابن خلدون أن يحمل على العودة إلى الحياة السياسية في المغرب، فخرج إلى مصر متعللاً بالحج. وفي مصر سعى إلى لقاء سلطانها برقوق الذي ولاه التدريس بمدارسها، ولم يلبث أن ولي القضاء، وهو المنصب الذي تولاه ست مرات، عزل في خمس منها، وتوفي وهو في الولاية السادسة».

لقد عانى أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الكثير من الاضطهاد (مثل ما حدث له في فاس)، ولكن هذا لم يؤثر عليه كباحث مخلص وأمين، حيث نقل معارفه التاريخية بوضوح نحو الواقعية والموضوعية، وذلك بتفسيره أسرار النوازع البشرية وتأثيرها الحقيقي على الأحداث الفكرية. وعليه اختط لنفسه منهجاً خاصاً للدراسة والبحث، لم يحد عنه قيد أنملة حفاظاً على وقته الثمين وسمعته العلمية، لذا استفاد من المراجع التاريخية الغنية بالمعلومات التي كتبها المؤرخون الأوائل من مسلمين وغير مسلمين، فقد أخذ ما صح من الأخبار واستخدمها فيما كتبه في هذا الميدان الحيوي.

ويكفي عبد الرحمن بن خلدون فخراً واعتزازاً ما كتبه عنه العلامة الوزير الفطن **لسان الدين محمد بن الخطيب** في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»:

obeikandi.com

«إن أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون جم الفضائل، باهر الخصل، رفيع القدر، ظاهر الحياء، أصيل المجد، وقور المجلس، عالي الهمة، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوي الجأش، طامح لفنن الرياسة، خاطب للحظ، متقدم في عدة فنون عقلية ونقلية، متعدد المزايا، سديد البحث كثير الحفظ، صحيح التصور».

أما **أبو القاسم محمد كرو** فقد وصف مكانة أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون العلمية في كتابه آنف الذكر فيقول: «يجدر بنا أن نشير إلى أن ابن خلدون بالرغم من مساهمته في أحداث المغرب العربي السياسية، وتقلبه في مناصب إدارية كثيرة بين دويلاته المختلفة، فإنه كان إلى ذلك ذا شهرة أدبية، وعلمية ملحوظة، وكان يلاقي التقدير والإكبار من أجل علمه وأدبه. أما في الشرق فإنه نال شهرة أكبر وتقديراً أوفى، وإن لم تخل حياته هنا وهناك من الدسائس والمكائد التي كان يسعى بها عليه خصومه وحساده ومنافسوه لدى الحاكمين. ولقد ذكره معاصروه من الأدباء والمؤرخين بكثير من الاهتمام والتفصيل».

حاز أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون على شهرة عظيمة من كتابه: (كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) الذي قسمه إلى مقدمة وثلاثة كتب: المقدمة في فضل علم التاريخ، وأما الكتاب الأول فيختص بالعمران ويحتوي على معلومات هامة جداً عن طبيعة العمران البشري. والكتاب الثاني يشتمل على أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى زمان ابن خلدون، والكتاب الثالث يحتوي على أخبار البربر ومواليهم، وفي آخره ترجمة عن المؤلف سماها (التعريف بابن خلدون). وقد نشرت هذه الموسوعة القيمة في مصر سنة (١٢٨٤ هجرية)، ولحسن الحظ قام كل من عبد الكريم وحسن الزين صاحب دار الكتاب اللبناني في بيروت بطباعتها سنة (١٣٨٦ هجرية)، لذا صارت في متناول الدارسين والباحثين في جميع أرجاء المعمورة.

يقول **جرجي زيدان** في كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» :ـ الجزء الثالث

ـ: «اشتهر ابن خلدون بكتاب واحد بل بجزء واحد من ذلك الكتاب، نعني: مقدمة تاريخه. أما التاريخ فاسمه (العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، وهو اسم طويل لكنه يعرف بتاريخ ابن خلدون، وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات: الكتاب الأول في العمران، وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش، والصنائع والعلوم، وما إلى ذلك من العلل والأسباب، وهو المشهور بمقدمة ابن خلدون، وبها وحدها نال ابن خلدون القدح المعلى؛ لأنه أتى فيها بأبحاث جديدة من قبيل ما يسميه أهل هذا الزمان بعلم الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، وفلسفة التاريخ، وقد تصدى لذلك، وأجاد فيه، وأهل أوربا في غفلتهم، ولم يكتب غيره من العرب في هذا الباب إلا نتفاً متفرقة. فتوسع هو في ذلك بما استخرجه من الأسباب والعلل، بمقابلة الحوادث، ودرس المسائل، والبحث عن عللها مما طالعه أو كابده بنفسه. ولاشك أن توالي اغترابه، واحتكاكه بالأمم المختلفة، والدول المتباينة أعانه على ذلك، فضلاً عما اطلع عليه من التواريخ الإسلامية وغيرها.. فمقدمة ابن خلدون خزانة علوم، اجتماعية، وسياسية، واقتصادية وأدبية.. فضلاً على أسلوبها اللغوي فإنه خاص بها. وعباراتها متناسقة مترابطة كأنها سلاسل الذهب. ولذلك كان لهذه المقدمة وقع عظيم عند أهل التفكير من الإفرنج أيضاً، فنقلها كاترمير إلى الفرنسية عن نسخة في مكتبة باريس وطبعت هناك سنة (١٨٥٨ ميلادية)، وترجمت منها قطع إلى الإنكليزية والألمانية والتركية. وقد طبعت باللغة العربية مراراً في مصر والشام وأوربا».

وخلاصة القول: نشأ عبد الرحمن بن خلدون فترة من الزمن حافلة بالاضطرابات والفتن، فعلى سبيل المثال انقسمت دولة الموحدين على نفسها إلى ثلاثة أقسام:بنو مرين في المغرب الأقصى (فاس)، وبنو عبد الواد في المغرب الأوسط (الجزائر)، وبنو حفص في المغرب الأدنى (تونس)، وكان الجو

محموماً بين هذه الدول الثلاث، لذا اندفع أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون إلى البحث والاستقصاء في ميدان علم التاريخ؛ لإبراز الحقائق التاريخية لشباب الأمة الإسلامية، وذلك لاعتقاده القوي أن علم التاريخ هو الوسيلة الفريدة للإجابة على ما جرى ويجري من أحداث وتطورات، ليس فقط في الدول الإسلامية ولكن في العالم، وهكذا انتشر منهجه التاريخي القائم على الواقعية، والمعقولية لمعظم الظواهر التاريخية.

يقول **أبو القاسم محمد كرو** في كتابه «العرب وابن خلدون»: «كان العالم العربي في عصر ابن خلدون من الناحية السياسية، مفككاً مشتتاً، تحكمه دويلات صغيرة، قامت هنا وهناك، لا تكاد الواحدة منها تستقر حتى تسقط تحت ضربات ثائر، أو خارج أو طامح، وكان كل جسور أو دجال يستطيع أن يصنع دولة من لا شيء، فإن لم يقدر أحدث الفتنة والخراب، وأشاع الذعر والفوضى في حياة السكان الآمنين، وفي مثل هذا الذعر وعدم الاطمئنان عن الحياة والمال والمتاع، لا يمكن أن ينهض علم أو تسير الحضارة في أمان، فكان العالم العربي يومئذ في تراجع علمي وأدبي شامل، وكان التقليد واجترار الماضي بأساليب مختلفة هو شغل المنصرفين إلى الأدب والعلم، والحياة تسير بخطى واسعة نحو الانحطاط، ولولا أقباس من النور تلمع بين فترة وأخرى في ذلك الظلام الداجي، لما كان ثمة شيء يثير الانتباه والاهتمام، وابن خلدون كان قبساً وهاجاً من تلك الأقباس الخاطفة».

وكان عند أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون قناعة تامة أن المؤرخين الأوائل من مختلف الجنسيات حتى عصره قد نحوا بسرد الحوادث التاريخية بطريقة لا تنمي الذهن، ولا تمتع المؤرخ اللبيب الذي يريد أن يربط الأسباب بالمسببات. وعليه أبدى ملاحظاته الجريئة والدقيقة على ما كتبه الأقدمون الأفاضل مستفيداً من خبرته الواسعة بالحياة السياسية، وبهذا لم ينحز إلى مدرسة فكرية معينة، بل استطاع أن يبلور أفكاره النادرة المستمدة من

obeikandi.com

استنتاجاته العلمية العميقة. والحق أنه صاحب خلق لا يقبل الجدل وآراؤه صائبة، وأحكامه متناهية في الدقة.

والحقيقة أن أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون لم يفسر الظواهر الاجتماعية أو الوقائع التاريخية المتوفرة لديه في ضوء نظرية معينة دون غيرها. استخدم وبجدارة فائقة كلاً من التفسيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية والنفسية، وهذا من دون أدنى شك يوضح أن لديه مقدرة متعددة الجوانب الفكرية. وعرف بين زملائه بإصراره على ضرورة تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها. كما أنه من المعجبين بقول الإمام علي رضي الله عنه: «من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله ذل».

لدى أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون تصور صحيح وواضح للحركة التاريخية للمجتمعات البشرية، ويظهر ذلك في مقدمته التي قال فيها: «اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحُسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق. وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط، ولا سيما في إحصاء الأعداد من

الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات، إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولابد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد».

وأخيراً نستطيع القول: إن أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون قد قدم للبشرية أجمع، بإجتهاده ومثابرته على الدراسة والبحث ليس فقط أصول علم التاريخ ولكن أيضاً علماً جديداً لم يسبقه أحد إليه ألا وهو علم الاجتماع. ومن المؤسف حقاً أن الكثير من المؤرخين يظنون أنه لم يؤلف سوى كتابه المعروف باسم: (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) بأجزائه الثلاثة علماً أنه شرح البردة في مدح صفوة الخلق رسول الله ﷺ ، ولخص معظم أعمال الفيلسوف العربي المشهور ابن رشد، وألف كتاباً هاماً في علم الحساب.

openkandl.com

أحمد القلقشندي

هو **أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي**، كنيته **أبو العباس** وفي بعض الأحيان يسمى **شهاب الدين**، أعطي ألقاباً كثيرةعداً منها: **الفزاري وابن أبي غدة والقاهري والقلقشندي**، أما تسميته **بالفزاري** فلأنه ينتمي إلى القبيلة العربية الأصيلة من بني بدر بن فزارة من قيس عيلان، ولكن لقب القلقشندي طغى على جميع الألقاب التي أعطيت له. والجدير ذكره أنه اشتهر باسم القلقشندي لأنه ولد سنة (٧٥٦ هجرية) بقرية قلقشندة التي تُعتبر من أعمال طوخ بمحافظة القليوبية بالديار المصرية، وهذه القرية عرفت بمزارعها الخضراء وكثرة فواكهها. نما وترعرع أبو العباس القلقشندي في بيئة علم ووقار؛ لأن عائلته كان لها مكانتها العلمية والاجتماعية في مصر، تلقى تعليمه الأولي والأساسي بمدينة القاهرة، ولذا فإنه في بعض الأحيان يدعى بالقاهري.

انتقل **شهاب الدين القلقشندي** من مدينة القاهرة إلى مدينة الإسكندرية، ومكث هناك مدة من الزمن تتلمذ فيها على أيدي جهابذة الفكر هناك، فبرع في كل من علم التاريخ واللغة العربية والأدب، ولكنه تفوق في علم الأنساب الذي أجمع عليه أنه جزء لايتجزأ من علم التاريخ، والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أنه بجهود شهاب الدين القلقشندي الخاصة ومثابرته على البحث والاستقصاء، ليس فقط في علم التاريخ ولكن في سائر العلوم، جعلت السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤ ــ ٨٠١ هجرية) يختاره أن يكون مسؤولاً عن ديوان الإنشاء. والشخص الذي يسند إليه مثل هذه المهمة لابد أن يكون من أئمة النثر والبلاغة، ولديه القدرة على الإصغاء والفهم، والمتواتر عن أبي العباس القلقشندي أنه يرى في البحث والمتابعة لذة هي أسمى أنواع اللذات، واستمر يمارس عمله في ديوان الإنشاء بكل نشاط حتى توفي بمدينة القاهرة سنة (٨٢١ هجرية) في عهد السلطان المؤيد شيخ الحمودي، ولاشك أنه جنى معلومات تاريخية نادرة وقيّمة من مصادرها

obeikandl.com

الأولية بحكم وظيفته بدولة المماليك الجراكسة.

يقول **محمد حسين شمس الدين** في مقدمته لكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» لأحمد بن علي القلقشندي: «وقد كانت لديوان الإنشاء أهمية خاصة في عصر القلقشندي، وكان على المرشح للعمل فيه أن يكون من أقطاب النثر والبلاغة، الذين تؤهلهم معارفهم الواسعة للوقوف على شؤون الحكم والسياسة الداخلية والخارجية، وسير العلاقات الدبلوماسية بين مصر وباقي الأمم، كما كان على كاتب الإنشاء أن يتحلى بمجموعة من الصفات اللازمة له: كصباحة الوجه وفصاحة اللفظ وطلاقة اللسان وإيثار الجد على الهزل وتوقد الفهم وحُسن الإصغاء، كما تطلبوا فيه كتمان السر، الأمر الذي يصر القلقشندي على خطورته ويراه ضرورة لا يمكن التجاوز عنها، فيما يشغل وظيفة كاتب الإنشاء أو كاتب السر، فيقول عنها: هذه الصفة هي الشرط اللازم والواجب المحتم».

كان أبو العباس القلقشندي عالم عصره دون منازع حيث لمع في سماء العلم، ولا سيما في ميدان علم التاريخ، ويظهر ذلك واضحاً من مؤلفاته المختلفة التي امتازت بما جمعه من علوم علماء العرب والمسلمين الأوائل، وإلى آرائه وبحوثه الجريئة، كما أن ملاحظاته التاريخية كانت تدل على النضج والنبوغ، وقد نوه عن قيمة مؤلفاته العديد من المؤرخين، ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن في جميع أرجاء المعمورة، ومنها: الكواكب الدرية في المناقب البدوية، والغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع، وحلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم، وضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر، ونظم سيرة السلطان المؤيد شيخ الحمود، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ومآثر الأناقة في معالم الخلافة وقلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا.

وخلاصة القول: تسلطت جنود التتار الطغاة على بغداد فسقطت بأيديهم سنة (٦٥٦ هجرية) فلهم اللعنة ولهم سوء الدار، فدمروا جميع ألوان

الكتب والمخطوطات التي تُعتبر خلاصة فكر علماء العرب والمسلمين، مما جعل كبار علماء المسلمين يتجهون هاربين من اضطهاد التتار إلى مصر، وهناك كرس علماء كل من العراق والشام ومصر بكل إخلاص وتفان على جميع مفردات العلم، وعطايا العقل، ولوامع التراث. أما الفترة التي عاش خلالها أبوالعباس القلقشندي فكانت فترة حكم الدولة المملوكية الثانية المعروفة بدولة المماليك الجراكسة (٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ) التي كانت تفتقر إلى الاستقرار السياسي، بينما كان رجال العلم (كبار العلماء) متفرغين للدراسة والبحث والاستقصاء، ولذا كوّنوا صرحاً شامخاً من المؤلفات العلمية الثمينة، وعليه ازدهر علم التاريخ في هذه الحقبة من الزمن، وأتى ثماره على أيدي كبار مؤرخي الإسلام وفي مقدمتهم المؤرخ العلامة شهاب الدين القلقشندي الذي كان يتمتع بخبرة تاريخية أصيلة.

ولقد كان أبو العباس القلقشندي من مصنفي الموسوعات العربية التي خدمت الدارسين والباحثين عبر التاريخ، فهو بالحقيقة عالم موسوعي، ويُعتبر أيضاً من الأعلام البارزين الذين خططوا الخطوط العريضة والأساسية لفنون الكتابة، واشتهر بمنهجه التاريخي الاستقرائي للوقائع والأحداث الذي أساسه المشاهدة والمساءلة والمشافهة والملاحظات الشخصية والوثائق الرسمية والكتب القيمة الموثقة، كما عرف بين زملائه بأمانته حيث كان ينسب جميع معلوماته التي استخدمها لأصحابها فلا يدعي شيئاً منها لنفسه.

لقد ألمَّ شهاب الدين القلقشندي بالتراث الإسلامي وفنونه المتنوعة. وعليه تمكن من إبراز مفاخر الثقافة الإسلامية في مواجهة التيارات المعادية للإسلام، وهذا من دون شك إثبات واضح بأن عنده نفس وثابة للإنجاز، وفكر جائع للمعرفة، وضمير متطلع إلى إشاعة العدل على الأرض، والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أنه كان يتمتع بمعارف تاريخية نادرة، علاوة على أنه كان أديباً وفقيهاً وسياسياً ودبلوماسياً محنكاً.

ابن تغري بردي

هو **يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري**، كنيته **أبو المحاسن** وفي بعض الأحيان يُعرف باسم **جمال الدين**، أما لقبه **الظاهري** فقد أخذه عن أبيه سيف الدين الذي كان أصله مملوكاً رومياً للسلطان الظاهر برقوق الذي عيّنه قائداً لإحدى فرق الجيش المملوكية السلطانية. كما أن ابن السلطان برقوق (فرج بن برقوق) أسند إليه نيابة دمشق وذلك بعد وفاة أبيه. ولد يوسف بن تغري بردي بمدينة القاهرة سنة (٨١٣ هجرية) أي قبل وفاة والده بسنتين، لذا عاش يتيماً في حجر أخته زوجة قاضي القضاة ناصر الدين محمد ابن العديم الذي توفي وعمر الطفل يوسف بن تغري بردي ثماني سنوات، ولكن أخته تزوجت بقاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقيني الذي تولى تربيته، وزرع فيه الميل إلى تحصيل العلم، لذا استمر الطفل يوسف بن تغري بردي تحت رعاية أخته إلى أن بلغ سن الرشد. وهكذا يتضح للقارىء أنه نما وترعرع في بيت علم، حفظ القرآن الكريم في سن مبكر جداً ونبغ في كل من الأدب والفقه والحديث، ولكنه أولع ولعاً شديداً بعلم التاريخ والرواية، فدرسه على أعظم مؤرخي العصر التاسع الهجري المقريزي، فتفتحت مواهبه واستوى عوده، لذا بدأ بتدوين الحوادث التاريخية بهمة مرموقة وأسلوب رائع. وعليه اتضحت شخصيته ومنهجه في التأليف. اشتهر بعرضه أكثر من رواية واحدة للحدث التاريخي الواحد، وذلك ليعطي الدارس والباحث الفرصة العلمية على القيام في مقارنة الروايات التاريخية المختلفة واستخلاص النتائج المناسبة والمعقولة، لاشك أن ارتباط المؤرخ يوسف بن تغري بردي بالطبقة الحاكمة، ومعلوماته الجيدة في كل من الفقه والحديث والأدب وتفوقه في مجال علم التاريخ، هيأته لأن يكون مؤرخاً متميزاً بين مؤرخي الحضارة العربية والإسلامية. عرف بين زملائه بكرمه وحبه للخير

وتقديره واحترامه أهل الفضل عبر حياته المديدة. توفي بمدينة القاهرة سنة (٨٧٤ هجرية) فحزن عليه طلاب العلم كثيراً.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «نشأ ابن تغري بردي نشأته العلمية الدينية، ثم لازم مجلس المقريزي فأخذ عنه التاريخ وشغف به حتى أضحى هوايته الكبرى. لكنه درس الثقافة العسكرية أيضاً على أيدي مماليك أبيه. وهكذا كبر ابن تغري بردي وهو ينتمي إلى طبقتي أهل السيف وأهل العمائم في وقت معاً، على أن ابن تغري بردي كان من أكابر (أولاد الناس) ومعنى ذلك بلغة العصر: أولاد الأمراء المماليك. وقد كان لديه من موارد الرزق ما يسمح له بأن يعيش في سعة كاملة، واستغناء عن العمل. وإذا أتقن ابن تغري بردي العربية بجانب التركية، وبرع في الفروسية براعته في الضرب والإيقاع والنغم وعرف الفقه وقرض الشعر.. فإن دراسة التاريخ هي التي استولت عليه.. وهذه الهواية مع التفرغ جعلت منه المؤرخ الكبير، ويضاف إلى ذلك ما استطاع الاطلاع عليه من معلومات وأخبار عصره نتيجة صلاته الواسعة مع البلاط السلطاني وعدد من كبار الأمراء وصانعي السياسة».

كان أبو المحاسن ابن تغري بردي فاضلاً في ميدان علم التاريخ، جيد الاطلاع فيه مطلعاً على دقائق أسراره، كما أن له مؤلفات في هذا المجال الحيوي تدل على أن ثروته التاريخية لا يُستهان بها، مما جعله محل تقدير وإجلال كبار العلماء والمؤرخين. ولقد تناقل المؤرخون في المعمورة أعداداً كبيرة من مؤلفاته في مؤلفاتهم ومنها: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي في تراجم الأعيان، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وحوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ونزهة الرأي في التاريخ، ونشء اللطافة في ذكر من ولي الخلافة، ومورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة، ونزهة الألباب في اختلاف الأسماء والألقاب، والبحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر، والبشارة في تكملة الإشارة، وحلية الصفات في الأسماء والصناعات، وكتاب الوزراء،

ورسالة في الموسيقى الصوتية، والانتصار للسان التتار، والدليل الشافي على المنهل الصافي، وكتاب في الرياضيات والموسيقى، والسكر الفاضح والعطر الفاتح وغيرها.

وخلاصة القول: يُعتبر القرن التاسع الهجري من أهم العصور التاريخية؛ لأنه حافل بالمؤرخين المخلصين والكتب التاريخية الشاملة، لقد حفظ المؤرخون لهذا العصر مقتطفات تاريخية كثيرة في مؤلفاتهم عن كتب ضاعت أصولها، كما اشتهروا بأسلوب الرواية في نقل الأحداث التاريخية، وذلك بنسبة الروايات التاريخية إلى أصحابها، ويظهر ذلك واضحاً من قول أبي المحاسن ابن تغري بردي في مقدمة كتابه «النجوم الزاهرة»: «وأجمع في ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار وأربابها، وذلك بعد اتصال سندي إلى من لي عنه منهم رواية، ليجمع الواقف عليه بين صحة النقل والرواية».

تفنن جمال الدين ابن تغري بردي في تاريخ المماليك والجراكسة، وعرف بمقدرته العجيبة على الإحاطة بالجزئيات التاريخية إحاطة دقيقة ونادرة، لذا يُعتبر بحق من كبار مؤرخي عصر المملوكية والمؤرخ الأول لعصر الجراكسة، والحقيقة أن مؤهلاته العلمية والأدبية والتاريخية والشرعية أهّلته لأن يكون قريباً من سلاطين مصر حوالي خمسين عاماً، حيث كان أغلب سلاطين الدولة المملوكية يصرون على استدعائه إلى مقر حكمهم لحضور مجالسهم؛ لكي يسمعوا ما لديه من معلومات ليس فقط في علم التاريخ، ولكن في سائر العلوم. والجدير بالذكر أن أبا المحاسن ابن تغري بردي قد عاصر من خلال فترة حياته كلها أكثر من ستة عشر من سلاطين المماليك، وذلك من عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى أوائل فترة حكم الأشرف قايتباي.

ودرس أبو المحاسن بن تغري بردي بكل عناية ما حصل عليه من كتب الأقدمين، وعمد على تلخيصها وشرحها والتعليق عليها، هذا فضلاً عن بعد همته في الملاحظة الميدانية والاستقصاء والتأمل لاستخلاص الفائدة المرجوة،

obeikandl.com

وعليه تكون لديه ذخيرة تاريخية وأدبية وظفها في مؤلفاته المختلفة، كما يسرت له علاقة قوية بسلاطين المماليك.

أرجو أن تكون هذه الترجمة الموجزة لأبي المحاسن ابن تغري بردي حافزاً قوياً للاعتناء بتراث الأمة العربية والإسلامية، حيث ترك أبو المحاسن ابن تغري بردي ثروة علمية للأجيال لا تقدر بثمن، وقد ساعده على ذلك جودة ذهنه وتصوره وحكمته وصحة فهمه، وتجرده عن كل تعصب وهوى. ويبدو واضحاً من مصنفاته أنه وصف أجيال المماليك ودولتهم وسلاطينهم بقدر كبير من الحيدة والموضوعية والنزاهة، واشتهر أبو المحاسن ابن تغري بردي بين زملائه المؤرخين بجرأته على قول الحق، وإصدار رأيه بعيداً كل البعد عن الاعتبارات الشخصية.

obeikandl.com

محمد الكافيجي

هو **محمد بن سليمان بن سعد بـن مسعود الرومي الكافيجي**، وسمي **الرومي** لأن أصله رومي، يكنى **بأبي عبد ا لله**، ويلقب **بالكافيجي** (الكافيه جي) لأنه كان من المغرمين بكتاب: «الكافية» في النحو، ويدعى في بعض الأحيان بمحيي الدين، ولد سنة (٧٨٨ هجرية) في كوك جاكي من بلاد الأناضول، وتلقى تعليمه على أيدي كبار المفكرين فيها، حيث تفنن في علوم كثيرة، ولكنه نبغ في كل من علوم التاريخ والفقه والنحو والتفسير. كما ذاع صيته بين زملائه بمقدرته الذهنية وطول نفسه في المناقشة والحوار، فكان يرى ضرورة الحوار في التربية والتعليم. لذا كان معلماً شعبياً محبوباً عند تلامذته وزملائه، ثم جاءت له فكرة مغادرة الأناضول والتوجه إلى أرض الكنانة (مصر) لكي يلتقي بجهابذة الفكر هناك، وفعلاً تم ذلك وصارت له صولة وجولة في القاهرة، وتتلمذ عليه كثير من علمائها الكبار وعلى رأسهم محمد السيوطي (٧٨٣ ــ ٨٥٩ هجرية) صاحب كتاب «رياض الأدب ومحاسن الآداب» الذي لازمه أربع عشرة سنة. كما أسندت إليه وظائف كثيرة في مصر وأهمها رياسة الحنفية بمصر. ولكنه لم يستمر في أعماله الوظيفية، بل تفرغ للبحث والاستقصاء في مجال كل من علمي التاريخ والفقه والعلوم الشرعية الأخرى والنحو والأدب حتى توفي سنة (٨٧٩هجرية). وقد برز أبو عبد ا لله الكافيجي بالمعقولات، لذا عندما صدر كتابه القيم الذي يعرف باسم: «المختصر في علم التاريخ» صار المؤرخون يتناقلونه؛ لأنه كان الأول من نوعه في هذا المجال الحيوي.

يقول **فرانز روزنثال** في كتابه آنف الذكر: «وكتاب المختصر في علم التاريخ لمحمد الكافيجي هذا جدير بالاعتبار لأصالة طريقته، وجودة كتابته، وهو يتبع النظام المألوف في تعريف علمي يرجع إلى الفلسفة

obeikandi.com

الأرسطوطاليسية. وكان مصدر الإلهام المباشر في هذا المضمار هو طريقة البحث في علم الفقه. وقد أجاب باختصار عن المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه، وهدفه وفوائده. غير أنه كرّس مجالاً أوسع للمعضلات الناجمة عن غموض كلمة «تاريخ» العربية، وعن مركز التاريخ في العلوم الدينية الإسلامية».

ولأبي عبد الله الكافيجي مؤلفات كثيرة من أهمها: كتابه «النصر القاهر والفتح الظاهر»، ورسائله المشهورة التي سجل معظمها الكثير من المؤرخين في المعمورة وعلى رأسهم كل من حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» وعمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين» ـ الجزء العاشر ـ، وخير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام» ـ الجزء السابع ـ وهي: منازل الأرواح، ومعراج الطبقات، وقرار الوجد في شرح الحمد ونزهة المعرب، وفي النحو، والتيسير في قواعد التفسير، والإحكام في معرفة الإيمان والأحكام، والإلماع بإفادة لو للامتناع، وجواب في تفسير: والنجم إذا هوى، ومختصر في علم الإرشاد، وشرح قواعد الإعراب لابن هشام، وجيز النظام في إظهار موارد الأحكام، وحل الإشكال في مباحث الأشكال في الهندسة، والأنوار في علم الإرشاد، والأنوار في علم التوحيد الذي هو أشرف العلوم والأخبار. أما كتابه (المختصر في علم التاريخ) فهو يُعتبر الفريد من نوعه في هذا الميدان، وقد تطرق فيه إلى عدد من المسائل المتعلقة بعلم التاريخ، محاولاً بذلك أن يضع منهجاً واضحاً لهذا العلم الهام.

يقول **أبو عبد الله محمد الكافيجي** في مقدمة كتابه «المختصر في علم التاريخ» : «الحمد لله الذي خلق الأرض والسماء، وما فيهما عبرة لأولي النهى، والصلاة والسلام على رسوله وحبيبه محمد صاحب الوحي والهدى، وعلى آله وأصحابه وأتباعهم الذين هم نجوم الاقتداء والاهتداء، وبعد: فإن من جملة العلوم النافعة في المبدأ والمعاد، وما بينهما علم التاريخ الذي فوائده

وغرائبه لا تُعد ولا تُحصى، وهو بحر الدرر والمرجان، لا يحيط بمنافعه نطاق التحديد والتبيان، وفيه عجائب الملك والملكوت، وفيه إيصال إلى جناب الحق ذي العظمة والجبروت. ولكن لما كان درراً منثورة في عجاج بحر العمان غير منتظم في سلك القواعد والتبيان، وقد دعاني الحدب على أهل (الأدب والأرب) إلى جمعه في قوانين الضبط والبيان بقدر الوسع والمكان متوكلاً في ذلك على الله المعين كثير الفضل والإحسان. ولئن كنت بمراحل من جانب التصدي لذلك الخطب العظيم الشأن، دوّنت كتاب المختصر في علم التاريخ، تحفة مناي إلى الإخوان تحفة النملة إلى سليمان، راجياً من الله الذكر الجميل في الأولى والأجر الجزيل في الآخرة، إنه على كل شيء قدير».

وخلاصة القول: أولى فقهاء العرب والمسلمين الأوائل اهتماماً بالغاً لعلم التاريخ؛ لأنهم كانوا يرون أن علم التاريخ أحسن وسيلة لإيضاح كل من الفقه والعلوم الشرعية، حيث إن علم التاريخ بطبيعته يعرض تصوراً للحياة السياسية والاجتماعية والأدبية والدينية، ويقدم أيضاً معلومات وحقائق عن مآثر كل من الملوك والأمراء والعلماء الكبار والزهاد والفضلاء والنبلاء، وهكذا عني أبو عبد الله الكافيجي بالعلوم التاريخية، وألف كتابه الشهير الذي يحمل اسم: «المختصر في علم التاريخ» الذي صار مرجعاً ضرورياً لمن أراد أن يكتب عن التاريخ الإسلامي عبر التاريخ. كما خلفه بهذه المهمة طلابه الأوفياء من بعده، حيث أحاطوا علم التاريخ بضروب من العناية والاهتمام، وعليه أصبحت مادة علم التاريخ تدرس للشباب والكبار في جميع الدول الإسلامية إلى يومنا هذا، والسبب في ذلك أن علماء العرب والمسلمين أدركوا أن الذي لا يتذوق علم التاريخ لن يكون عنده الحافز والرغبة في الدراسة والبحث، لذا يصرون بدون هوادة على طلاب العلم في جميع المستويات أن يجمعوا بين علم التاريخ وأي فرع من العلوم الأخرى.

ولقد أصبح أبو عبد الله الكافيجي من العلماء المرموقين في الحضارة

obeikandi.com

العربية والإسلامية؛ لأن جميع كتاباته واضحة لا التباس حولها، وتمتاز أيضاً بأسلوبها السهل الممتنع الأصيل الجزيل بمعانيه، لذا صار كتابه «المختصر في علم التاريخ» ـ الذي يحتوي على مبادىء علم التاريخ، وأصوله ومسائله، وفي بيان شرف وفضل أهله ـ من المصادر الهامة جداً لأي باحث يريد أن يعمل دراسة تاريخية موثقة.

obeikandl.com

شمس الدين السخاوي

هو **محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان السخاوي**، يكنى بكل من **أبي عبد الله وأبي الخير وشمس الدين والحافظ**، ويلقب **بالسخاوي** لأن أصله من سخا إحدى قرى مصر، ولد سنة (٨٣١ هجرية) في القاهرة، وتوفي سنة (٩٠٢ هجرية) في المدينة المنورة. تلقى تعليمه على كبار المفكرين في القاهرة، وتفنن في كل من علم التاريخ والحديث والتفسير والأدب والفرائض والحساب والميقات، ولكن ذاع صيته لمواقفه الجريئة في الدفاع عن أهمية دراسة علم التاريخ، حيث قدم أفكاره التاريخية تقديماً متقناً عالج فيها أمل ومعضلات العالم العربي والإسلامي آنذاك، وأبرز ذلك في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، الذي كان له عظيم الأثر على علماء العرب والمسلمين في تغيير اتجاههم وشعورهم نحو علم التاريخ، كما أثبت أبو عبد الله السخاوي فيه أيضاً أن علم التاريخ الإسلامي له صلة ضعيفة بالتواريخ القديمة التي ظهرت قبل شروق الدين الإسلامي، وأنه شديد الارتباط في كل من القرآن الكريم، وعلم الحديث والسيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ والفتوحات الإسلامية، كان أبو عبد الله السخاوي يحب الأسفار، وقد استفاد من رحلاته المتكررة إلى معظم عواصم العالم الإسلامي، فمثلاً التقى بكبار علماء الحديث في المدينة المنورة، وأخذ عنهم الكثير في هذا المجال، لذا كان قوي الحجة أمام خصومه؛ لأنه واسع الثقافة وصاحب منهج علمي متطور في مجال علم التاريخ، وكان يحث دائماً على اتباع الاستقراء والدقة في الاستنتاج من أجل الوصول إلى أفضل النتائج المرجوة.

يقول **الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي** في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»: «وأما ما لعله يذكر فيه من أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وسننهم فهو من أخبار العلماء ومذاهبهم، والحكماء

وكلامهم والزهاد والنساك ومواعظهم، عظيم الغناء ظاهر المنفعة، فما يصلح الإنسان به أمر معاده ودينه وسريرته في اعتقاداته، وسيرته في أمور الدين، وما يصلح به أمر معاملاته ومعاشه الدنيوي، وكذا ما يُذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم وأسباب مبادىء الدول وإقبالها ثم سبب انقراضها، وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التي يتكرر مثلها وأشباهها أبداً في العالم، غزير النفع كثير الفائدة بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله، وجرب الأمور بأسرها وباشر تلك الأحوال بنفسه، فيغزر عقله ويصير مجرباً غير غر ولا غمر.. وأنه أيضاً جم الفائدة كثير النفع لذوي الهمم العالية والقرائح الصافية، لما جبل عليه طباعهم من الارتياح عن سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها، ليصير لهم نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر الذي حرض عليه خلاصة البشر، وأخبر الله تعالى عن إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أنه قال: ﴿واجعلْ لي لسانَ صدقٍ في الآخِرين﴾ [سورة الشعراء آية ٨٤]».

إن موقف شمس الدين السخاوي نحو علم التاريخ يدل على شجاعته ونزعته إلى الاستقلال في الرأي، ورغبته القوية في تحرير العقل، فهو بحق الذي جعل للاستقراء مكاناً في دراساته وتحرياته، وهذا يظهر في مؤلفاته العديدة التي ذكرها بعض المؤرخين، ومنهم مصطفى عبد الله الشهير بحاجي خليفة صاحب كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، ومن أشهرها: الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، وشرح ألفية العراقي في أصول الحديث، والمنهل البديع في أحكام الصلاة على الحبيب الشفيع، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، والتبر المسبوك، وذيل لتاريخ المقريزي، والذيل على كتاب الذهبي دول الإسلام (الذيل الحافل لتاريخ الإسلام)، وذيل لكتاب أخبار مصر، وذيل لكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر (لابن حجر العسقلاني)، والجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، والكوكب المضيء (ترجم به لبعض

معاصريه)، والتحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة، النفحة المسكية والأجوبة المكية، والغاية في شرح الهداية، والشافي من الألم في وفيات الأمم، والتاريخ المحيط وطبقات المالكية، وتلخيص تاريخ اليمن، وتلخيص طبقات القراء، وتحفة السائل بأجوبة المسائل، والتوجه للرب بدعوات الكرب، والسيف القاطع، وعمدة الناس في مناقب سيدنا العباس، والقناعة فيما تمس إليه الحاجة من أشراط الساعة، والمقاصد الحسنة في كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ونظم اللآلىء في الإبدال، وشرح التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير (للإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي).

وخلاصة القول: حصل في القرن التاسع الهجري بعض التوجه في العالم الإسلامي نحو الدراسة والبحث في مجال علم التاريخ الذي يعتبره الأوائل الوسيلة القوية لخدمة العلوم الدينية؛ لأن الدين الإسلامي تاريخي الروح؛ ولأنه خلاصة الأديان السماوية كلها، والعقيدة الإسلامية لها جذورها الصلبة في علم التاريخ الإسلامي، والحقيقة أن الأوائل يرون أن علم التاريخ الطريق المبين لمعرفة الفقه والشريعة، وذلك لأن علم التاريخ ارتبط منذ البداية في صدر الإسلام بالعلوم الدينية. والجدير ذكره أن المسلمين الأوائل كانوا يكتبون عن السيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ والفتوحات الإسلامية والخلافة في الإسلام وتراجم رجال العلم والفقه والحديث، لذا اهتم شمس الدين السخاوي اهتماماً بالغاً بعلم التاريخ، وأوضح مكانته بين العلوم الأخرى، وهذا يظهر واضحاً في كتابه التبر المسبوك، وكما عني أبو عبد الله السخاوي الحافظ المؤرخ بأخبار ومآثر كل من الملوك والأمراء والعلماء والزهاد والفضلاء والنبلاء؛ لكي تكون أعمالهم قنديلاً يضيء الطريق لشباب الأمة العربية والإسلامية.

وتمكن شمس الدين السخاوي من إعطاء علم التاريخ ملامحه الأصلية وأبعاده الفكرية المتميزة، وذلك باعتماده على الروايات الموثقة المتناقلة من جيل إلى آخر

obeikandi.com

وعلى بعض الأخبار المتوارثة عن الأسر العريقة والنبيلة، والمشهود له أنه كان موضوعياً ومنطقياً في جميع تعليلاته للأحداث التاريخية، حيث لم يخضع أبداً للابتزاز مهما كان مصدره، لذا يُعتبر من رواد علم التاريخ المخلصين لهذا العلم الحيوي، والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أن لأبي عبد الله السخاوي منهجاً فكرياً تاريخياً تميز به عما سواه من مؤرخي العرب والمسلمين، وهذا يظهر واضحاً وجلياً في كتاباته التي تمتاز بأسلوبها الاستقرائي الشامل، والسهل البسيط الواضح المعالم وبتقديمه الأحداث والوقائع التاريخية بطريقة مباشرة وسلسة، وفوق هذا كله جميع أعماله كانت تتصف بدرجة عالية من الاتزان والابتعاد كل البعد عن الخزعبلات والصور الخيالية.

وكان لآراء أبي الخير السخاوي حول علم التاريخ صدًى جيداً في أواسط الشعوب العربية والإسلامية، بها بث الوعي التاريخي بين معاصريه والتابعين له، كما أبرز بطريقة عملية ما لعالم التاريخ من ارتباط وثيق مع العلوم الأخرى، وذاع صيت أبي عبد الله السخاوي بين زملائه بتجواله وأسفاره وقيامه برحلاته العلمية إلى العواصم الإسلامية؛ لينهل المعارف التاريخية والفقه والشريعة من مصادرها العذبة، لذا ظهرت الرحلات العلمية قنديلاً في طبيعة منهجه وفي تثقيفه، واطلاعه على المعلومات التي ذكرها في مؤلفاته المختلفة.

ابن الوزير الملطي

هو **عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي**، كنيته **زين الدين**، لقبه **ابن الوزير**. ولد في مدينة ملطية التي تقع في أطراف آسيا الصغرى سنة (٨٤٤ هجرية)، وظهر نبوغه مبكراً، حيث حفظ القرآن الكريم في صغره، وكان نفساً وثابة للإنجاز وفكراً جائعاً للمعرفة. زار عدداً كبيراً من المراكز الإسلامية مع والده خليل بن شاهين. كما تتلمذ الابن عبد الباسط الملطي على كبار العلماء في كل من دمشق والقاهرة اللتين كانتا تعجان بجهابذة الفكر، ونتيجة لذلك تفنن بعلوم كثيرة مثل علم التاريخ وتفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية واللغة العربية والفقه والمنطق والحكمة. والمشهور لدى المؤرخين في المعمورة أنه درس العلم للعلم، لذا تنقل أيضاً في جميع بلدان المغرب العربي باحثاً عن كل من العلماء والمراجع، حيث نقل عن علمائها الكثير من معارفه في مجال علم التاريخ الخاص ببلدان المغرب العربي. قضى زين الدين الملطي معظم أيام حياته بمدينة القاهرة، لذا يسمى في بعض الأحيان بعبد الباسط الملطي القاهري. والمعروف أنه مؤلف مكثر في علوم كثيرة، ولكنه قطع شوطاً بعيداً جداً في ميدان علم التاريخ، كما ذاع صيته بمنهجه التاريخي المتميز. أصيب بمرض السل وتوفي بمدينة القاهرة سنة (٩٢٠ هجرية). والمتواتر أنه كان غني الملاحظة وصاحب مهارات متنوعة، يلتقي بالناس بكل سرور على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم ومذاهبهم، فيسجل ما يسمعه ويلاحظه، ويسأل ويجمع.

ولقد وصف **ابن الوزير الملطي** منهجه في التأليف في كتابه «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم» قائلاً: «وتوخيت فيه ما ثبت عند من نقل السادة المعتمدين الأخيار، أو شاهدته عياناً أو مستقصياً يقيناً من الأخبار ومن الله ـ سبحانه ـ استمد المعونة والتوفيق، واسأله ـ تعالى ـ الهداية للنطق بما

يليق، والابتعاد عن الإفحاش وهضم الناس، والإرشاد لإعطاء كل ذي حق حقه من غير تعصب ولا اختلاس، وأن يجعله حاثاً للواقف عليه فعل ما يُحمد، وملازمة شهرة يذكر بها ويرشد، ومبعداً عن رذائل ذوي السير الذميمة، هذا مقصدي، ولم أقصد الغيبة والنميمة، والله بذلك هو الكفيل، وهو حسبي ونعم الوكيل».

لقد أتاحت الرحلات العلمية التي قام بها زين الدين الملطي اجتماعه بكبار العلماء في العالم الإسلامي وحصوله على الكتب النادرة، وهذا المسار العلمي العظيم أكسبه معارف تاريخية وأدبية رائعة. وقد تجلت مقدرته العلمية المرموقة في مؤلفاته المختلفة التي نوه عنها المؤرخون في مؤلفاتهم ومنها: نزهة السلاطين فيمن ولي ملك مصر من السلاطين، والمجمع المفنن بالمعجم المعنون «تراجم على حروف المعجم»، وغاية السول في سيرة الرسول ﷺ ، ونيل الأمل في ذيل الدول، والقول الحزم في تاريخ الأنبياء أولي العزم، والروضة المربعة في سيرة الخلفاء الأربعة، وتاريخ مرتب على السنين، والروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، والدار الوسيم وتوشيح وتتميم التكريم في تحريم الحشيش ووصفه الذميم، وشرح عمدة الطالبين ورغبة الراغبين، ونزهة الألباب في مختصر أعجب العجائب، والقول المشهود في ترجيح تشهد ابن مسعود، ومجموع البستان النوري لحضرة مولانا السلطان النوري، والقول الخاص في تفسير سورة الإخلاص، والأذكار المهمات في المواضع والأوقات، والحكمة في كون خمس صلوات مخصوصة بهذه الأوقات، والمنفعة في سر كون الوضوء مخصوصاً بالأعضاء الأربعة، والنفحة الفاتحة في تفسير سورة الفاتحة، والقول المأنوس في حاشية القاموس للفيروز آبادي، والزهر المقطوف في مخارج الحروف.

وخلاصة القول: لقد اهتمت الدولة المملوكية الثانية والمعروفة آنذاك بدولة المماليك الجراكسة في نشر العلم ودراسة التراث العربي والإسلامي عن كثب في مصر، لذا كان هناك حركة فكر جيدة في جميع العلوم والفنون،

وعليه ولد هذا الازدهار العلمي حينئذ علماءَ متميزين، ليس فقط في علم التاريخ ولكن في سائر العلوم، ونتيجة لذلك درس ابن الوزير الملطي علم التاريخ عن قناعة تامة، حيث أسهم فيه إسهامات رائعة؛ لأنه كان يعتقد أن علم التاريخ ملتقى كل من التحركات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، كما برهن من خلال كتاباته أن علم التاريخ علم شامل للحياة العقلية والعقائدية والأخلاقية والأدبية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ولقد ساهم ابن الوزير الملطي مساهمة فعلية في تطور علم التاريخ، حيث قدم دراسة مفصلة عن الأمم الماضية والأجيال الغابرة، وشرح الغامض ببعض الأحداث التاريخية. كما عرض دراسة متكاملة للأماكن والقبائل والرجال المشهورين الذين التقى بهم، على هذا المنوال كون ثروة تاريخية عظيمة أفادت المؤرخين فائدة كبيرة. ومما لا يقبل التأويل أنه كان مؤرخاً بارعاً محباً لعلمه. كما اشتهر بين معاصريه بأسلوبه العلمي الواضح الذي صار نموذجاً للعلماء التابعين له.

تميز عبد الباسط الملطي عن غيره من المؤرخين بإضافاته وبأسلوبه الرائع الممتع وبأمانته في علمه وموضوعيته في أحكامه. والحقيقة التي يجب أن يعرفها القارىء أن المؤرخين لم يعطوه حقه الكامل، من حيث الإشادة بمجهوداته التاريخية والأدبية والشرعية؛ فقد أعطى إنتاجاً ضخماً حافلاً بالنظريات والآراء الفريدة التي ساعدت على كشف الحقائق والوقوف عليها، ولكنها للأسف الشديد لا تزال في بطون مؤلفاته التي على رفوف المكتبات في المعمورة تحتاج إلى من ينبشها ويقدمها للدارسين والباحثين المعاصرين في ثوب جديد.

طاش كبرى زاده

هو **أحمد بن مصطفى بن خليل** الشهير **بطاش كبرى زاده**، يكنى بكل من **أبي الخير وعصام الدين**، وقد أخذ لقبه **طاش كبرى زاده** من عائلته التركية التي عاشت في قرية طاش كبرى القريبة من قسطموني في الأناضول (شبه جزيرة آسيا الصغرى). ولد بمدينة بورصة (عاصمة الدولة العثمانية ٧٢٦ ـ ٨٥٧ هجرية) سنة (٩٠١ هجرية)، وتلقى تعليمه الأولي هناك، في الوقت الذي كانت مدينة بورصة من أهم المدن التركية، ولكن طموحاته ورغبته الفائقة النظير للاستزادة من العلم والمعارف جعلته يتنقل بصحبة والده بين كل من مدينة حلب الشهباء وبورصة وأدرنة وغيرها من المدن الإسلامية، لذا تعددت نواحي عبقريته، وصار عالماً مشاركاً في كثير من العلوم. ولا شك أن الدين الإسلامي كان المحرك الأول له؛ لأنه يحث على طلب العلم والمعرفة، علاوة على أنه نما وترعرع في بيئة علمية راقية.

استوطن عصام الدين طاش كبرى زاده مدينة أنقرة (عاصمة تركيا الحالية) وأسندت إليه مهمة القضاء فيها وذلك سنة (٩٥٨ هجرية)، وقد فقد بصره من الإجهاد عام (٩٦١ هجرية)، ومن ثم اتجه إلى مدينة إستانبول القريبة من مسقط رأسه مدينة بورصة، وبقي فيها ضريراً حتى توفي سنة (٩٦٨ هجرية) ودفن فيها. والجدير ذكره أنه تفرغ في آخر أيام حياته لتعليم طلابه وللتأليف، فكان يملي بعض مؤلفاته على طلابه المتفوقين لنشرها بين طلاب العلم والباحثين. والمعروف أن أبا الخير أحمد طاش كبرى زاده كان متميزاً في تدريسه، لذا كان طلاب العلم يأتون من كل حدب وصوب للتتلمذ عليه في كل من علم التاريخ والحديث والفقه واللغة العربية.

ويذكر كل من المحققين كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور في مقدمتهما لكتاب «مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم»

لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده أن عصام الدين أحمد طاش كبرى زاده نشأ نشأة دينية مستقيمة في بيت علم ودين، وانعكس هذا على صفاته الخلقية والعلمية، فكان يفضل العلوم الدينية على سواها وينقد الفلسفة التي تؤدي إلى التضليل أو كما يسميها الحكمة المموهة. وقد حفظ القرآن الكريم على والده، وزار عدداً كبيراً من المدن التركية (للاستزادة من العلم والمعرفة) بصحبة والده الذي كان دائم الترحال، لذا تنوعت معاهد العلم التي التحق بها، فتفنن في كل من علم التاريخ واللغة العربية والدين والمنطق والفلك والجدل والعلوم العقلية المختلفة.

وفي آخر أيام حياته (أي قبل وفاته بسبع سنوات) أصيب بالرمد وكف بصره، فلزم بيته، وعكف على إملاء بعض كتبه وتوجيه تلاميذه إلى تبييض بعضها. والثابت أنه كان عزوفاً عن طلب الدنيا وحكامها، متواضعاً جم التواضع يعطي كل ذي حق حقه، غير متحيز ولا متعصب، وقد ذاع صيته وانتشر في الآفاق ذكره بواسطة كتابه آنف الذكر الذي يُعتبر موسوعة في تاريخ العلوم العربية، وقد رتبه ترتيباً مصنفاً (أي وفقاً لنظام تصنيف المعرفة البشرية السائدة في عصره) وضمنه معلومات ببليوجرافية نادرة تبين مكانة عصره.

كان عصام الدين أحمد طاش كبرى زاده واسع الثقافة، وكان متبحراً، ليس فقط في علم التاريخ ولكن في سائر العلوم، ولم يكتف بالاطلاع والتبحر، بل أسهم إسهامات جليلة في الحركة الفكرية، ويتضح ذلك من مؤلفاته العديدة التي ذكر بعضها مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي في كتابه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» وهي: كتاب آداب المولى أبي الخير، وكتاب الأربعين في الحديث وغيره، وكتاب الاستقصاء في مباحث الاستثناء، وكتاب التعريف والأعلام في حل مشكل الحد التام، وكتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، وكتاب فرايض طاش كبرى زاده، وكتاب المعالم في علم الكلام، وكتاب مفتاح

السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، وكتاب الإعراب في النحو، وكتاب نوادر الأخبار في مناقب الأخيار، وكتاب معجم التراجم، وله نظم جيد، ورسالة أجل المواهب في معرفة وجوب الواجب، ورسالة في تفسير آية الوضوء، والرسالة الجامعة لوصف العلوم النافعة، ورسالة الشفاء لأدواء الوباء، ورسالة في القضاء والقدر، ورسالة صورة الخلاص في سورة الإخلاص، ورسالة في العناية في تحقيق الاستعارة بالكتابة، ورسالة فتح الأمر المغلق في مسألة المجهول المطلق، ورسالة القواعد الجليات في تحقيق مباحث الكليات، ورسالة مسالك الخلاص في مهالك الخواص، ورسالة نزهة الألحاظ في عدم وضع الألفاظ للألفاظ، وشرح كل من: كتاب الأخلاق لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، وكتاب طوالع الأنوار للقاضي عبد الله بن عمر البيضاوي، وكتاب العوامل المئة في النحو للشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، وكتاب الفوائد الغياثية في المعاني والبيان للقاضي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، وكتاب مفتاح العلوم للعلامة سراج الدين يوسف السكاكي، وكتاب المقدمة الجزرية في علم النحو (منظومة) للشيخ محمد بن محمد الجزري، وكتاب مقدمة الصلاة لشمس الدين محمد بن حمزة الفناري، وكتاب الهداية لشيخ الإسلام برهان الدين علي المرغيناني.

وخلاصة القول: لقد شجعت الدولة العثمانية طلاب العلم على الدراسة والبحث في مجال علم التاريخ، لاعتقادهم الصادق أن علم التاريخ هو حصيلة تفاعل الإنسان مع بيئته، مما دفع أحمد بن مصطفى طاش كبرى زاده أن يعمل بكل جد وتفان في هذا الميدان الحيوي. وكان لديه قناعة تامة بما يملك علم التاريخ من مادة محددة الأبعاد، وعليه حاول أن يجعله محور نشاطه العلمي، وقد نجح بذلك نجاحاً باهراً.

وكان عصام الدين أحمد طاش كبرى زاده مبدعاً في شتى فروع المعرفة، ولكنه تفنن في ميدان علم التاريخ، حيث أدرك بعقليته الجبارة ما يعانيه

obeikandi.com

الباحث في تحليل الأفكار التاريخية، وربط بعضها ببعض ربطاً علمياً نزيهاً. ولقد تمكن بجدارة من ترتيب كل من كتبه ورسائله وشروحه لبعض الكتب المشهورة أحسن ترتيب، حيث جعلها بمنهجه الرائع سهلة التناول للدارسين والباحثين؛ لأنه استعمل بهذا كل ما وهبه الله جل وعلا من سرعة البديهة ونفاذ القريحة، إذن لا عجب إذا اشتهر شهرة رائعة وانتشرت أقواله بين المؤرخين ليس فقط في العالم الإسلامي ولكن في جميع أرجاء المعمورة.

obeikandl.com

أبو العباس المقري

هو **أحمد بن محمد بن أحمد التلمساني**، يكنى **بأبي العباس**، ويلقب **بالمقري**، وفي بعض الأحيان يسمى **شهاب الدين**. ولد سنة (٩٨٦ هجرية) بقرية مقرة إحدى قرى تلمسان الجزائرية، ونما وترعرع في بيئة علمية بقريته، وحفظ القرآن الكريم على يد عمه مفتي تلمسان، حيث كان عمه من كبار علماء تلمسان في العلوم الشرعية. كما أن تلمسان تعتبر من أحسن وأجمل بلاد المغرب العربي برمته، والجدير ذكره هنا أن بعض المؤرخين اختلفوا بتاريخ ولادة أبي العباس المقري، فبعضهم يذكر أنه ولد سنة (١٠٠٠ هجرية) وعلى رأسهم كل من عمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين» وليفي بروفنسال في «دائرة المعارف الإسلامية»، وفي سنة (١٠٠٩ هجرية) غادر مسقط رأسه متجهاً إلى مدينة فاس العريقة وهو في ريعان شبابه ليتتلمذ على جهابذة الفكر هناك، ولكنه لم يستقر طويلاً بها في أول زيارة، بل عاد إلى تلمسان، ثم رجع إلى مدينة فاس سنة (١٠١٣ هجرية) واستوطنها، وتولى الإمامة والخطابة فيها. وأخيراً في عام (١٠٢٧ هجرية) رحل منها متجهاً إلى بيت الله الحرام «مكة المكرمة» لأداة مناسك الحج تاركاً الوظيفة والوطن وراء ظهره، وفي طريقه هذا مر بمصر، وشهد ـ وعمره يناهز الثلاثين سنة ـ مسلمي الأندلس يبحثون عن ملجأ لهم في بلاد المغرب العربي؛ لأنهم طردوا من بلادهم.

لم يمكث أبو العباس المقري طويلاً بمصر، بل استمر في رحلته متجهاً إلى الأراضي المقدسة، حيث وصل مكة عام (١٠٢٨ هجرية) وزار المدينة المنورة، ثم قرر أن يرجع إلى مصر سنة (١٠٢٩ هجرية) لكي يستقر بها وليتزوج من نسائها، ولم يلبث طويلاً هناك، بل فكر أن يزور كلاً من القدس ودمشق ومكة المكرمة، وأخذ يتنقل في كل من الديار المصرية والحجازية

obeikandl.com

والشامية حتى سنة (١٠٣٧ هجرية)، فقد زار مكة خمس مرات، ولكنه في الأخير استوطن القاهرة ليكون قريباً من الأزهر الشريف وتوفي بها سنة (١٠٤١ هجرية).. وذاع صيت أبي العباس المقري بين زملائه لعلمه وقوة عزمه، فكان مؤرخاً نزيهاً يقول كلمة الحق ولو على نفسه، كما عرف أيضاً بسعة ثقافته وقدرته العجيبة على التنقير والتفتيش.

يقول **أحمد بن محمد المقري التلمساني** في مقدمة كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» ـ المجلد الأول ـ تحقيق إحسان عباس: «أما بعد حمد الله مالك الملك، والصلاة على رسوله المنجي من الهلك، والرضا عن آله وصحبه الذين تجلت بأنوارهم الظلم الحلك، وعن العلماء الأعلام، الخائضين بحار الكلام، المستوين من البلاغة على الفلك، فيقول العبد الحقير، المذنب الذي هو إلى رحمة ربه الغني فقير، المقصر المتبرىء من الحول والقوة، والمتمسك بأذيال الخدمة للسنة والنبوة، وذلك بفضل الله أمان وبراءة، الضعيف الفاني، الخطاء الجاني، من هو من لباس التقوى عري، أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقري، المغربي المالكي الأشعري، التلمساني المولد والمنشأ والقراءة، نزيل فاس الباهرة ثم مصر القاهرة... ثم شمرت عن ساعد العزم بعد الإقامة بمصر مدة قليلة، إلى المهم الأعظم والمقصد الأكبر الذي هو سر المطالب الجليلة، وهو رؤية الحرمين الشريفين، والعلمين المنيفين، زادهما الله تنويهاً، وبلغ النفوس ببركة من شرفا به مآرب لم تزل تنويها، فسافرت في البحر إلى الحجاز، راجياً من الله سبحانه في الأجر الانتجاز، إلى أن بلغت جدة، بعد مكابدة خطوب اتخذت لها من الصبر عدة، فحين حصل القرب، واكتحلت العين بإثمد تلك الترب، وترنمت بقول من قال، محرضاً على الوخد والإرقال:

بدا لك الحق فاقطع ظهر بيداء   واهجر مقالة أحباب وأعداء
واقصد على عزمةٍ أرض الحجاز تجد   بعداً عن السخط في نزل الأودّاء

obeikandi.com

وقل إذا نلت من أم القرى أرَباً   وهو الوصول بإسرار وإبداء
يا مكة الله قد مكنت لي حرماً   مؤمَّناً لست أشكو فيه من داء
فمذ رأى النازح المسكين مسكنه   في قطرك الرحب لم ينكب بأرزاء
شوق الفؤاد إلى مغناك متصل   شوق الرياض إلى طل وأنداء

... ثم رجعت إلى القاهرة، وكررت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة، فدخلت لهذا التاريخ الذي هو عام تسعة وثلاثين وألف مكةَ خمس مرات، وحصلت لي بالمجاورة فيها المسرات، وأمليت فيها دروساً عديدة، والله يجعل أيام العمر بالعود إليها مديدة، ووفدت على طيبة المعظمة، سبع مرار.. ثم أبت إلى مصر مفوضاً لله جميع الأمور، وملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور».

اعتكف أبو العباس المقري التلمساني في أواخر أيام حياته على التأليف، فأنتج إنتاجاً هائلاً ولكن للأسف الشديد ضاع أكثره. وقد تناقل المؤرخون قائمة أغلب مؤلفاته؛ منهم على سبيل المثال **إسماعيل باشا البغدادي**، الذي ذكر في كتابه «هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين» ـ المجلد الأول ـ بعضها وهي: كتاب روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس، وكتاب أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، وكتاب إضاءة الدجنة في عقائد أهل السُّنة، وكتاب عرف النشق في أخبار دمشق، وشرح مقدمة ابن خلدون، وكتاب الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين، ونظم في علم الجدول، وكتاب الغث والسمين والرث الثمين، وكتاب البدأة والنشأة في النظم والأدب، وكتاب أخبار الوزير لسان الدين ابن الخطيب، وكتاب الدر المختار من نوادر الأخبار، وكتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب التي ذكرها أبو العباس المقري في مقدمته، فقد قسم المؤلف كتابه هذا إلى قسمين رئيسين كل منهما له حيثياته العلمية الخاصة به.

القسم الأول: خاص بأخبار بلاد الأندلس ويحتوي على ثمانية أبواب،

الباب الأول: في وصف جزيرة الأندلس، وحُسن هوائها واعتدال مزاجها ووفرة خيرها، وذكر بعض مآثرها. والباب الثاني: يختص بفتح بلاد الأندلس على يد كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد، مع الإلمام بذكر ولاتها من قبل بني أمية، والباب الثالث: فيما للدين الإسلامي بالأندلس من العز السامي، وقهر العدو، وتشجيع الناس على الجهاد مع ذكر خلفائها وملوكها، والباب الرابع: في وصف المساجد والمصانع والمنتزهات وقرطبة المقر الرئيس للخلافة الأموية، والباب الخامس: في التعريف بأعلام الأندلس ذوي العقول الراجحة، وخاصة الذين رحلوا إلى بلاد المشرق العربي، والباب السادس: في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق العربي، والتنويه عن مكانتهم العلمية. والباب السابع: في ذكر نبذة مما منَّ الله به على الأندلس من توقد الأذهان، وذلك بمقدرتهم على اكتساب المعارف المختلفة. والباب الثامن: من ذكر تغلب العدو الكافر على بلاد الأندلس بعد صرفه وجوه الكيد إليها، وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره.

أما القسم الثاني: من الكتاب فخصصه أبو العباس المقري التلمساني بالتعريف بالوزير الشاعر لسان الدين ابن الخطيب، ويشتمل على ثمانية أبواب أيضاً، الباب الأول: عن تاريخ عائلة لسان الدين ابن الخطيب العريق الذين ورث عنهم المجد وارتضع در أخلافه. والباب الثاني: يتناول نشأته وترقيته ووزارته وسعادته، والباب الثالث: في ذكر مشايخه الجلة، هداة الناس ونجوم الملة، وما يتصل بذلك الأخبار الشافية للعلة، والمواعظ المنجية من الأهواء المضلة والمناسبات الواضحة البراهين والأدلة. والباب الرابع: في مخاطبات الملوك والأكابر له وثناء أهل عصره عليه، والباب الخامس: في إيراد جملة من نثره الذي عبق أريج البلاغة من نفحاته، ونظمه الذي تألق نور البراعة من لمحاته وصفحاته وما يتصل بذلك من بعض رجاله وموشحاته، ومناسبات رائعة من فنون الأدب ومصطلحاته. والباب السادس: في مصنفاته في الفنون،

obeikandi.com

ومؤلفاته المحققة للواقف عليها الآمال والظنون، وما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المنون، والباب السابع: في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه، المستدلين به على المنهاج، المتلقين أنواع العلوم منه، والمقتبسين أنوار الفهم من سراجه الوهاج. والباب الثامن: في ذكر أولاده المقتفين أوصافه الحميدة، الوارثين العلم والحلم والرياسة والمجد عن غير كلالة، ووصيته لهم الجامعة لأدب الدين والدنيا، المشتملة على النصائح الكافية، والحكم الشافية.

لقد تردد كثيراً أبو العباس في تسمية كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، حيث أطلق عليه أولاً اسم: (عرف الطيب، في التعريف بالوزير ابن الخطيب) ثم قرر أن يغير الاسم عندما أضاف تاريخ الأندلس للكتاب فسماه (نفح الطيب) من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، ثم انتهى إلى اختصار الاسم الأخير، واكتفى بـ «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» وللأسف الشديد أن هذا الكتاب القيم لم يكن معروفاً في العالم الإسلامي بأكمله إلا عندما نشر كاملاً في بولاق سنة (١٢٧٩ هجرية)، ومن ثم أعيد طبعه في القاهرة تحت إشراف محيي الدين عبدالحميد سنة (١٣٦٨ هجرية). ولحسن الحظ أن إحسان عباس قام بتحقيقه، ونشرته دار صادر اللبنانية سنة (١٣٨٨ هجرية)، وهذه الطبعة المنقحة هي المنتشرة في معظم مكتبات العالم العربي والإسلامي، ومما يجدر ذكره هنا أن كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» من الكتب المهمة جداً، حيث تكمن أهميته بأنه حفظ للأمة العربية والإسلامية فقرات ضرورية للباحثين في تاريخ الأندلس ضاعت أصولها.

وخلاصة القول: قضى المتعصبون الإسبانيون تماماً على آثار الحضارة العربية الإسلامية في الأندلسيين، حيث أحرقوا معظم الكتب النفيسة لكبار المسلمين الأندلسين، وذلك لإرضاء أحقادهم الخطيرة التي يكنونها للمسلمين، لذا فإن المصنفات التي بقيت تتناول تاريخ الأندلس من حيث أحوال أهلها

السياسية والاقتصادية والتربوية والأدبية والدينية قليلة جداً. ونتيجة لهذه الأعمال التخريبية التي قام بها حمقاء الإسبان ـ النصارى ـ صار من الصعب الحصول على معلومات تاريخية عن فحول المسلمين في الأندلس تشفي غليل الباحث. وعليه أخذ المؤرخ أحمد بن محمد المقري التلمساني ـ المغرم والمفتون ببلاد الأندلس وإن لم يضع قدمه على أرضها ـ على عاتقه أن يعمل المستحيل لجمع المعلومات الضرورية عن أعلام ونبلاء الأندلس المغتصبة في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب».

ولقد أكثر أبو العباس المقري من التنقل بين عواصم الدول الإسلامية، وذلك ليحضر مجالس جهابذة الفكر، ويستمع إلى مناقشتهم وأحاديثهم ومساجلاتهم لكي يلم بأطراف المعرفة ويهضمها، وقد ساعده على تفوقه سرعة استيعابه وجودة فهمه واعتكافه ومثابرته للتحصيل والبحث والاستقصاء في سير فحول كل من الأندلس والمغرب العربي. ولاشك أن كلاً من عمله الواسع وثقته بنفسه وعلو همته جعلته يعد من كبار المفكرين في الحضارة العربية والإسلامية. والجدير بالذكر أن علامات كل من قوة ذاكرته وشدة إقباله على الدراسة أشرقتا عنده وهو في بواكير صباه. لذا حرص عمه مفتي تلمسان أن يوجهه ويعينه على طلب العلم وهو في ريعان شبابه، ويظهر واضحاً للقارىء أن الأسس التي بنى عليها هرم حياته هي العزيمة والجد والعمل.

تم بحمد الله ...